العدد 177
السنة التاسعة عشرة
خريف ٢٠٢١

مجلة سياسية ثقافية تصدر عن شبكة إعلام الاتحاد الإسلامي الكوردستاني

A political, cultural magazine issued quarterly by Kurdistan Islamic Union

صاحب الامتياز
صلاح الدين بابكر

رئيس التحرير
سالم الحاج
salimalhaj83@yahoo.com
07504499179

هيئة التحرير
سعد الزيباري
saadsuhaib@yahoo.com

سرهد أحمد علي
sarhad_ahmad72@yahoo.com

الإخراج الفني
قوباد ياسين طه
tqubadyasen@yahoo.com

مدير الإدارة
مغديد صباح
maghdeedsabah@gmail.com

الموقع الألكتروني
http://alhiwarmagazine.blogspot.com

البريد الألكتروني
alhiwar2003@yahoo.com

alhiwarmagazine2002

alhiwarmagazine

العنوان
إقليم كوردستان العراق/ أربيل - محلة طيراوة/ مقابل نقليات الشمال/ قرب المركز الثاني للاتحاد الإسلامي الكوردستاني

المحتويات

دراسات		٤
- رؤية العلامة ناصـر سبحاني حول النبوة والرسالة والعصمة	عمر عبد العزيز	٥ -١٩
- السلوك مفهومه وأثره في القرآن الكريم	د. عبد اللطيف ياسين	٢٠-٣٣
- الوسطية في فكر الإمام الشاطبي	د. دحام الهسنياني	٣٤ - ٥٠
- حملات تشويه الخليفة عمر بن الخطاب	د. فرست مرعي	٥١ - ٦٣
- عبق الكلمات/ فقه القراءة	عبدالباقي يوسف	٦٤ - ٦٥
مقالات		٦٦
- نظرة في حزمة إصلاح الاقتصاد التركي	شوان زنكنة	٦٧ - ٧٢
- تفنيد قصّـــة سحر النبي المزعومة	محمد القوصي	٧٣ - ٧٦
- بشرية الرسول محمد – عليه الصلاة والسلام -	د. سعد الديوەجي	٧٧ - ٨١
- نحن والحياة	د. سامي محمود	٨٢ - ٨٤
- مصطلح (الإبراهيمية) بين سيرتين	د. سنان أحمد	٨٥ - ٨٩
- من الوحي إلى العصر	عمار وجيه	٩٠ - ٩٥
- أهلاً وسهلاً	بكر أبو بكر	٩٦ - ٩٨
- صفات مرتكبي الجريمة الإلكترونية وخصائصهم	مريم عبد الرحمن	٩٩ - ١٠١

مرافىء/ حين تعيش السياسة في غير بيئتها	د. يحيى عمر ريشاوي	١٠٢
لقاء/		١٠٣
- الأمة الكوردية أمة عريقة في هذه المنطقة	أجرى اللقاء: صلاح سعيد	١٠٤-١٠٩
تأملات في سورة/		١١٠
- ذم التفاخر في سورة التكاثر	صالح شيخو الهسنياني	١١١ - ١٢٦
بصراحة/ الشارع الواعي	صلاح سعيد أمين	١٢٧
ثقافة/		١٢٨
- نظرية ما بعد الاستعمار: إرهاصات اليقظة الإنسانية في الفكر والأدب	عبد الله خوراني	١٢٩ - ١٤٤
- صبا؛ رواية المرأة الكوردية	سالم الحاج	١٤٥ - ١٥٦
- قصة قصيرة: أنا لست كافراً.. بل الجوع كافر	عبد الخالق البرزنجي	١٥٧ - ١٥٩
آخر الكلام/ مؤامرة أم أخطاء بنيوية؟	محمد واني	١٦٠

دراسات

- رؤية العلامة ناصـر سبحاني حول النبوة والرسالة والعصمة	عمر عبد العزيز
- السلوك مفهومه وأثره في القرآن الكريم	د. عبد اللطيف ياسين
- الوسطية في فكر الإمام الشاطبي	د. دحام الهسنياني
- حملات تشويه الخليفة عمر بن الخطاب	د. فرست مرعي

رؤية العلامة ناصر سبحاني
حول النبوة والرسالة والعصمة

- الحلقة ١٠ -

د. عمر عبد العزيز

✍ تحدثنا في الحلقة التاسعة عن رؤية العلامة ناصر سبحاني حول حقيقة التوحيد وآثاره، والشرك وأنواعه، وأهمية التوحيد للإنسان في تصوره، وحقيقة التوحيد، والاستدلال القرآني عليه، وتوحيد الألوهية والربوبية، والحكم بغير ما أنزل الله، ومنافاته لتوحيد الألوهية، وألقينا الضوء على بدايات شروع الشرك، وأسبابه، والمجالات التي وقع فيها الشرك بالله.

في هذه الحلقة سنتحدث عن تصوره للنبوة والرسالة، والحكمة من بعث الأنبياء (عليهم السلام)، ومفهوم عصمة الأنبياء، وموضوع حفظ التنزيل الحكيم..

المنهجية المتميزة:

تمتاز منهجية العلامة ناصر سبحاني في تناوله لموضوع النبوة والرسالة بخاصية تتمثل - بالدرجة الأولى - في الاعتماد على آيات القرآن الكريم بطريقة استقرائية دقيقة. ولقد خصّ عشرات من دروسه ومحاضراته العلمية، المتعلقة بالعقيدة والإيمان، لموضوع النبوة والرسالة، كما خص جزءاً وافراً من كتابه القيم (الولاية والإمامة) للمبحث نفسه، لصلته المباشرة بهما.

ولقد حقق الشهيد، بدقة وإتقان، في جوانب عديدة مما يتعلق بالموضوع، فتحدث عن الحكمة من مبحث الأنبياء - عليهم السلام-، وطريقة اختيارهم من لدن الله -عز وجل-، وتحدث عن تعريف النبوة والرسالة، والفرق بينهما، وموقع الإمامة والولاية فيهما. كما وضح حكمة ختم النبوة في بداية القرن السابع الميلادي. وأشار إلى طرق الوحي، وكيفية تلقّيه، وجوانب الإعجاز والتحدي في القرآن الكريم.

هذه، وغيرها مما يتعلق بموضوع النبوة والرسالة، سنتناولها في هذا المقال، موضحين وجهة نظر الشهيد سبحاني، ومقارنين بينها وبين ما قاله القدماء من العلماء، في جوانب قد تحتاج إلى مقارنة.

أولاً/ النبي والرسول، والنبوة والرسالة، في اللغة والاصطلاح:

النبيِ: فعيل من النبأ، بمعنى الخبر الهام، والنبي مَن ينبئ الأنباء عن الله. ويقال للطريق الواضح السهل: النبي[1]، وقيل: هو من النَّبوَة، بمعنى ما ارتفع من الأرض، فإن جعلت النبي مأخوذاً منه، أي: أنه شُرِف على سائر الخلق، فأصله غير الهمز[2]. وأصل النبيِ: النبيء بالهمز، والمختار ترك الهمز[3]. وقال الراغب الأصفهاني: "النبأ: خبر ذو فائدة عظيمة، يحصل به علم أو غلبة ظن، ولا يقال للخبر في الأصل نبأ حتى يتضمن هذه الأشياء الثلاثة. وحق الخبر الذي يقال فيه نبأ أن يتعرّى عن الكذب، كالتواتر، وخبر الله، وخبر النبي – صلى الله عليه وسلم. والنبي لكونه منبئاً بما تسكن إليه العقول الزكية، يصح أن يكون فعيلاً بمعنى فاعل، لقوله تعالى: {نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ}(الحجر: ٤٩). وقوله: {قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ}(آل عمران: ١٥). وأن يكون

١ الفراهيدي، **العين**، ٩٣٢.

٢ الرازي، **مختار الصحاح**، ص ٦٤٤، والراغب الأصفهاني، **المفردات**، ٧٨٨.

٣ الفيروز آبادي، **القاموس المحيط** ، ٦٧.

بمعنى المفعول، لقوله: {وَ إِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَٰذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ}(التحريم: ٣)[٤].

أما الرسول، فأصله من الرَسْل، بمعنى الرفق والتؤدة، أو من الرّسل بمعنى السّهل من السّير[٥] . والرسول فعول من الرسالة، ويُجمع على رُسل. وبناء على ذلك عرف العلماء النبوة بأنها: "سفارة بين الله وبين ذوي العقول من عباده، لإزاحة عللهم في أمر معادهم ومعاشهم"[٦].

ولقد أكد الشهيد سبحاني أنه إذا أريد اختيار عبد من الله سبحانه ليأتيه الوحي، فيقال: نبيَ، أي الذي أتاه نبأ الوحي. وإذا أريد جانب إيصال هذا النبأ الإلهي إلى عباده، يقال: الرسول، بمعنى حامل الرسالة ومرسلها. قال في ذلك: "النبوّة أصلها: النبوءة من النبأ، ولفظة النبي أصلها النبيء، فعيل بمعنى المفعول، وصنعت للدلالة على من ألقي إليه نبأ الوحي. ولفظة النبوءة للدلالة على كون الإنسان بحيث يلقى إليه ذلك النبأ"[٧].

ولقد قال العلماء - قديماً - في الفرق بين الرسول والنبي: "أن كلّ من نزل عليه الوحي من الله تعالى، على لسان مَلَك من الملائكة، وكان مؤيداً بنوع من الكرامات الناقضة للعادات، فهو نبيَ. ومن حصلت له هذه الصفة، وخُصّ – أيضاً – بشرع جديد، أو بنسخ بعض أحكام شريعة كانت قبله، فهو رسول"[٨]. وبهذا يتضح أن الرسل كلهم أنبياء، وليس كل الأنبياء رسلاً، لأ ن الرسول هو الذي أتاه وحي تضمن شريعة، وكُلّف بإيصالها إلى الناس، ولهذا سُمّي رسولاً. أما النبي، فليس مكلفاً بإيصال شريعة جديدة، فهو مكلف بالعمل بشرع من قبله. ولهذا يطلق على آدم بأنه نبي الله، ولا يقال رسول، بينما يقال

٤ الراغب الأصفهاني، **المفردات**، ٧٨٩.
٥ الفيروز آبادي، **القاموس المحيط**، ١٣٠٠.
٦ الراغب الأصفهاني، **المفردات**، ٧٨٩.
٧ أكد على هذه المعاني في دروس عديدة، وبعض كتبه، انظر على سبيل المثال: **الولاية والإمامة**، ٧٣.
٨ البغدادي، عبد القاهر، **الفرق بين الفرق**، ٢٦٤.

لنوح: رسول الله. وقد يقال إنه أول رسول، كما جاء في حديث الشفاعة الصحيح: يا نوح، إنك أول رسول[٩].

وللسبب ذاته – أي الفرق بين الرسول والنبي، والرسالة والنبوة- وصف الله رسوله محمداً -عليه الصلوات والبركات- بأنه الرسول النبي في قوله: {الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ}(الأعراف: ١٥٧)، وكذلك وصف موسى وإسماعيل – عليهما السلام - بهما أيضاً، في قوله تعالى: {وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا}(مريم:٥١). ولكون مقام الرسل أعظم من مقام الأنبياء، قدم الله كلمة الرسول على النبي في المواقع الثلاثة السالفة، والله أعلم.

ثانياً/ الحكمة من بعث الأنبياء (عليهم السلام):

موضوع النبوة أول موضوع فكري تحدث عنه المتكلمون في مباحث السمعيّات، ضمن مسائل علم الكلام. ولقد تناوله معظمهم بأسلوب فلسفي جامد، بعيد عن منهج القرآن في تناول قصص الأنبياء، والمسائل المتعلقة بالوحي والتنزيل. فالله سبحانه أكد - في مواقع عديدة، في القرآن الكريم - على حكمة إرسال الرسل، فقال مثلاً: {إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ}(فاطر:٢٤)، وأنه أرسل رسله {رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ..}(النساء: ١٦٥)، وآيات أخرى تؤكد على أن هناك ضرورة فعلية – بمقتضى صفات الرحمة والحكمة والعلم والإرادة لله – لأن يبعث الرسل لعباده. ولكن نرى فرقة كالمعتزلة تتحدث عن جواز وإمكانية إرسال الأنبياء، لا على ضرورة ذلك، بل إن بعض الغلاة منهم، كأبي إسحق النظام[١٠]، اقترب من إنكار النبوات، فلقد أنكر المعجزات - كما ينقل عنه عبد القاهر البغدادي في (الفرق بين الفرق)- ، ولكن لم يجسر على إظهار هذا القول[١١].

هذا الجدل الكلامي أوقع الكثيرين في متاهات كان المسلمون في غنىً عنها، بينما انتبه الربانيون من علماء الأمة إلى أن أمر معرفة الله، وما يتعلق بالغيبيات من الوحي والنبوة

---

٩ حديث الشفاعة: حديث مفصل شهير، رواه البخاري، **الجامع الصحيح**، كتاب التوحيد، باب كلام الرب مع الأنبياء، رقم٧٥١٠. ومسلم، **الجامع**، كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة. رقم ١٩٣، بسندهما عن أنس بن مالك.

١٠ النَّظّام هو: أبو إسحق، إبراهيم، بن يسار، ابن أخت أبي الهزيل العلاف، توفي في حدود٢٢٣هـ/٨٣٧م، كفّره جميع فرق الأمة وأكثر المعتزلة، كما يقول البغدادي، انظر: **الفرق بين الفرق**، ٩٤.

١١ انظر: البغدادي، **الفرق بين الفرق**، ٩٣.

والملائكة، لا يحتاج إلى كل هذا التعقيد، الذي حصل إثر التأثر بالجدل (البيزنطي)، الذي انتقل إلى بعض الأفكار، وانتثر في ثنايا كتب التراث، مع الأسف.

لاحظ ما نقلناه آنفاً، وما يقوله عالم رباني، كابن قيم الجوزية، الذي اهتدى بالقرآن، أنقله هنا قبل أن أنقل قول صاحبنا الشهيد سبحاني، لكي نطمئن أن الاهتداء بالقرآن، وانتهاج منطقه في تناول مسائل العقيدة، يجمع المهتدين به في صف واحد، وفي مستوىً في الفهم الواحد، كالأواني المستطرقة، مهما تفاوتت أزمنتهم، وتباعدت أوطانهم، واختلفت أقوامهم، ولغاتهم، لكونهم يستمدون ويستلهمون من معين واحد. يقول ابن قيم الجوزية، فيما يتعلق بموضوع الحكمة من إرسال الرسل (عليهم السلام) من قبل الله: "لا سبيل إلى السعادة والفلاح ــ لا في الدنيا، ولا في الآخرة ــ إلا على أيدي الرسل. ولا سبيل إلى معرفة الطيّب والخبيث، على التفصيل، إلا من جهتهم. ولا يُنال رضى الله البتّة، إلا على أيديهم. فالطيب من الأعمال والأقوال والأخلاق، ليس إلا هديهم، وما جاءوا به.. فالضرورة إليهم أعظم من ضرورة البدن إلى روحه، والعين إلى نورها، والروح إلى حياتها. فأي ضرورة وحاجة فرضت، فضرورة العبد، وحاجته إلى الرسل، فوقها بكثير"[١٢].

هذا ما قاله الإمام العلامة ابن القيم، ولكن أرى أن الشهيد العلامة ناصر سبحاني تناول الموضوع بدقة أكثر، حيث استند على قواعد منطقية، مستهدياً بالقرآن، فأكد - في معظم محاضراته - على أن بعث الأنبياء والرسل (عليهم السلام) تم بمقتضى صفات الرحمة والحكمة الإلهية، فبما أن الله ربّ رحيم، وأن الرحمة تعني جلب المنافع ودفع المضار، وبما أنه لا نفع للإنسان أكبر من إنجائه من ظلمات الضلالة والجهل، إلى نور الهدى والعلم، فقد بعث الله في كل أمة رسولاً، ليدعوهم إلى معرفة الله وعبادته.

يقول سبحاني في هذا الموضوع: "المخلوقات التي حولنا إن هي إلا إمكانيات ومظاهر لرحمة الله الواسعة، لنتمتع بها نحن البشر وننتفع. ولا بد للتمتع بهذه الإمكانيات والنعم من رعاية طريقة من الطرق. والإنسان لا يستطيع أن يختار أنسب الكيفيات والأساليب، لمحدودية علمه، لذا يحتاج إلى هداية إلهية وإرشاد يضعه على جادة الصواب، للتمتع بالنعم كما يشاء الله، وإلا فستنقلب تلك النعم نقماً على الإنسان في الدنيا..". ثم يقول متسائلاً: "وهل يجدر بالله الرحمن الرحيم، أن يضع بين أيدينا إمكانيات، ويسخّر لنا من مظاهر نعمه ما يتعلق بقوتي النمو والنسل، وقوة الإحساس، وقوة الحركة، ولكن يهملنا

---

١٢ ابن القيم، أبو عبد الله، شمس الدين، محمد بن أبي بكر، الزرعي، (ت:٧٥١هـ/١٣٥٠م)، **زاد المعاد في هدي خير العباد**، تحقيق: عبد الرزاق الهدى، بيروت، دار الكتاب العربي،١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م، ٢٤.

بعد ذلك في مجال قوة العلم، وقوة الإرادة، اللتين خُصّ بهما الإنسان، فلا ينزل علينا آيات بينات؟ هل هذا يوافق حكمة الله؟ هل يعقل أن ينعم الله الخالق علينا بالنعم الصغيرة، ويهملنا ويحرمنا من النعمة الكبيرة؛ نعمة الهداية عن طريق الوحي إلى الأنبياء، التي هي كبرى النعم الإلهية؟ والتي بإهمالها ستنقلب جميع تلك النِّعَم نقماً؟![١٣].

ولإبراز جانب آخر – لا يقلّ أهمية عن الأول- من حكمة اصطفاء الأنبياء، وتكليفهم، من قبل الله سبحانه، يقول: "لما اعتدى بعض الناس على حق (الألوهية) المخصصة بالله - حيث حاول الملوك والحكام غصب شطر (الآمرية) منها، فجعلوا أنفسهم متسلطين على رقاب الناس، يشرّعون لهم من الدين ما لم يأذن به الله، وحاول الكهان وبعض القادة الدينيين غصب شطر (المعينية) منها، فجعلوا أنفسهم شفعاء وكلاء، يدّعون قربهم الخاص من الله، ويدّعون التوسط بين الناس وربهم - بعد أن علم الله بذلك، اصطفى من بين عباده أرشدهم وأصلحهم لتلقي هديه عن طريق الوحي، لكي يشهد أن الألوهية حق إلهي محض، وأن كلا الفريقين غاصبان لذلك الحق، فلا آمر إلا هو، كما لا معين ولا مغيث إلا هو - سبحانه وتعالى"[١٤]. هذا ما استلهمه الشهيد من قوله تعالى: {رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا}(النساء: ١٦٥).

ثم ألقى الضوء على حكمة اختيار القرن السابع الميلادي – قرن مبعث خاتم الأنبياء- قائلاً: "بعد مضي زمان، حين: {ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ}(الروم:٤١)، كان البشر في أشد الحاجة إلى هُدىً مطهّرٍ من شوائب النقص والزيادة والتغيير والتبديل والتحريف عن المواضع، وأسوة غير ضنين بالحق والخير، ولا ضنين بالباطل والشر، من جانب، وحين استعد البشر لتلقي آخر كتب الهداية، وحفظه، ومواطأة أكمل الأئمة الربانيين، ومشايعته، من جانب آخر، فَعَل الله عز وجل ما كان ينبغي أن يفعل[١٥].

وجواباً عن تساؤل حول تفريق الله لهديه، وتوزيعه على حقب زمنية، وإرسال آخر ما تبقى من هديه على خاتم الأنبياء والرسل محمد - صلوات الله وبركاته عليه وعليهم-، يقول: "إذا تذكرنا أن أفعال الله الحق الحكيم لا عبث فيها، علمنا أنه لو كان البشر يحتاج من بدء خلقه إلى الهدى الرباني في صورته الأخيرة، والإمامة في صراط الإيمان والعمل الصالح

١٣ ناصر سبحاني، محاضرة: إثبات عدم تحريف القرآن.

١٤ ناصر سبحاني، محاضرة في شرح الحديث الثاني من الأربعين النووية.

١٥ ناصر سبحاني، **الولاية والإمامة**، ٦٥.

في طورها الأخير، ويتمكن كذلك من تلقي وحفظ ذلك، ومواطأة ومشايعة هذه[١٦]، ولم تكن الحوائل المكانية والزمانية تمنع الهدى عن أن يُبلّغ ويُنقل إلى الأقوام والقرون، ما نزل إلا كتاب واحد، ولم يُبعث إلا نبي مرسل واحد. وعلى ذلك أُعلن، يوم تحققت الشروط والأسباب، وارتفعت الحوائل، ختم النبوة والرسالة"[١٧].

ثالثاً/ وظيفة النبوة والرسالة تقتضيان حفظ التنزيل، وعصمة النبي:

يعالج الشهيد سبحاني موضوع حفظ الوحي، والعصمة، بطريقة مميزة. يقول في البداية: "نزل الهدى الرباني – السبب الوحيد لإخراج الإنسان من ظلمات الظنون، وإنقاذه من زلازل الخوف والحزن الناشئين عن عدم الاستناد على أساس من الحقيقة، ورفعه من سفالة اتباع الهوى، إلى نور العلم، وأمن الإيمان بالحق، وعلاء اتباع الهدى- ليتخذ من يشاء سبيل الإيمان والعمل الصالح، وتقوم الحجة على من لا يشاء. هذا الهدى - الذي هو لكونه من الله، بمنأىً عن كل شَيْنِ نقص، وفي ازديانٍ بكل زين كمال - قد اجتاز من سماء مقام ربوبية الخالق الآمر، إلى أرض منزلة عبودية المخلوق المأمور، بمراحلَ قد حُفظ كلٌّ منها بما لا بد منه فَي بقاء الهدى على ما كان عليه، الأمر الذي لا يكونَ معه لمريدي الحق والخير أن يكونوا في ريب، ولا مستحبي العمى على الهدى، أن يكون لهم على الله حجة"[١٨].

ولإثبات هذا الحفظ في السماء والأرض لما نزل من الوحي، يقول: ".. فأما قبل أن يتلقاه ملك الوحي، فإنه كان {فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ}(البروج:٢٢)، {فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ. لَّا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ}(الواقعة: ٧٨-٧٩). لا يمسه الشياطين، فلا يقع في الهدى نقص أو زيادة أو تغيير أو تبديل، وإنما يمسه الملائكة المطهّرون من كل ما يَحْمل على مثل ما يريد الشياطين[١٩]. وأما حامله الأول ، فرسول من الملائكة، يقول الله فيه: {قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ}(البقرة: ٩٧)، ويقول فيه: {إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ. ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ. مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ}(التكوير: ١٩-٢١)، ويقول فيه: {عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ. ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ. وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ}(النجم:٥-٧). ومع جبريل ملائكة رصدٌ يَعينونه في تنزيلَ الهدى على أبعد وجه عن الشبهات، يقول الله-

١٦ كذا في الأصل، والأولى أن يقول: ويتمكن كذلك من تلقي ذلك وحفظه، ومواطأة هذه ومشايعتها.

١٧ المرجع نفسه، ٦٦.

١٨ ناصر سبحاني، **الولاية والإمامة**،٧٠.

١٩ اختلف المفسرون في المراد من {لَّا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ}، فابن عباس رجح أن الكتاب هو اللوح المحفوظ، و {الْمُطَهَّرُونَ} هم الملائكة. وقال آخرون: الكتاب هو المصحف، والمطهّرون هم المطهّرون من الأحداث. (انظر: ابن الجوزي، **زاد المسير في علم التفسير**،١٣٩٢، وتفاسير أخرى في تفسير الآية).

تعالى- عنهم: {عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا. إِلاَّ مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا. لِيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا}(الجن:٢٦- ٢٨). هذا فيما يتعلق بأصل الوحي، ومصدره، وكيفية الإتيان به، ودورَ الملائكة البررة في ذلك، وضرورة حفظه؛ عقلاً ونقلاً.. وأما فيما يتعلق بالنبي الذي يتلقى الوحي من الملك الموكّل، فله تحقيق علمي دقيق يعالج فيه موضوع العصمة، التي أطال العلماء والمحققون الكلام فيها؛ قديماً وحديثاً.. الشهيد ناصر يصنف وظائف النبي الذي يتلقى الوحي إلى ثلاث وظائف، وقد يسميها خصائص أو منازل، هي: وظائف (النبوة) لتلقي الوحي، و(الرسالة) لتبليغ الرسالة، و(الإمامة) لإدارة الناس وسياستهم. وهو يؤكد بأن الوظائف كلها (النبوة، والرسالة، والإمامة) محفوفة برعاية من الله، ولكن رعاية النبوة والرسالة هي رعاية العصمة، أما رعاية الإمامة فهي رعاية التهذيب والإصلاح، بإدراك له من طريق الوحي، وتهذيب لإمامته وإصلاحها. هذا مختصر ما قاله، وإليك البيان بنقل بعض ما قاله حرفاً، قال رحمه الله: "أما متلقي الرسالة من الملك الرسول، فبشر له خصائص ومنازل كما يلي:

أولاً/ النبوة:

إن تلقي الهدى من الله - وهو يكلم وحياً، أو من وراء حجاب- أو من الملك الرسول، بحاجة إلى استعدادات نفسية وجسدية في مجالات الاتصال بالغيب والإدراك والحفظ والتحّمل، ولأن أفراد النوع البشري - مع إشراكهم في الاتصاف بأصول هذه الاستعدادات- متفاوتون في درجات الاتصاف بها؛ من أدنى درجة ممكنة، إلى أعلى درجة كذلك، وفي اختيار صاحب درجة من الدرجات النازلة، في حال وجود متصف بالدرجة العليا، خلاف الحكمة الربانية، يكون المختار لتلقي نبأ الهدى، أصلَح إنسانٍ يقوم بحمل أعباء هذا الأمر.. وهذا المفرد المختار، لأنه المطلّع الوحيد الذي تطلع منه شمس الهدى الرباني على تيهاء عالم البشر المظلمة، وفي حدوث أقلّ خلل في تلقي الهدى، أو حفظه، مناجاة لرحمة وملك الله ذي الجلال والإكرام – حيث إن ذلك يفقد قلوب طلاب الحياة الثقة بالهدى، ويزلزل أساسَ إقامة الحجة على مستحبي العمى على الهدى- يكون في النبوة معصوماً، لا يتلقى حديث نفس، أو إلقاء شيطان يظنه وحياً من الله، ولا يحدث في حفظه لما قد أوحي إليه خلل - كذلك-. يقول تعالى: {والنَّجْمِ إِذَا هَوَى. مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى}(النجم:١-٢)، ويقول: {وَمَا هُوَ

بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ}(التكوير:٢٥)، ويقول: {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ}(الحجر: ٩)[٢٠].

هكذا أوضح سبحاني مقتضيات عصمة النبيّ - كل نبيّ - في الوظيفة الأولى له، التي تمثل المنزلة الأساسية للنبوة، وهي وظيفة تلقي نبأ الوحي، التي تقتضي العصمة الكاملة والحفظ التام، وذلك بحفظ الوحي – أساساً - منذ صدوره من محفظته الأولى (اللوح المحفوظ)، ومروراً بحمله ونقله على أيدي أمين الوحي جبريل (عليه السلام)، وانتهاء بمتلقّي الوحي نفسه، الذي يحفظه الله من أحاديث النفس، ووساوس الشيطان وغوايته.

ويبقى أمر الحفظ، والعصمة، في الوظيفة الثانية، وظيفة الرسالة، التي كُلّف بمقتضاها النبي الرسول أن يبلّغ الناس بما أتى به الوحي الإلهي. يقول الشهيد في ذلك: "لا يخفى أن الإنسان الذي قد أُلقي إليه نبأ الهدى الرباني، يكون مكلفاً بتبليغ ذلك - أي يكون مبعوثاً لتبوّء منزلة الرسالة- كذلك. ولا يخفى أن الرسالة كالنبوة، في أن حدوث أقّل خلل في أمرها، مناف لرحمة الله وملكه ذي الجلال والإكرام، فيكون النبي المرسل معصوماً في تبليغ (الرسالة) كذلك، فلا يبدّل، ولا يغيّر، ولا يزيد، ولا ينقص. يقول الله تعالى: {وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ}(التكوير: ٢٤)، ويقول: {وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ}(النجم:٣-٤)، ويقول: {وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَٰذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ من تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ}(يونس: ١٥). ولكن الرسول البشري مهما يكن فهو بشر، ليس بمنأى عما يعتري البشر من مختلف الحالات من الرغبة والرهبة والضعف والقوة وغير ذلك. فقد يعتريه النفور من أن يدركه - لتبليغ بعض الهدى، وتبيينه للناس، أو تبليغ الهدى، وتبيينه لبعض الناس- وبال، ويصيبه خشية الناس أن ينالوه بسوء. ولكن رحمة وملك الله ذي الجلال والإكرام يدركان حالة الضعف البشري تلك، فيؤيدان الرسول ويحفظانه، ليدافعا بذلك عن رسالة الله ويحفظاها. يقول تعالى: {فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ}(هود: ١٢)، ويقول: {وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَّاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا. وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا}(الإسراء:٧٣– ٧٤)، وقال في قصة النبي في (سورة الأحزاب): وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ

٢٠ ناصر سبحاني، **الولاية والإمامة**، ٧٢-٧٣.

فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا}(الأحزاب: ٣٧)[٢١].

وهكَذا أوضح مقتضيات عَصمة النبي الرسول فيما يتعلق بالوظيفة الثانية أو المنزلة الثانية له، فلا يمكن للوحي أن يكون محفوظا في اللوح، ثم في نقله إلى الأرض، ثم كيفية تلقّيه من قبل النبي، ولكن لا يهيئ الله له أساس حفظه أثناء إيصاله إلى الناس، فوعد الله بحفظ وحيه أساساً يقتضي عصمة الرسول في مهمة الرسالة، بتحقيق كل المستلزمات فيها، فلا بد أن يبلغها الرسول كما هي، دون زيادة أو نقص، أو تبديل أو تأخير، ولا بد أن تحرس عين الله عبده الرسول لإكمال مهمته تلك.

ثم يأتي الشهيد سبحاني لمناقشة الوظيفة الثالثة للنبي الرسول، وهي وظيفة الإمامة، شارحاً مقتضياتها، قائلاً: "لأن في استعدادات الناس تفاوتاً، بحيث يوجد فيهم من المتصف بأنزل درجة، إلى المتصف بأعلى درجة يمكن الاتصاف بها.. قضى الله أن يقوم أهل الدرجات العُلى في الاستعدادات – إضافة إلى الإيمان والعمل الصالح - بالتقدم في طريق العلم، والتسليم، والعمل، وتمهيدها للآخرين، ليكون في مقابل تماثيل الباطل والشر، مُثُلٌ من الحق والخير، حيّةٌ، فرديّة وجمعية، يتأسّى بها في الإيمان والعمل الصالح الفردُ والجمعُ الطالبون للسعادة، ويقطع سيوف حججها ألسنة المحاجّين في الله، الظالمين الجاهلين، المستحبّين زينة الحياة الدنيا. يقول تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا. وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا (٤٦) وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا}(الأحزاب:٤٥-٤٦).. فَعبودية الله سبحانه متوقفة – بعَد النبوة والرسالة - علىَ تقدم مُثُل الإيمان والعمل الصالح، وإمامة الأُسى الحسنات. ولأن وجود أقلّ خلل في الإمامة في صراط الإيمان والعمل الصالح، ينافي ما بينا من أن هذه الإمامة من مقتضيات رحمة وملك الله -ذي الجلال والإكرام-، كالنبوة والرسالة، تكون هي – كذلك- في رعاية ربانية تلائم حقيقته. ولكن، لأن الإمامة ليست إلا تقدماً في صراط العبودية، يجعل من صاحبه أسوة حسنة، وليس من شأن بني آدم، الذي نعرفه في خلقته، وما وقع له - مما قصّ الله علينا- النزاهة عن النسيان، والخطأ، وسائر أحوال الضعف البشري في مجال العبودية، فرعايتها من غير نوع رعاية النبوة والرسالة، التي هي العصمة. فالفرد المكلف الأول بالإمامة في كل شريعة، النبي المرسل نفسه – الذي هو في حمل أعباء التكاليف أصلح فرد من العباد-، فهو مكلف بأن يقوم – تحت رعاية الله المباشرة- بالتقدم في علم الهدى والتسليم الخالص

٢١ المصدر نفسه، ٧٣-٧٤.

والعمل الصالح، ليكون قدوة سائر المكلفين، وإمام أئمة المتقين. وجليّ أن من يكون في تزكيته وتعليمه بأعين الله، فإنه أبعد إنسان عن جهل الهدى، وعدم التسليم الخالص، واكتساب السيئات، ولكنه – مع هذا – لا يكون هو -كذلك- بمنأىً عن اعتراء أحوال الضعف البشري..

والحاصل، إن الإمامة محفوفة أيضاً – كالنبوة والرسالة – برعاية من الله، ولكن رعايتها ليست رعاية العصمة، بل رعاية التهذيب والإصلاح، فالنبي الرسول، مع كونه محفوفاً في إمامته – كذلك - برعاية ربانية، ليس فيها معصوماً، فيقع له فيها الخطأ أو الخطيئة، ولكن يدركه الوحي، فيهذب إمامته ويصلحها"[٢٢].

هكذا يرى سبحاني موضوع العصمة في الحالات أو المنازل الثلاث: النبوة، والرسالة، والإمامة، ويستدل لما ذهب إليه – وهو مذهب لم أر من سابق له، رغم بحثي الحثيث للموضوع- بآيات قرآنية كثيرة، تنقل الحالات التي تتحدث عن أنبياء الله - عليهم السلام-، كقوله تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا من قَبْلِكَ من رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ}(الحج:٥٢). ويستدل بقوله تعالى – حكاية عن نوح عليه السلام-: {رَّبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا}(نوح:٢٨)، بأنه لا يطلب المغفرة إلا من وقع في ذنب. بل قال تعالى حكاية عن إبراهيم - عليه السلام-: {وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ}(الشعراء:٨٢)، ثم ذكّر بآيات (سورة ص) التي تحكي ما وقع لداود - عليه السلام- حينما قضى بين خصمين، وتسرع في القضاء، وأحسّ بالخطأ، وحكى عنه سبحانه: {قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ}(ص:٢٤). وذكر أن الله سبحانه نسب النسيان وعدم العزم - بل العصيان والغواية - إلى آدم - عليه السلام-، فقال: {وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ من قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا}(طه:١١٥)، وقال: {فَأَكَلَا منْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا منْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ}(طه:١٢١). بل لقد نسب الغضب والأسف والفرار والخوف والنسيان إلى موسى - عليه السلام- في قوله: {فَرَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي}(طه:٨٦)، وقوله: {فَفَرَرْتُ منكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي

٢٢ المصدر نفسه، ٨٦٩٠-٩٢.

رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ}(الشعراء:٢١)، وقوله: {فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَى}(طه: ٦٧). ونسبَ الخوف والفزع إلى داود - عليه السلام- في قوله تعالى: {إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ}(ص:٢٢). ويشير بعض الآيات إلى تفاوت الأنبياء في الصبر – مثلاً- كقوله تعالى - مخاطباً خاتم الأنبياء (عليهم السلام)-: {فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ}(القلم:٤٨). وقوله: {فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ}(الأحقاف:٣٥). ومن هذا القبيل ما سجله القرآن بحق خاتم الأنبياء محمد - عليه صلوات الله وبركاته- في (سورة عبس)، وفي إذنه لبعض الناس، في قوله سبحانه : {عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ}(التوبة:٤٣)، والاستغفار للمنافقين في قوله تعالى: {اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ}(التوبة:٨٠). وفي قصة أخذ الفداء من أسرى بدر: {لَّوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ}(الأنفال:٦٨)، وفي تحريم بعض الطيبات على نفسه، في بداية (سورة التحريم): {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ}(التحريم:١).

يستدل الشهيد بهذه، وأخرى من الحوادث والمواقف التي سَجّلها القرآن، على أن الأنبياء - عليهم السلام - قد تجسدت فيهم الحالات التي تعتري بني جنسهم من البشر، ولكن حالات الضعف هذه بعيدة عن دائرتي وظيفة النبوة والرسالة، اللتين تحتاجان إلى العصمة الكاملة، حفاظاً على الوحي المنزل، ولكنها كانت متعلقة بالوظيفة الثالثة: وظيفة الإمامة، أو الرئاسة.

وهناك ملاحظتان مهمتان نوّه إليهما الشهيد ناصر، أولاهما: أن هذا التصنيف الذي سلك في تحديد وظائف كل نبي (النبوة، والرسالة، والإمامة)، يحسم وينهي جدلية كون النبي معصوماً بالفطرة، ويؤكد كونه إنساناً مكلّفاً كباقي بني جنسه، يثاب على امتثاله للأوامر واجتنابه للمناهي، وينال مقامات التقوى والبّر والإحسان، بمجاهدة النفس ومجابهة الشهوات. حيث لو كان مفطوراً على العصمة من الأساس – في كل جانب- لما حلّ هذا الإشكال، ولما انتهت هذه الجدلية.

والملاحظة الثانية، هي: أن النبي، مع كونه معرّضاً لأن تعتريه حالات الضعف تلك، لكنه محفوف - كما أسلفنا –، في النهاية، بالرعاية الإلهية، وذلك إما عن طريق التصحيح الإلهي، بالوحي المباشر - في الأمور المهمة-، وإما عن طريق الشورى مع أصحابه الكرام.

ومما ينبغي التنويه إليه، أنني لم أجد أحداً من العلماء عالج موضوع العصمة بهذه الطريقة قبله، أو تحدث عن نسبة الخطأ، أو حالات الضعف البشري عند الأنبياء، بهذه الطريقة، إلا إشارة بسيطة نسبها (القرطبي) في تفسيره إلى أبي علي بن أبي هريرة[٢٣]، من أصحاب الشافعي، مفاده أن الأنبياء غير معصومين عن الخطأ والغلط في اجتهادهم – أي في حالة انقطاع الوحي عنهم-، واستثنى في ذلك محمداً - عليه الصلاة والسلام- فقال: "نبينا مخصوص منهم في جواز الخطأ عليهم، وفرق بينه وبين غيره من الأنبياء أنه لم يكن بعده من يستدرك غلطه، ولذلك عصمه الله منه، وقد بُعث بعد غيره من الأنبياء من يستدرك خطأه. وقد قيل: إنه على العموم في جميع الأنبياء، وأن نبينا وغيره من الأنبياء في تجويز الخطأ على سواء، إلا أنهم لا يقرون على إمضائه، فلم يعتبر فيه استدراك من بعدهم من الأنبياء[٢٤].

وقريباً من هذا، قاله النووي في شرحه لحديث أبي هريرة (رضي الله عنه) الشهير: (لم يكذب إبراهيم النبي قط، إلا ثلاث كذبات..)[٢٥]. "قال القاضي عياض: الصحيح أن الكذب فيما يتعلق بالبلاغ لا يتصور وقوعه منهم، سواء جوّزنا الصغائر منهم، وعصمتهم منه، أم لا، وسواء قلّ الكذب أم كثر، لأن منصب النبوة يرتفع عنه، وتجويزه يرفع الوثوق بأقوالهم[٢٦].

ولقد عالج بعض المحققين الموضوع بأسلوب آخر، منهم ابن خلدون، فقال: "وقع في ذكر أحوال النبي – صلى الله عليه وسلم- من نوع ذكر أحواله التي هي عادة وجبلّة، لا

---

٢٣ هو: القاضي البغدادي، أبو علي، الحسن، بن الحسين، بن أبي هريرة. انتهت إليه رئاسة المذهب، أخذ عنه الطبري والدارقطني وغيرهما. توفي عام: ٣٤٥هـ/٩٥٦م. انظر لترجمته: الذهبي، **سير أعلام النبلاء**.

٢٤ القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، ٣٠٩/١١.

٢٥ أبو الحسين، مسلم بن الحجاج القشيري (-٣٦١هـ/٨٧٤م)، **الجامع الصحيح**، بيروت، بيت الأفكار الدولية، كتاب الفضائل (٤٣)، باب من فضائل إبراهيم (٤١)، حديث (٢٣٧١). وورد في **البخاري** أيضاً: كتاب أحاديث الأنبياء (٩٠) باب (٨)، حديث (٣٣٥٧). وفي الحديث: لم يكذب إبراهيم النبي قط إلا ثلاث كذبات، ثنتان في ذات الله، قوله: {فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ}[الصافات: ٨٩]، وقوله: {قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا..}[الأنبياء: ٦٣]، وواحدة في شأن زوجه سارة، وهو قوله: هي أختي..

٢٦ النووي، **المنهاج في شرح صحيح مسلم**، ١٤٤٩.

من جهة أن ذلك مشروع على ذلك النوع من العمل، فإنه إنما بُعث ليعلمنا الشرائع، ولم يبعث لتعريف الطب، ولا غيره من العاديات. وقد وقع له في شأن تلقيح النخل ما وقع، فقال: (أنتم أعلم بأمور دنياكم)[٢٧]، فلا ينبغي أن يُحمل شيء من الذي وقع على أنه مشروع، فليس هناك ما يدل عليه[٢٨]. وقريباً من هذا، ابتكر القاضي عياض (ت: ٥٤٤هـ) تقسيماً لتصرفات الرسول – عليه الصلاة والسلام-، فجعلها قسمين، أولاهما: ما كان طريقه البلاغ، والرسول فيه معصوم. وثانيهما: ما ليس سبيله البلاغ، مما لا مستند لها إلى الأحكام، بل في أمور الدنيا، وأحوال نفسه[٢٩].

وبمقارنة سريعة بين هذه الأقوال، وما نقلناه عن العلامة ناصر سبحاني، تتضح ميزة تناوله للموضوع، وعمق تفكيره، ونصاعة رأيه، وجمال تصويره للأمر، وكمال تشخيصه، ودقة عباراته، التي صوّرت لوحة النبوة والرسالة، وما يتعلق بهما من الوحي، وكيفية حمله ونقله، ومستلزمات تلقّيه، ثم تبليغه، أجمل تصوير.

وإنني أرى أن الرسول – صلى الله عليه وسلم- قد حسم هذا الأمر بذاته، حيث فرّق - في أحاديث عديدة - بين ما قاله كنبي رسول، وما قاله كسائر البشر، وعبّر بذاته عن الفرق بين الرأي والوحي، مؤكداً على كونه بشراً. ففي تعقيب حادثة تأبير النخل، الذي أدى إلى رداءة التمر في العام الذي أشار -عليه الصلاة والسلام- إلى عدم ضرورة ذلك بقوله – في الحديث الذي سردناه آنفاً-: (لو لم تفعلوا لصلح)، قال – صلى الله عليه وسلم-: (إني إنما ظننت ظناً، فلا تؤاخذوني بالظن، ولكن إذا حدثتكم عن الله شيئاً، فخذوا به، فإني لا أكذب

---

٢٧ تمام الحديث، كما ورد في صحيح مسلم، عن أنس (رضى الله عنه) قال: "أن النبي -صلى الله عليه وسلم- مرّ بقوم يلقّحون، فقال: لو لم تفعلوا لصلح. قال: فخرج شَيصاً (أي: خرج التمر رديئاً) فمرّ بهم، فقال: ما لنخلكم؟ قالوا: قلت كذا وكذا. قال: أنتم أعلم بأمر دنياكم). الحديث أخرجه مسلم، **الجامع الصحيح**، كتاب الفضائل (٤٣)، باب (٣٨)، حديث (١٣٦٣). وكذلك رواه أبو عبد الله، أحمد بن حنبل (ت٢٤١هـ/ ٨٥٥م)، **المسند**، بيروت، بيت الأفكار الدولية. مسند أنس، بن مالك، حديث (١٢٥٧٢). ص:٨٦٤. وابن حبان، أبو حاتم، محمد بن حبان (٣٥٤هـ/ ٩٦٥م)، **صحيح ابن حبان**، باب (٢)، حديث٢٢، بيروت بيت الأفكار الدولية، ١٦٤. ورواه أيضا ابن ماجه، أبو عبد الله، محمد، بن يزيد، القزويني (ت/٢٧٥هـ/٨٨٨م) **السنن**، بيروت، بيت الأفكار الدولية، كتاب الرهون (٢٤٣٦)، باب (١٥) حديث (٢٤٧١).

٢٨ ابن خلدون، **كتاب العبر** ٣٩٢/١.

٢٩ انظر: القاضي عياض، **الشفا بتعريف حقوق المصطفى**، ١٢٣/٢ وما يليها.

على الله عز وجل)[٣٠]. وفي حديث صحيح آخر فرّق – بوضوح- بين ما قاله -كأمر ديني- وما قاله كرأي بشريّ، فقال -عليه الصلاة والسلام-: (إنما أنا بشر، إذا أمرتكم بشيء من دينكم فخذوا به، وإذا أمرتكم بشيء من رأيي، فإنما أنا بشر)، قال عكرمة ــ الراوي ــ: أو كما قال..)[٣١]. ولقد أدرك الإمام مسلم هذا الفهم، ولذا سمّى الباب (٣٨) من كتاب الفضائل في صحيحه بـ(باب وجوب امتثال ما قاله – صلى الله عليه وسلم- دون ما ذكره من معايش الدنيا على سبيل الرأي) فتأمّل.

وفي نهاية هذا المقطع لا بد من القول بأن الشهيد ناصر سبحاني[٣٢] قد جعل من بحثه القيم هذا، دليلاً على خطأ القول بعصمة الأئمة - التي قال بها فرقة الشيعة الإثني عشرية- حيث ليس للأئمة أولئك - كما هو معلوم- إلا وظيفة واحدة هي وظيفة الإمامة أو الرئاسة، فإنهم لم يأتهم الوحي كي يتقلّدوا منصب النبوة بالتلقي، ولا منصب الرسالة بتبليغها، كما هو شأن الأنبياء، فأين يكون موقع العصمة في حياتهم، إن لم يكن في وظيفة الرئاسة أو الإمامة فقط، والتي عرفنا فيها حال الأنبياء المعصومين، فكيف بحال غيرهم؟!

بهذا نكتفي بهذا القدر، وستكون لنا عودة لموضوع الإمامة بالتفصيل في مقال مخصص لاحقاً، بإذن الله❐

٣٠ مسلم النيشابوري، **صحيح مسلم**، كتاب الفضائل (٤٣)، باب (٣٨)، حديث (٢٣٦١)، ص: ١٤٤٦.

٣١ المصدر نفسه، حديث رقم: (٢٣٦٣)، ص: ١٤٤٦.

٣٢ خصّ الشهيد معظم كتابه القيم (**الولاية والإمامة**) لهذا الأمر. انظر: صفحات: ٧٢-١٧١ منه، فهو مخصص لمناقشة هذا الموضوع بالشرح والتفصيل.. يُذكر بأن هذا الكتاب ردّ - بالأساس- على بعض علماء الشيعة الذين قالوا بالولاية التكوينية للأئمة. ألّفه عام ١٩٨٦م.

السلوك
مفهومه وأثره في القرآن الكريم

د. عبد اللطيف ياسين

تعريف علم السلوك:

كان الإنسان - وما زال - محط أنظار أهل النظر والفكر واهتمامهم منذ القدم. وعندما نقول الإنسان نعني ما يبدر من هذا الإنسان من سلوك وأفعال وأعمال، لأن الإنسان بأفعاله، وإذا توقف الإنسان عن إبداء أي سلوك، فهو ميت لا محالة، لأننا لا نجد إنساناً حياً بدون أي سلوك. "واليوم أصبح سلوك الإنسان يخضع للدراسة العلمية، بمعنى أن هناك علم سلوك قائماً بذاته، وعلم السلوك هو نظام علمي يهتم بتطوير مبادئ تسهم في فهم السلوك الإنساني، وغالباً ما يشتمل هذا الاصطلاح على علوم مثل: علم الاجتماع، وعلم النفس، والأنثروبولوجيا الثقافية، وبعض جوانب الاقتصاد والسياسة"[٣٣].

ولقد تناول علماء النفس السلوك الإنساني عبر مراحل، وفي إحدى المراحل قام بعض علماء النفس بحصر أنفسهم في التفسير المادي، "بتبنّيهم مناهج البحث في العلوم الطبيعية في دراسة الظواهر النفسية التي يمكن فقط ملاحظتها ودراستها دراسة موضوعية، وتجنبوا البحث في كثير من الظواهر النفسية المهمة التي يصعب إخضاعها

٣٣ - الاضطرابات السلوكية، حسين فايد (تشخيصها - أسبابها - علاجها)، طيبة للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٠١، (ص: ٣٧).

للملاحظة أو البحث التجريبي، وبذلك أبعدوا النفس ذاتها من دراستهم، لأن النفس شيء لا يمكن ملاحظته، وقصروا دراستهم على السلوك الذي يمكن ملاحظته وقياسه، وقد نادى بعضهم بتغيير اسم (علم النفس)، وتسميته (علم السلوك)، لأن علم النفس الحديث يدرس السلوك ولا يدرس النفس، وكان من نتيجة هذا الاتجاه في تطبيق مناهج العلوم الطبيعية في بحوث علم النفس، أن سادت في دراساته وجهة النظر المادية، التي ترجع جميع الظوهر النفسية إلى العمليات الفسيولوجية، والتي تنظر إلى الإنسان كنظرتها إلى الحيوان، بل إنهم جعلوا من دراستهم لسلوك الحيوان المدخل الطبيعي لفهم سلوك الإنسان، مغفلين في كثير من الأحيان الاختلاف الكبير في طبيعة تكوين الإنسان الذي يتميز عن الحيوان، وهو أمر يغفلونه في دراستهم إغفالاً يكاد يكون تاماً"[٣٤]. ونرى في هذه الدراسات نوعاً من الحصر في تعريف الإنسان، وإهمال الجانب الروحي فيه. وإن كنا نرى انفراجاً عند العلماء في هذا، أي إن العلماء المعاصرين اتجهوا نحو الإيمان بأن للإنسان جوانب أخرى، كالروح، بما تحمله من معانٍ سامية.

ولقد أشرنا بأن علم النفس يُعرّف بأنّه علم السلوك، لأنه العلم الذي يدرس السلوك دراسة موضوعية، أو يتخذ من السلوك وسيلة لدراسة الحياة النفسية الشعورية واللاشعورية. فهو يستدلّ من السلوك الظاهر للناس، ومن لغتهم (فاللغة سلوك ظاهر)، على ما يحفزهم من دوافع، وما يشعرون به من انفعالات، وما يحتضنونه من عواطف ومعتقدات، وما يتّسمون به من قدرات ومواهب واستعدادات"[٣٥].

لقد توصلت الدراسات والأبحاث المعاصرة والحديثة إلى استنتاجات تضم مجموعة من النتائج التي تفسر سلوك الإنسان، فمنها أن السلوك الإنساني لا يعمل في خواء، وإنما هناك أسباب تدفعه، وعوامل تؤثر فيه، وهي غائية، وأنه يمضي نحو هدف لتحقيقه، وأن له دوافعه وحوائجه، وقد تتعدد الحاجات، سواء النفسية أو الجسمية أو الاجتماعية.

يعنون بالسلوك الإشارة إلى مختلف نواحي النشاط التي يمكن ملاحظتها، أو ملاحظة نتائجها. بعبارة أخرى، فالسلوك يشير إلى كل ما يصدر عن الفرد من استجابات حركية، أو عقلية، أو اجتماعية، عندما تواجه الكائن أي منبهات[٣٦]. وعند سهير كامل أحمد[٣٧]، فإن:

---

٣٤ - القرآن وعلم النفس، د محمد عثمان نجاتي، ط السابعة، ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م، دار الشروق، (ص: ٢٤).

٣٥ - أصول علم النفس، دكتور أحمد عزت راجح، ط السابعة، ١٩٦٨م، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، (ص: ١٢-١٣).

٣٦ - السلوك الإنساني النظرة العلمية والنظرة الدارجة، عبدالستار إبراهيم، دار الكتب الجامعية، القاهرة، (ص: ١١).

"كل سلوك يصدر عن الفرد إنّما هو مدفوع وغرضي، ولا يمكن التعرّف على مظاهر السلوك الإنساني إلّا إذا عرفنا الدوافع التي وراءه، ولكي نفهم الناس لا بد من معرفة دوافعهم، وما يرمون إليه من أهداف"[٣٨].

ومن هنا، يجدر بنا أن نلم - ولو سريعاً - بمعنى الدوافع:

"دوافع السلوك: سواء أكانت فطرية؛ كالجوع والعطش، أو مكتسبة؛ كرغبة الإنسان في جمع المال. قام علماء النفس بدراستها بأنواعها، الفطرية والمكتسبة، وأثر هذه الدوافع في سلوك الأفراد، وفي تصرفاتهم المختلفة"[٣٩]. فالدافع في علم النفس هو الحالة التي تثير السلوك في ظروف معينة، وتواصله، حتى ينتهي إلى غاية معينة.

ملخص أنواع الدوافع:

تخبط عالم الفكر الغربي في تعريف الدوافع، وذلك لاختلافهم في ماهية الإنسان، وذلك ما أدّى بهم إلى الجهل بمعرفة الدوافع السلوكية، وانحسار رؤيتهم إلى جانب ضيق من الجوانب الإنسانية، فكانت النتيجة: هي (اليد الخفية عند آدم سميث - المنفعة عند بنتام - وسائل الإنتاج عند ماركس ـ الجنس عند فرويد - إرادة القوة عند نيتشه - قانون البقاء عند داروين ـ الطفرة الحيوية عند برجسون - الروح المطلقة عند هيجل، التي تتوحد بالطبيعة في نهاية التاريخ ـ روح التاريخ ـ روح الحضارة ـ روح العصر - عبقرية المكان - التقدّم اللانهائي - عبء الرجل الأبيض، باعتباره عبئاً حضارياً)[٤٠].

وقد تمّ اختزال الإنسان في:

الإنسان الاقتصادي: إنسان آدم سميث، الذي تحركه الدوافع الاقتصادية والرغبة في تحقيق الربح والثروة، وإنسان ماركس، المحكوم بعلاقات الإنتاج. وهو يعبّر عن مبدأ المنفعة، بحيث لا يعرف الإنسان سوى صالحه الاقتصادي، وتحركه القوانين الاقتصادية.. إنسان لا ينتمي إلى حضارة بعينها، وإنما ينتمي إلى عالم الاقتصاد العام، وهو لا يعرف

---

٣٧ - عميد كلية رياض الأطفال الأسبق/ القاهرة.

٣٨ - التوجيه والإرشاد النفسي للصغار، سهير كامل أحمد، مركز الإسكندرية للكتاب، مصر، ٢٠٠٣، (ص: ٥٢).

٣٩ - الرؤى عند أهل السنة والجماعة والمخالفين، سهل بن رفاع بن سهيل الروقي العتيبي، رسالة ماجستير، دار كنوز اشبيليا(ص: ٢٥٨).

٤٠ - موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، د عبدالوهاب المسيري، دار الشروق، مصر، ١٩٩٩م.

الخصوصية، ولا الكرامة، ولا الأهداف السامية التي تتجاوز الحركة الاقتصادية. وهو يجيد نشاطاً واحداً هو البيع والشراء.

الإنسان الجسماني أو الجنسي: إنسان فرويد، وبافلوف، الذي تحركه دوافعه الجنسية وغدده وجهازه العصبي. وهو يعبر عن مبدأ اللذة، ولا يعرف سوى متعته ولذته؛ إنسان الاستهلاك والترف والتبذير؛ إنسان فرويد والسلوكيين، وهو إنسان آحادي البعد، خاضع للحتميات الغريزية، متجرد من القيمة، لا يتجاوز قوانين الحركة.

الدوافع عند الإمام الغزالي:

ويصنفها إلى عدّة أنواع، بحسب زاوية النظر إليها:

١- حسب طبيعة الإنسان الخلقية:

أ-الميول البهيمية، والحرص على قضاء الشهوة.

ب-الميول السبعية، أو الغضبية؛ مثل العداوة والبغضاء.

ج- الميول الشيطانية، وتتكوّن من اجتماع الغضب مع الشهوة، ويتصل بهذا: الميل إلى بعض الصفات الأخلاقية؛ مثل: الحيلة والمكر والخداع.

د- الميول إلى الربوبية، ومعنى ذلك نزوع كل إنسان إلى الاتصاف بصفات الإلوهية، وينتج عنها الكبر والفخر وحب المدح والثناء والعز، كما ينتج عنها - من ناحية أخرى - حب العلم والحكمة.

٢- ويصنفها على أساس النظر إلى حب البقاء عند الكائن، إلى:

أ- الميول الفردية، التي يقوم عليها البقاء.

ب- الميول الاجتماعية، التي تتصل بالعائلة، أو مجتمع العشيرة.

ج- الميول الغالبة، أي حب الخير، والميول الدينية.

٣- تصنيفها على أساس النظر إلى الغرض والمقصد:

أ- دوافع (بواعث) الدين: وهي التي تبعث على الطاعات والحياة الصالحة.

ب- دوافع (بواعث) الهوى: وهي النفس الأمارة بالسوء، التي تشمل الشهوة والغضب"[٤١].

[٤١]- دوافع السلوك في الإسلام، قام بالبحث: (عبدالعزيز النصيان، عبدالعزيز الكبريش، عبدالمجيد النومسي، = منصور المنصور، إشراف الدكتور: حمزة مالكي، أستاذ الصحة النفسية بجامعة الملك عبدالعزيز، ٢٠١٠م – ١٤٣١هـ المملكة العربية السعودية، وزارة التعليم العالي، جامعة الملك عبد العزيز، عمادة الدراسات العليا، ماجستير التوجيه والإرشاد التربوي (مذكرة علم النفس، ص:٣).

ورود مفهوم السلوك في القرآن الكريم:

القرآن الكريم كتاب هداية إلى البشرية جمعاء، والإنسان هو المخاطب والمكلف بفهم وحمل وتبليغ وتطبيق هذه الرسالة، ومن ثم بيانه لأقرانه من بني جنسه. ومحور خطاب القرآن الكريم هو الإنسان، "ويظهر جلياً بيان أثر القرآن الكريم على المنهج والسلوك، وكان لخصائص أسلوب القرآن الكريم أهمية بالغة في جوانبها المختلفة، حتى باتت سمةً بارزةً للتأثير من خلال فهمها وتطبيقها. والنماذج المنهجية في التفكير والسلوك تظهر من خلال بعض الوقفات من آيات القرآن الكريم، التي تحث على ما ينبغي العمل به، والارتقاء من خلاله لنيل رضى الله عز وجل"[٤٢] . وإذا كان القرآن كتاباً مهيمناً ومصدقاً على الكتب السماوية السابقة، فمن باب أولى أن يكون مهيمناً ومصدقاً لكل نتاج بشري، كما يقول فضيلة الدكتور (دراز): "فالقرآن - من حيث كونه حافظاً لما سبقه، واستمراراً له - قد تميز عنه بذلك الامتداد الرحب، الذي ضمّ فيه جوهر القانون الأخلاقي كله، وهو الذي ظلّ متفرقًا في تعاليم القديسين والحكماء؛ من المؤسسين والمصلحين، الذين تباعد بعضهم عن بعض، زمانًا ومكانًا، وربما لم يترك بعضهم أثرًا من بعده يحفظ تعاليمه"[٤٣]. ومن هذا المنطلق، ومن هذه الرؤية القرآنية، نستطيع أن نقول إنّ كل إنتاج بشري، من تعاليم القديسين والصالحين والحكماء، يعرض على القرآن، لأن القرآن مصدق ومهيمن على جميع تلك الأشياء المذكورة، وذلك لأن القرآن له هذه الميزة، وهي كونه فرقاناً بين الحقِّ والباطل، وله حق القرار والتعديل والتصويب.

ومن هنا، علينا عندما نريد أن نتعامل مع القرآن، أن نأخذ منه مباشرة، من دون أي قرارات مسبقة، ويكون المنطلق من القرآن، وليس كما هو معهود عند البعض أن يفسر القرآن تفسيراً يوافق فكره ومذهبه أو أهواءه. لذا، علينا أن نستلهم ونستوحي من هذا المعين مباشرة، فالله سبحانه جعل القرآن الكريم مهيمناً على الكتب السابقة. ومما نتعجب منه، وكما يقول الإمام (ابن حزم)[٤٤] أن يجعل من أشعار العرب ميزاناً ومعياراً

---

٤٢ - الضوابط السلوكية والمنهجية في القرآن الكريم، رسالة ماجستير في التفسر وعلوم القرآن، إعداد الطالبة: رسمية علي آل ردهان الغامدي، إشراف د.خالد بنوي حجاج، ص٧.

٤٣- دستور الأخلاق في القرآن، محمد بن عبد الله دراز(ت: ١٣٧٧هـ)، مؤسسة الرسالة، ط العاشرة، ١٤١٨هـ / ١٩٩٨م (ص: ٨).

٤٤- علي ابن أَحْمَدُ بنُ سَعِيْدِ بنِ حَزْمِ بنِ غَالِبِ بنِ صَالِحِ بنِ خَلَفِ بنِ مَعْدَانَ بنِ سُفْيَانَ بنِ يَزِيْدَ الفَارِسِيُّ الأَصْلِ ثُمَّ الأَنْدَلُسِيُّ القُرْطُبِيُّ الفَقِيهُ الحَافِظُ المُتَكَلِّمُ الأَدِيبُ الوَزِيرُ الظَّاهِرِيُّ، صَاحِبُ التَّصَانِيفِ.

لفهم القر آن، وأن يجعل في القرآن شواذاً، لأنه خالف بيتاً من أشعار العرب، يا سبحان الله رب قائل يقول: "فإن قال قائل: فهل لذلك من نظير في كلام العرب نعلم به صحة ما قلت؟ قيل: نعم ، أكثر من أن يحصى؟"[٤٥] مع أن رب العزة يقول: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ﴾[٤٦]، ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ(٤٦)وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ(٤٧) وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا... ﴾[٤٧]، فالله سبحانه جعل من القرآن الكريم مصدقاً ومهيمناً على الكتب السابقة، وعلى لغة العرب أيضاً، وعلى التاريخ، وعلى الأفكار، وعلى النظريات، ولهذه الميزة الديمومة والاستمرارية.

ويأتي معنى التصديق والهيمنة "في ثلاثة تأويلات: أحدها: يعني أميناً، وهو قول ابن عباس. والثاني: يعني شاهداً عليه، وهو قول قتادة[٤٨]، والسدي[٤٩]. والثالث: حفيظاً عليه"[٥٠] . "فقال بعضهم: معناه هو شاهد عليه، وقال بعضهم: رقيباً عليه، وقال بعضهم:

وَلد أبو محمد بقُرْطُبَة، فِي سَنَة أَرْبَع وَثَمَانِيْنَ وَثَلاَث مائَة. (سير أعلام النبلاء: محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي أبو عبد الله (١٣/ ٣٧٣)).

٤٥- تفسير الطبري (جامع البيان في تأويل القرآن)، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري (ت: ٣١٠هـ)، ت: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠م، (١/ ٤٤٣).

٤٦- سورة آل عمران، الآية ٣.

٤٧- سورة المائدة، الآيات ٤٦ – ٤٨.

٤٨- قتادة بن دعامة السدوسي البصري الضرير الأكمه، قدوة المفسرين والمحدثين، توفي سنة ١١٧هـ رحمه الله تعالى. كان رأساً في العربية والغريب، وأيام العرب وأنسابها، حتى قال فيه أبو عمرو بن العلاء: كان قتادة من أنسب الناس. طبقات النسابين، (ص: ٢٩).

٤٩ - إسماعيل بن عبد الرحمن السدي: تابعي، حجازي الأصل، سكن الكوفة. قال فيه ابن تغري بردي: (صاحب التفسير والمغازي والسير، وكان إماماً عارفاً بالوقائع وأيام الناس، (٠٠٠ - ١٢٨ هـ = ٠٠٠ - ٧٤٥ م) (الأعلام: خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس، الزركلي الدمشقي، ت: ١٣٩٦هـ)، دار العلم للملايين، ط: الخامسة عشر - أيار / مايو ٢٠٠٢ م (١/ ٣١٧).

٥٠ - تفسير الماوردي (النكت والعيون)، أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي، الشهير بالماوردي (ت: ٤٥٠هـ)، ت: السيد ابن عبد المقصود بن عبد الرحيم، دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان(٢/ ٤٥).

معناه مُؤتَمَناً عليه. وقال بعضهم: مُهيمِن في معنى مؤتمن، إلا أن الهاءَ بدل من الهمزة، والأصْلُ مؤتمناً عليكم، قالوا: هَرَقْتُ الماءَ، وأرقت الماء، وكما قالوا: إياك وهياك، وهذا قول أبي العباس محمد بن يزيد[٥١]، وهو على مذهب العربية حَسَن ومُوافق لبعْض ماجاءَ في التفسير، لأن معناه مؤتمن"[٥٢]. وقيل: "وَمُهَيْمناً عَلَيْه، أي أميناً عليه"[٥٣]. وعَن الحَسن قال: (وَمُهَيْمِنًا عَلَيْه) مصدقا بهذه الكتب، وأمينًا عليها. وَقال الْقُتَبِي[٥٤]: أميناً عليه. وقال أَبُو عَوْسَجَةَ[٥٥]: مَسلطًا عليه. وقيل: مفسّراً يفسّر التفسير. وقال أحدهم[٥٦]: قوله: (وَمُهَيْمِنًا) هي كلمة مأخوذة من كتبهم معربة، غير مأخوذة من لسان العرب[٥٧]. فهذه الشهادة والتّصديق، وهذا الإثبات القرآني على الكتب السابقة كلها، يخوله الهيمنة على اللغة، وعلى آراء العلماء، إذ هو المرجع الحقيقي. "ولفظة المهيمن أعم من هذه الألفاظ، لأن المهيمن على الشيء هو المعني بأمره، الشّاهد على حقائقه، الحافظ لحاصله، ولأنه يدخل فيه ما ليس منه، والقرآن جعله الله مهيمناً على الكتب، يشهد بما فيها من الحقائق، وعلى ما نسبه المحرفون إليها، فيصحح الحقائق، ويبطل التحريف، وهذا هو شاهد ومصدق

٥١ - محمد بن يزيد بن عبد الأكبر الثمالي الأزدي، أبو العباس، المعروف بالمبرد: إمام العربية ببغداد في زمنه،(٢١٠ - ٢٨٦ هـ = ٨٢٦ - ٨٩٩ م) وأحد أئمة الأدب والأخبار. مولده بالبصرة، ووفاته ببغداد. من كتبه: (الكامل - ط)، و(المذكر والمؤنث - خ)، و(المقتضب - ط)، و(التعازي والمراثي - خ)، و(شرح لامية العرب - ط) مع شرح الزمخشريّ، و(إعراب القرآن)، و(طبقات النحاة البصريين)، و(نسب عدنان وقحطان - ط) رسالة، و(المقرب - خ). قال الزبيدي في شرح خطبة القاموس: المبرّد، بفتح الراء المشددة عند الأكثر، وبعضهم يكسر. (الأعلام: خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس، الزركلي الدمشقي (٧/ ١٤٤).

٥٢- معاني القرآن وإعرابه، إبراهيم بن السري بن سهل، أبو إسحاق الزجاج، (ت: ٣١١هـ)، ت: عبد الجليل عبده شلبي، عالم الكتب - بيروت، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م،(٢/ ١٧٩- ١٨٠).

٥٣- غريب القرآن لابن قتيبة، ت سعيد اللحام، مصدر سابق، ص: ١٢٦.

٥٤ -الإمام العلامة الفقيه الحافظ الأديب الأخباري اللغوي المتفنن في أصناف العلوم، أبي محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدينَوري، عُرف بالقُتَبي، الملقب (خطيب السنّة)، المتوفى سنة ست وسبعين ومائتين. رابط الموضوع: الألوكة http://www.alukah.net/culture/0/60621/#ixzz2jUVW2bbX ٢٠١٣/١١/٢

٥٥ - هو مسلم أبو عوسجة بن فرج الضبي، من كبار التابعين. وروي عن أبيه حديث المسح على الخفين. http://www.azahera.net/ ٢٠١٣/١١/٢

٥٦ - أبو بكر الكيساني.

٥٧- تفسير الماتريدي، تأويلات أهل السنة، محمد بن محمد بن محمود، أبو منصور الماتريدي (ت: ٣٣٣هـ)، ت: د. مجدي باسلوم، دار الكتب العلمية - بيروت، لبنان، ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م،(٣/ ٥٣٣).

ومؤتمن وأمين"[٥٨]. وقال الزمخشري[٥٩]:"حفظ من التغيير والتبديل"[٦٠]، أي للكتب السابقة.

لكننا - ومع الأسف الشديد - لم نكن منصفين مع القرآن الكريم، فقد جعلنا الأقوال مهيمنةً على القرآن، واللغة، وإن قالـ ت عجوز أبياتاً أو نصاً تحت خيمتها، جعلناه مهيمناً على كتاب الله، حتى في عصر الترجمة جعلنا كلمات الإنسان، وفلسفاته، مهيمنة وميزاناً على القرآن الكريم، مع أن جميع الناس، حتى اليهود والنصارى، مأمورون باتباع هذا الرسول الكريم. يقول الحق جل وعلا: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[٦١]. ويقول الشيخ الدكتور حسن الترابي[٦٢]: "كذلك ينبغي أن يرد القرآن بعضه إلى بعض، أن تراجع كل كلمة إلى مواردها، لينضبط معناها أو مداها، وتوصل كل كلمة بما يجاورها، لتبين في

---

٥٨ - تفسير ابن عطية (المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز)، أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية الأندلسي المحاربي (ت: ٥٤٢هـ)، ت: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية – بيروت، ١٤٢٢ هـ(٢/ ١٩٩).

٥٩ - هو إمام الأئمة أبو القاسم محمود بن عمر بن محمد بن عمر الخوارزمي الزمخشري. ولد في (زَمَخْشَر) يوم الأربعاء السابع والعشرين من شهر رجب سنة ٤٦٧ هـ / ١٠٧٤ م، وتوفي ليلة عرفة سنة ٥٣٨ هـ / ١١٤٣ م في جرجانية خوارزم، بعد رجوعه من مكة. يقول السمعاني في ترجمته: "برع في الآداب، وصنف التصانيف، وَرَدَ العراق وخراسان، ما دخل بلداً إلّا واجتمعوا عليه، وتتلمذوا له، وكان علامة نسابة". ينظر: (الأعلام: خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس، الزركلي الدمشقي (٧/ ١٧٨))، و(العقد الثمين فى تاريخ البلد الأمين، تقي الدين محمد بن أحمد الحسني الفاسي المكي (المتوفى: ٨٣٢ هـ)، ت: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت (٦/ ٣٧).

٦٠ - تفسير الزمخشري، مصدر سابق(١/ ٦٤٠).

٦١- سورة الأعراف: الآية ١٥٧.

٦٢ - حسن عبد الله الترابي ولد عام1932 ، في (كسلا)، و هو زعيم سياسي وديني سوداني. درس الحقوق في جامعة الخرطوم (١٩٥١- ١٩٥٥)، وحصل على الماجستير من جامعة أكسفورد عام ١٩٥٧، دكتوراه دولة من جامعة السوربون، باريس عام ١٩٦٤. يتقن الترابي أربع لغات بفصاحة وهي: العربية، والإنجليزية، والفرنسية، والألمانية. وكان الترابي أستاذاً في جامعة الخرطوم، ثم عين عميداً لكلية الحقوق بها، ثم عين وزيراً للعدل في السودان. وفي عام ١٩٨٨ عين وزيراً للخارجية السودانية. كما أختير رئيساً للبرلمان في السودان عام ١٩٩٦.

السياق، وتتألف جُمل الكلم في الآي، وتوصل الآي في السورة، ليبدو نظمها، وتتوافق معانيها متعاقبة عبر الآي، ويبين نغمها ووقعها بفواصل الآي، ويخرج جميع معانيها من دون اختلاف، ثمّ تتوالى السور من بداية القرآن إلى ختمته، مفصولة بأسوار موصولة بالمعاني، يضيء نسبها ترتيب نزولها، مما يوضح تدرج أحكام التكاليف إلى التمام، أو وقوع حجج القرآن حسب تطور ظروف التنزيل، أو ترتيب كتابتها في المصحف، بما يوحده خطاباً منيراً في مختلف شعاب الحياة، متتالياً لا ينقطع شعاعه الهادي بأدنى ظلمة عارضة، خالداً للناس كافة في سيرتهم في الحياة، إلى يوم القيامة"[٦٣]. وهذه الهيمنة والتصديق ساريان إلى يوم القيامة، وفي جميع مجالات الحياة، وعلى جميع العلوم والفنون، وعلم النفس جزء من هذه العلوم والفنون، ويسري عليه ما يسري على الجميع، وقد يكون هناك مبالغة في تحجيم آيات القرآن الكريم، واختزالها في بعض النظريات، سواء أكانت علمية أو إنسانية. والباحث يرفض تحجيم أو تسخير أو توظيف القرآن في خدمة نظريات بدائية، تتواءم والعقل الإنسان البدائي، فلا يمكن أن نزن العلم الإلهي المطلق بنظريات بدائية وقابلة للتطوّر كل لحظة، هذا ناهيك عن المراجعة والطعن فيها من آنٍ لآخر.

مفهوم السلوك عند العلماء حُدِّد بأنه: "حالة من التفاعل بين الكائن الحي ومحيطه (بيئته)، وهو في غالبيته سلوك مُتعلَم (مكتسب)، يتم من خلال الملاحظة والتّعليم والتّدريب"[٦٤]، أو هو "الاستجابة الكليّة التي يُبْديها كائنٌ حيٌّ إزاءَ أي موقف يواجهه"[٦٥]. فمن هذا الجانب تناول القرآن الكريم هذه المؤثّرات والاستجابة والتفاعل للَفرد مع البيئة المحيطة به، بدءاً من مرحلة الطفولة وإلى مرحلة الكهولة والشيخوخة، فلا نجد مرحلة من المراحل إلّا والقرآن الكريم أو السنة النبوية المطهرة مَهَد أو وَجّه إليها القواعد الكلية والضوابط المتينة، وذلك بين إلزام ومسؤولية وجزاء في النية والدوافع، وكل ذلك عن طريق التّعليم. ومسألة التّعليم والتّعلم شغلت بال الكثير من المفكرين والفلاسفة والحكماء، وهذا الأمر ليس أمراً عبثياً، وإنما له تأصيل خَلْقِي، ولهذا أَمَرَ سبحانه وتعالى أوّل ما بدأ

٦٣ - التفسير التوحيدي، الدكتور حسن الترابي،ج٢، دار العربية للعلوم ناشرون، ٢٠١١، ص١١

٦٤ - المشكلات التربوية والسلوكية الفصل الدراسي، المشرف الأكاديمي: الدكتور سامر عبد الهادي الطالبة: منى خضر الحبش التخصص: تربية، معلم صف، الجامعة العربية المفتوحة قسم الدراسات التربوية إدارة الصف وبيئة التعلم: ٢٠٠٧/٢٠٠٨.

٦٥ - المعجم الوسيط، مادة(سلك)، (١/ ٤٤٥).

الوحي به[٦٦]: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ. خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ. اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ. الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ. عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾[٦٧].

جاء في التفسير: "اذكر ربك الذي خلق الخلائق"[٦٨]، وقد حصر بعض المفسّرين التفسير على خلق الناس، ولكن يرى الباحث أن المفسرين الذين أطلقوا هذا المفهوم على شموليته هم الأصوب في البيان، وهذا ما قَالَه الْكَلْبِيّ: "يَعْنِي الْخَلَائِقَ"[٦٩]، وأنّ هذه الآية الكريمة تشمل جميع الخلائق، ما علم منه وما لم يعلم، وما غاب عنا وما شاهدناه. وأما ذكر الإنسان هنا، هو ما ذكره الزمخشري: "تخصيص للإنسان بالذكر من بين ما يتناوله الخلق، لأن التنزيل إليه، وهو أشرف ما على الأرض"[٧٠]، وهذا الخطاب تَشْرِيفٌ لَهُ[٧١]، "وخلقة الإنسان من أعظم العبر، حتّى إنّه ليس في المخلوقات التي لدينا أكثر عبراً منه في عقله وإدراكه، ورباطات بدنه وعظامه"[٧٢]. "الأكرم: الذي لا يوازيه كريم، ولا يعادله في الكرم نظير . وقد يكون الأكرم بمعنى الكريم، كما جاء الأَعَزّ والأطول"[٧٣]. والعليم بالقلم، هو"خَلْقَهُ للكتابة والخط"[٧٤]، "عَلَّمَ الإِنْسانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ، بخلق القوى، ونصب الدّلائل، وإنزال الآيات، فيعلمك القراءة وإن لم تكن قارئاً. وقد عدد - سبحانه وتعالى - مبدأ أمر الإنسان، ومنتهاه، إظهاراً لما أنعم عليه، من أن نقله من أخسّ المراتب إلى أعلاها تقرير لربوبيته، وتحقيق لأكرميته. وأشار أوّلاً إلى ما يدلّ على معرفته عقلاً، ثم نبه على ما يدلّ

٦٦- ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ أكثر المفسَرين، وأهل التأويل على أن هذه السورة أول مَا نزل من القرآن، وهي أوّل شيء نزل، (التفسير البسيط)(٢٤/ ١٦٥).

٦٧- سورة العلق، الآية ١ – ٥.

٦٨- تفسير السمرقندي المسمى بحر العلوم، نصر بن محمد بن أحمد أبو الليث السمرقندي، ت: د.محمود مطرجي، دار الفكر، بيروت، (٣/ ٥٩٨).

٦٩- تفسير البغوي - إحياء التراث، مصدر سابق، (٥/ ٢٨٠).

٧٠- تفسير الزمخشري ، مصدر سابق، (٤/ ٧٧٥).

٧١- تفسير القرطبي الجامع لأحكام القرآن، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، دار الشعب، القاهرة، (٢٠/ ١١٩).

٧٢- تفسير ابن عطية، مصدر سابق، (٥/ ٥٠٢).

٧٣- زاد المسير في علم التفسير، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (ت: ٥٩٧هـ)، ت: عبد الرزاق المهدي، دار الكتاب العربي - بيروت، ١٤٢٢ هـ(٤/ ٤٦٦).

٧٤- تفسير الطبري، جامع البيان، مصدر سابق، (٢٤/ ٥١٩).

عليها سمعاً"[٧٥]. وفي ظلال هذه الآيات نأخذ بقاعدة أساسية، ألَا وهي مبدأ التّعليم والتّعلم والاكتساب، في بيان دوافع السلوك الإنساني، وتهذيب السلوك، "ونحن نتعلّم السلوكيات؛ البسيطة منها والمعقّدة، وأنه كلما أتيح لهذا السلوك أن يكون منضبطاً وظيفياً ومقبولاً، كان هذا التعلُم إيجابياً، وأننا بفعل تكراره المستمر نحيله إلى سلوك مبرمج، الذي سرعان ما يتحوّل إلى (عادة سلوكية) تؤدي غرضها بيسر وسهولة وتلقائية"[٧٦]. ونرى - بكل وضوح - كيف تفاعل المجتمع المسلم مع هذه القاعدة، وغيرها من القواعد السلوكية، والذي تناوله الفلاسفة وعلماء التربية والزهّاد كمحور لتزكية النفوس، وسنتطرّق إلى هذه الموضوعات في المباحث اللاحقة.

المرجعية في الفهم:

يقول الحق جل جلاله: ﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾[٧٧]، تتخبط الإنسانية في متاهات كبيرة وكثيرة في عالم المصطلحات والمسمّيات، وبشكل أصبحت هذه المصطلحات[٧٨] تهدّد قنوات التفاهم الإنساني، ومَحطّات الحوار والتّواصل. وفي بعض الأحيان، فإنّ القوّة الغالبة هي التي تفرض المسمّيات والمصطلحاتَ، في أجواء خالية من الآخر، فالأنا الغالب هو سيد الموقف، والآخر المغلوب تتوافد عليه الكلمات تباعاً. ولهذا السبب تحتاج البشرية إلى كتاب أو منهج تستند إليه في تعاطيها وتعاملها مع هذه المصطلحات والمفاهيم والمسمّيات، وقد أنزل الله للبشريّة جمعاء كتاباً يهتدون بهديه، ويسترشدون بهداه، فالقرآن يهدي للّتي هي أقوم، وهو الأرشد والأصوب والأعدل والأجمل والأحسن والأفضل. "فالقرآن - من حيث كونه

٧٥- تفسير البيضاوي (أنوار التنزيل وأسرار التأويل)، ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي (المتوفى: ٦٨٥هـ)، ت: محمد عبدالرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي - بيروت، ١٤١٨هـ، (٥/ ٣٢٥).

٧٦- المشكلات التربوية والسلوكية الفصل الدراسي، المشرف الأكاديمي: الدكتور سامر عبد الهادي، الطالبة: منى خضر الحبش التخصص: تربية معلم صف، الجامعة العربية المفتوحة قسم الدراسات التربوية إدارة الصف وبيئة التعلم: ٢٠٠٧ - ٢٠٠٨.

٧٧- سورة الإسراء: الآية ٩

٧٨- (الحرية والقومية والديمقراطية والاشتراكية والعروبية وعصر العلم وعالم الأدب والفن وحقوق المرأة وحقوق الإنسان وحقوق الطفل والأقليات، والعنف والارهاب).

حافظًا لما سبقه، واستمرارًا له - قد تميّز عنه بذلك الامتداد الرحب الّذي ضمّ فيه جوهر القانون الأخلاقي كله، وهو الّذي ظلّ متفرقًا في تعاليم القديسين والحكماء، من المؤسسين والمصلحين، الّذين تباعد بعضهم عن بعض، زماناً ومكاناً، وربّما لم يترك بعضهم أثراً من بعده يحفظ تعاليمه. ولعلّ هذا الجانب هو السمة البارزة من سمات القرآن، وإن لم تكن أثمن سماته، ولا أصلها"[٧٩]. وبدون هذه المرجعية ينساق الإنسان إلى حافة الهاوية، ويدمّر بيديه ما بناه بالأمس. وهذه المرجعية تضبط وتهذب السلوك الإنساني، فالتشريعات البشرية دون هذه الهيمنة والمصداقية القرآنية لا يكف شرها وطغيانها، "ولا تقتصر النتيجة حينئذ على إعطاء كل امرئ الحق في أن يشرع لنفسه واجباته، وفق ما يلائم طبعه، واستعداداته، ومطامحه فحسب، بل إن لنفس الشخص أن يضع مبادئه وأحكامه، بصورة مستمرة، تحت الفحص، وأن يهدم في كل لحظة ما بناه في لحظة سابقة"[٨٠]. وقد يكون هذا هو مكمن الرعب والجزع والفزع عند علماء الاجتماع والفكر والحضارة، أمثال: كولن ولسن[٨١]، و الكسس كارل[٨٢].

معنى السلوك ومراحل تطوره عند علماء النفس:

فيما مضى م ن التعريفات اللغوية والاصطلاحية، ومن حيث المفهوم، رأينا أنّ علم النفس يعني علم السلوك، وإذا لم يكن هذان المفهومان متطابقين تطابقاً كاملاً في أوجه الربط والدّلالة، فإن التقارب في المعنى والعمل والدّلالة قريب إلى حد الاندماج الكُلّي، وهذا ما جعل دراسة علم النفس، أو فلسفة السلوك، متلازمين ومتجانسين إلى حدٍّ التطابق.

---

[٧٩]- دستور الأخلاق في القرآن، مصدر سابق، (ص: ٨).

[٨٠]- المصدر نفسه، ص:١٢١.

[٨١]- كولن هنري ولسون (٢٦ يونيو ١٩٣١-٥ ديسمبر ٢٠١٣) كاتب إنجليزي ولد في ليستر في إنجلترا. نُظر إلى كولن ولسون، على أنه ينتمي إلى مجموعة (الشباب الغاضبين)، - وهم مجموعة من الشباب المثقف المتمرد قدموا عدة أعمال مسرحية في الخمسينيات- رغم أن قليلاً جداً كان يربطه بهم من الناحية الفعلية. (https://ar.wikipedia.org/wiki).

[٨٢] - ألكسيس كاريل (Alexis Carrel) كان طبيبًا جراحًا فرنسيا، ولد في ٢٨ يونيو ١٨٧٣ وتوفي في ٥ نوفمبر ١٩٤٤ في باريس، حصل على جائزة نوبل في الطب عام ١٩١٢ . كان كاريل أيضاً عضواً في عديد من المؤسسات التعليمية في الولايات المتحدة الأمريكية، إسبانيا، روسيا، السويد، هولندا، بلجيكا، فرنسا، الفاتيكان، ألمانيا، إيطاليا، واليونان. كما حصل على الدكتوراه الفخرية من عدد من الجامعات مثل جامعة الملكة في بلفاست بأيرلندا الشمالية، جامعة برينستون، جامعة كاليفورنيا، جامعة نيويورك، جامعة براون، وجامعة كولومبيا - نيويورك. (https://ar.wikipedia.org/wiki).

مرّ مصطلح علم النفس بتطوّرات متعددة، كغيره من النظريات والعلوم، من حيث طبيعة استخدامه ومضمونه الدَّلالي، وبما يعكس مرحلة التطوّر العلمي، ومدى الفهم السائد لهذا المفهوم في الحقب التاريخية المتلاحقة. "وعلم النفس، كعلم يستقي من كل العلوم، ولأن موضوعه النفس، فإنّ الغالب عليه هو الطابع الفلسفي. وكانت نشأة علم النفس في أحضان الفلسفة، بل هو من صميم الفلسفة، وتاريخه لذلك قديم قدم تاريخ الفكر الإنساني، ومنذ أن وعى الإنسان هذا الشِّعار (اعرف نفسَك)، وربّما قبل ذلك بكثير"[٨٣].

ويرى الباحث أنّ عزو ظهور علم النفس إلى المدارس الفلسفية منطقي وارد، وذلك لأنّ علم السلوك، أو علم النفس، يفسِّر السلوك الإنساني. ولقد اختزلت المدارس السلوكية الموضوعات الّتي تفضي إلى العَلاقة بين المؤثرات والاستجابة لتلك المؤثرات، وهي تؤكّد دور العوامل البيولوجية والبيئية الطبيعية، والاجتماعية والثقافية، في تشكيل السلوك وتغييره وتعديله وتهذيبه، وذلك من خلال عملية التعلّم المستمرّة والدائمة، ولكن المأخذ هو حصر هذا الاهتمام والعناية بمعرفة الذات، بالفلاسفة والمفكرين والتربويين، وهذا إجحاف وغمط للحق، واختلال في المنهج العلمي، وذلك لأنّ مناطَ الشّريعة السماوية، ورسالة الأنبياء، هو تعريف الإنسان بإنسانيته، وبيان استحقاقه من الحياة، وآلية تعامله مع الله والكون والإنسان، وَفْق تعريف دقيق لكل ما يدور حوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا من رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ(٤) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾[٨٤]، "بلسان قومه، ليفهموا عنه ويعقلوا"[٨٥]. و"المعنى: وما أرسلنا رسولاً إلّا بلغة قومه ليفهموا عنه، وأرسل النبي - صلّى الله عليه وسلّم -، بلغة سعد ابن بكرٍ بن هوازن: وهي أفصح اللغات. فالمعنى: وما أرسلنا إلى أمّة من الأمم من قبل محمّد - صلّى الله عليه وسلّم - من رسول، إلّا بلسان الأمّة الّتي أرسل إليها"[٨٦]، وحصر-

٨٣- موسوعة مشاهير العالم أعلام علم النفس والتربية والطب النفسي والتحليل النفسي، د. نبيل موسى، ط(١)، دار الصداقة العربية، بيروت، ٢٠٠٢م، (٥/٢).

٨٤- سورة إبراهيم: الآيتان: ٤، ٥.

٨٥- التفسير البسيط، المصدر السابق، (١٢/ ٣٩٩).

٨٦- الهداية إلى بلوغ النهاية في علم معاني القرآن وتفسيره، وأحكامه، وجمل من فنون علومه، أبو محمّد مكي بن أبي طالب حَمّوش بن محمد بن مختار القيسي القيرواني ثم الأندلسي القرطبي المالكي (ت: ٤٣٧هـ)، ت: مجموعة رسائل جامعية بكلية الدراسات العليا والبحث العلمي - جامعة الشارقة، بإشراف أ. د:

دعوة محمّد - صلّى الله عليه وسلّم - في اللِّسان إلى لغة سعد ابن بكر، فيه تهوين لأحقيّة وعالميّة رسالة الإسلام، والتقليل من شأنها، "هو أنّه إذا أرسله بلسان قومه عقلوا قوله، وفهموا عنه، فإنْ قالَ قائلٌ: إنّ الله تعالى بعث النَّبِيَ إلى كُلّ الخَلْق على ما قالَ: "بعثت إلَى الأحمر والأسود"، وَلم يبْعَث بلسان كُلّ الخَلْق؟ والجواب عنه: أنّ سائر الخَلْق تبع العَرب في الدّعْوَة، وَقد بعث بلسانهم، ثمّ إنّه بعث بالرسل إلى الأطراف يَدعُونَهُمْ إلى الله"[٨٧].

ومن هذا المنطلق، يرى الباحث أنّ مفهوم اللِّسان أوسع من اللّغة، حيث يحتوي على التعرّف على علم السلوك، وهي المؤثرات، والاستجابة لتلك المؤثرات. والإسلام جاء لتهذيب هذا السلوك، وليس طمسه أو محوه، فالخطاب واضح، كُلّ رسول أرسل بلسان قومه، أي من بني جلدتهم، يفهم ويعي طبيعتهم وأمزجتهم وثقافتهم وحالتهم الاجتماعية، ومن كبرى وسائل هذا التفاهم، ومداخله، هو اللغة، وإن لم يكن حَصْراً على اللّغة❐

الشاهد البوشيخي، مجموعة بحوث الكتاب والسنة - كلية الشريعة والدراسات الإسلامية - جامعة الشارقة، ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م، (٥/ ٣٧٧١).

٨٧ - تفسير السمعاني: تفسير القرآن، أبو المظفر، منصور بن محمد بن عبدالجبّار بن أحمد المروزي السمعاني التميمي الحنفي ثم الشافعي (ت: ٤٨٩هـ)، ت: ياسر بن إبراهيم وغنيم بن عباس بن غنيم، دار الوطن، الرياض - السعودية، ١٤١هـ - ١٩٩٧م، (٣/ ١٠٣).

الوسطية في فكر الإمام الشاطبي

د. دحام إبراهيم الهسنياني

✍ يعد الإمام الشاطبي أحد رموز الفكر الوسطي في التشريع الإسلامي خصوصاً، وفي الثقافة الإسلامية عموماً، فهو الذي استطاع أن يخرج بالفكر التشريعي من الجمود والضمور إلى حيز الفعالية والوجود، باعتباره عاملاً من عوامل النهضة، وسبيلاً من سبل التنظير الاجتماعي والحضاري، فقاوم التقليد بشدة، مؤكداً على أهمية دور العقل في الاستنباط، واستطاع أن يبتكر منهجاً على درجة كبيرة من الإبداع والتجديد في النظر إلى الشريعة الإسلامية، يقوم على مراعاة مقاصد الشرع والتوسط بين مباني الألفاظ ودلالاتها ومعانيها. فكا ن لزاماً على كل من يتصدر للفتوى أن يتحرر من الأحكام المسبقة، وأن يتعامل مع النازلة بطريقة عقلية رشيدة، توفق بين الدلالة اللفظية ومقاصد الشرع ومآلاته، وبمنهج وسطي معتدل. تلك هي رسالة الإمام الشاطبي في الاجتهاد والإفتاء.

ولما كانت الشريعة تتميز بالوسطية واليسر، اتخذ الإمام الشاطبي منهجاً وسطاً بعيداً عن تنطّع المغالين والمتشددين، ومتجافياً عن تساهل المتساهلين، ويقرر - رحمه الله - أن من خرج عن الوسط فهو مذموم عند الراسخين في العلم، ثم استدل بأحاديث نبوية نهى فيها الرسول – صلى الله عليه وسلم - عن التشدد والحرج، ثم ختم كلامه قائلاً: "لأن المستفتي إذا ذهب به مذهب التعنت والحرج، بُغِّضَ إليه الدين، وأدى إلى

الانقطاع عن سلوك طريق الآخرة... وأما إذا ذهب به مذهب الانحلال، كان مظنة للمشي مع الهوى والشهوة. والشـرع إنما جاء بالنهي عن الهوى، واتباع الهوى مهلك"[٨٨].

وفي هذا البحث اعتمدت على كتاب الموافقات في أصول الفقه للإمام الشاطبي، هذا الكتاب القيم الذي لا يستغني عنه طالب علم، والذي قال عنه الشيخ محمد الفاضل بن عاشور: "ولقد بنى الإمام الشاطبي حقاً بهذا التأليف (الموافقات) هرماً شامخاً للثقافة الإسلامية، استطاع أن يشـرف منه على مسالك وطرق لتحقيق خلود الدين وعصمته، قلَّ من اهتدى إليها قبله؛ فأصبح الخائضون في معاني الشـريعة وأسـرارها عالة عليه، وظهرت مزية كتابه ظهوراً عجيباً في قرننا الحاضـر، والقرن قبله؛ لما أشكلت على العالم الإسلامي عند نهضته من كبوته أوجه الجمع بين أحكام الدين ومستجدات الحياة العصـرية، فكان كتاب: الموافقات للشاطبي هو المفزع، وإليه المرجع، لتصوير ما يقتضيه الدين من استجلاب المصالح، وتفصيل طرق الملاءمة بين حقيقة الدين الخالدة وصور الحياة المختلفة"[٨٩].

التعريف بالإمام الشاطبي ومكانته العملية

هو أبو إسحاق إبراهيم بن موسى اللخمي الغرناطي، الشهير بالشاطبي[٩٠]. وكان الإمام الشاطبي شغوفاً بالعلم، طالباً له من أهله، باحثاً عن كنوزه، كاشفاً لأسـراره، حيث جمع أصول العلوم الشـرعية.

لازم الشاطبي ابن الفخار البيري إلى أن مات، وأخذ عن كبار أئمة زمانه، منهم: أبو عبد الله المقري الكبير، ومفتي غرناطة الشيخ الشهير أبو سعيد فرج بن قاسم بن لب التغلبي ، وابن مرزوق الجد، والمحقق الأصولي أبو علي منصور ابن محمّد الزواوي، والإمام المحقق أعلم أهل وقته الشريف التلمساني، والحافظ الفقيه أبو العبّاس القبّاب. وكانت له مناظرات وأبحاث قيّمة في مشكلات المسائل مع كبار أئمة عصـره، أظهرت قوة عارضته، وإمامته، منها: مسألة (مراعاة الخلاف في المذهب)[٩١]، له فيها بحثٌ جليل مع الإمامين القباب وابن عرفة.

---

(٨٨) الموافقات: ١٨٩/٤.

(٨٩) أعلام الفكر وأركان النهضة بالمغرب العربي: ٨١.

(٩٠) نسبة إلى (شاطبة= Jativa)، مدينة قديمة في شـرقي الأندلس، وقرطبة، كانت مركزاً لصناعة الورق في العهد الإسلامي.

(٩١) وقاعدة مراعاة الخلاف هي: عبارة عن إعمال المجتهد لدليل خصمه المخالف، في لازم مدلوله، الذي أُعْمِلَ في نقيضه دليلٌ آخر.

لقد تميز الشاطبي بمنزلة عالية رفيعة بين علماء الشريعة الإسلامية، فتمهر على يديه الكثير من العلماء، الذين خرّجوا الكثير من العلماء، فكان الشاطبي، نجماً ساطعاً بين علماء عصـره، حيث ارتقى مرتبة العلماء الذين خلد التاريخ ذكرهم، فهم الذين أثْرَوا المكتبة الإسلامية بالفكر الذي تستند الأمة عليه. قال عنه صاحب (النيل): "الإمام العلَّامة المحقِّق، القدوة الحافظ الجليل المجتهد، كان أصوليًا مفسّرًا فقيهًا محدِّثًا، لغويًّا بيانيًا، نظَّارًا ثبتًا، ورعًا صالحًا زاهدًا، سُنِّيًا إمامًا مطلقًا، بحّاثًا مدقِّقًا جَدَليًا، بارعًا في العلوم، من أفراد العلماء المحقِّقين الأثبات، وأكابر الأئمة المتقنين الثقات، له القدم الراسخ، والإمامة العظمى في الفنون؛ فقهًا وأصولًا وتفسيرًا وحديثًا وعربيةً وغيرها"[٩٢].

للشاطبي تآليف نافعة ومهمة، وتعد مؤلفات العلامة الشاطبي من أهم ما يحتاجه طلبة العلم رعاية للنص، لفظاً ومعنى. منها:

(الموافقات في أصول الفقه). وقد وصف أحمد التنبكتي كتاب (الموافقات) بأنه: جليل القدر جدًا، لا نظير له. يدل على إمامة الشاطبي، وبُعد شأوه في العلوم، سيما علم الأصول.

و(الاعتصام في إنكار البدع)، و(الإفادات والإنشادات)، و(عنوان الاتفاق في علم الاشتقاق)، و(شـرح كتاب البيوع من البخاري). وله فتاوى كثيرة ومهمة. توفي - رحمه الله - في (غرناطة) سنة ٧٩٠هـ[٩٣].

مفهوم الوسطية عند الإمام الشاطبي

في معرض التعريف بمفهوم الوسطية، يقول الإمام الشاطبي: "والتوسط يعرف بالشـرع، وقد يعرف بالعوائد، وما يشهد به معظم العقلاء، كما في الإسـراف والإقتار في النفقات"[٩٤]. فهو عندما يجعل الحق مع التوسط، يعرّف التوسط بأنه ما دل عليه الشـرع، أو قُل: ما دل عليه الشـرع فهو التوسط أو الوسط. أما قوله: "وما يشهد به معظم العقلاء"، فقد جعل ذلك في الأمور التي جعل الشرع الفصل فيها للعرف، أو لأهل المعرفة

(٩٢) نيل الابتهاج للتنبكتي: ٤٦.

(٩٣) انظر ترجمته في: نيل الابتهاج للتنبكتي: ٤٦، ولقط الفرائد للمكناسي: ٢٢٥، والفكر السامي للحجوي: ٤/ ٢٤٨.

(٩٤) الموافقات، الإمام الشاطبي: ١١٤/٢.

والخبرة، كمهر المثل، وأجر المثل، ونفقة المثل، وكتعريف الغني والفقير، والبطر والتقتير، فإن هذه الأمور كلها إضافية [٩٥].

وكان التطرق إلى مصطلح الوسطية بمصدرها الوسط، كخصوصية لإثبات عدالة الصحابة – رضي الله عنهم-، وهناك من اعتبرهم الأحق بالآية الأمة الوسط. وقد تطرق إلى هذه المسألة الإمام الشاطبي، وبيّن أن ما صار إليه الجمهور من أصحابنا أن الرواة من أصحاب رسول الله – صلى الله عليه وسلم-، من المهاجرين والأنصار، معدلون بنص الكتاب، وهم مقرون على العدالة.

ونقل عن الإمام الشاطبي: أن الذي عليه سلف الأمة، وجماهير الخلف، أن الصحابة كلهم عدول بتعديل الله – سبحانه - لهم، فقال - رحمه الله-: "... سنة الصحابة – رضي الله عنهم- سنة يعمل عليها، ويرجع إليها. ومن الدليل على ذلك أمور: أحدها: ثناء الله عليهم من غير مثنوية، ومدحهم بالعدالة، وما يرجع إليها؛ كقوله تعالى: {**كُنْتُمْ خَيْرَ أمة أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ**}[٩٦]، وقوله: {**وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أمةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا**}[٩٧]، ففي الأولى، إثبات الأفضلية على سائر الأمم، وذلك يقضي باستقامتهم في كل حال، وجريان أحوالهم على الموافقة دون المخالفة. وفي الثانية، إثبات العدالة مطلقًا.."[٩٨].

ونهجُ الإمام الشاطبي التيسير والتخفيف في إفتائه لم يكن اعتباطاً، وإنما هو اتجاه إلى التوسعة على الناس، فيما لا يصادم نصاً ثابتاً محكماً، ولا قاعدة شرعية، فهو يسير مع النصوص والقواعد العامة، الموافقة لروح الإسلام ومقاصده.

ثبت أن التوسط هو الموافق لقصد الشارع، وهو نهج السلف الصالح. فعلى المقلد أن يختار المذهب الذي يكون على هذا الطريق، وإن كانت كل المذاهب طرقاً إلى الله – سبحانه -، فإن الإمام الشاطبي يؤكد على ضرورة ترجيح أحدها؛ لأنه أبعد عن اتباع الهوى، وأقرب إلى مراعاة قصد الشارع، خاصة في مسائل الاجتهاد[٩٩].

---

(٩٥) المقاصد عند الإمام الشاطبي؛ دراسة أصولية فقهية. محمود عبد الهادي فاعور. الطبعة الأولى. ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م. بسيوني للطباعة. صيدا، لبنان.

(٩٦) سورة آل عمران، الآية: ١١٠.

(٩٧) سورة البقرة، الآية: ١٤٣.

(٩٨) الموافقات: ٢٥٩/٤.

(٩٩) الموافقات: ١٩١/٤.

إن الإمام الشاطبي نشأ مالكياً، وأصبح من أكابر علماء المذهب المتأخرين، فبلغ درجة الاجتهاد في المذهب، إلى التحقيق بالعلوم. وهو المعوّل على فتاويه في الحلال والحرام؛ لذلك كانت متابعته دقيقة في فهم معاني النصوص الشرعية، والعمل بها على ضوء المقاصد.

وضع الإمام الشاطبي منهجاً حكيماً للأخذ بالدليل، سواء كان نصاً، أم أثراً، أم معقولاً. ويظهر من منهجه العناية الوافية بالدليل، والأخذ به وفق الطرق الصحيحة، التي سلكها سلف الأمة لتحقيق الأحكام الشرعية، ومقاصدها، عن طريق الدليل الشرعي. حيث إن الشريعة شاملة لجميع الأحكام، فلا يتوصل إليها إلاّ بأدلة شرعية، وما يتوصل إليه بهذه الأدلة فهو شرعي، وكل دليل شرعي صحيح يوافق المعقول الصحيح.

تميّز الإمام بحرية فكره فقد بذل قصارى جهده لإبراز هذه الميزة في فتاويه، فكسر بذلك التقليد والجمود الفكري، واتّجه إلى النظر في النصوص، والأخذ بها، وتطبيقها في واقع الحياة، فلم يقصر العلم على ما عرفه من أئمة المذهب وأعلامه؛ بل كان يستشهد بآراء أئمة من خارج المذهب، كالإمام الغزالي

كما اتّسم منهجه بالتيسير، ورفع الحرج، مراعاةً للمصالح. وهذا التصوّر لمنهج التشريع ربما لا يخفى من حيث المبدأ على من له إلمام بسيط بعلوم الشرع، فالإمام الشاطبي - بملكته الإدراكية للنصوص الشرعية، ومقاصد الشريعة - استطاع أن يخرج بآراء تتفق والأهداف العامة للتشريع، القاضية بأداء كل ما طلبه الشارع، والامتناع عما نهى عنه، بالقسط و اليسر، دون شطط ولا ظلم. وهذا التيسير والعدل، في مفهوم الإمام الشاطبي، لا يعني تغليب هذا الجانب على الجوانب الأخرى، التي يتطلب الأمر فيها التزام الحذر والشدة أحياناً، كما إذا كان الأمر يتعلق بالابتداع في العقائد والعبادات..؛ بل المراد أن يكون التيسير بالقدر الذي لا يفضي إلى انخرام مقاصد الشريعة؛ وإلّا لزم ارتفاع جميع التكاليف، أو أكثرها. فهذا هو الطريق الوسط الذي جاءت به الشريعة.

الوسطية عند الإمام الشاطبي قائم على فقه الواقع

يعد العلامة الإمام الشاطبي من القلائل الذين برعوا وأبدعوا في مقاصد الشريعة؛ تأصيلاً وتفريعاً، وتجديداً وصياغة، في لحظة تاريخية عصيبة، كانت تعصف بالأمة هجمات الخارج، ويهددها الجمود الفكري، والتقليد المذهبي الأعمى. وكانت الأمة بحاجة ماسة للتجديد العلمي والمعرفي من أهله الراسخين، ومنهم الإمام الشاطبي المالكي الأندلسي.

وكأنما كانت لحظة ظهوره ميلاداً جديداً، وخاصة في علم أصول الفقه والمقاصد تحديداً. وفي هذه اللحظات التاريخية من عمر الأمة المسلمة، تكثر الحاجة لمعرفة الأصول الضابطة للتفكير المنهجي، والنظر العلمي المنضبط، والقائم على الاتباع الواعي، والتجديد الراشد.

إن منهج الوسطية في فكر الشاطبي، فسره الشيخ محمد الفاضل بن عاشور بقوله: إن الشاطبي لما شاهد ما بالمجتمع الإسلامي من انحلال، نهضت في نفسه همة الإصلاح، لكنه بقي حائراً في اختيار المنهج الذي يتوخاه في إصلاحه. وكانت حركة بين مذهبين: مذهب يفصل الفكر عن العمل، ومذهب يتجه إلى الباطن، ويعرض عن الفكر والواقع معاً. فاتجه إلى منهج يجمع بين النظر والعمل، ويصلح الظاهر والباطن، فكانت الشريعة - بمقاصدها - منطلقه إلى الإصلاح؛ إصلاح ميولات النفس وجنوحها إلى ما لا يحل، وإرسالها بمقدار الاعتدال فيما يحل. والسماحة، واليسر، ورفع الحرج، هي المقصد الأعظم للشريعة الإسلامية، يؤخذ ذلك من كثرة النصوص الواردة بهذا المعنى. والسماحة مرتبطة بالفطرة الإنسانية، وهي الطبع الذي خلق الله عليه الإنسان. والفطرة تأبى الشدة والعنت، وتجنح إلى اليسر والرفق. والدين الحق - دين الفطرة- هو التزام بمنهج الوسطية التي لا تقوم مصلحة الناس إلا عليها، والخروج عنها إلى أحد الطرفين؛ من الشدة واللين، يعد خروجاً عن قصد الشارع. فالمعتبر في هذا المعنى أن الشريعة تسير على طريق وسط، لا انحراف فيه، ولا ميل، ولا إفراط ولا تفريط، وذلك هو الصراط المستقيم الذي جاء به الإسلام.

ولكن كيف يحقق الشارع الحكيم مصالح الخلق بهذه الوسطية؟ يشبه الشاطبي المفتي بالطبيب الماهر الذي يعطي الغذاء، ابتداء على ما يقتضيه الاعتدال في توافق مزاج المغتذي مع مزاج الغذاء، ويخبر من سأله عن بعض المأكولات التي يجهلها المغتذي؛ أهو غذاء أم سم، أم غير ذلك؟ فإذا أصابته علة، بانحراف بعض الأخلاط، قابله في معالجته على مقتضى انحرافه في الجانب الآخر، ليرجع إلى الاعتدال، وهو المزاج الأصلي، والصحة المطلوبة. وهذا غاية الرفق، وغاية الإحسان والإنعام من الله تعالى[١٠٠].

فقه الإمام الشاطبي فقه واقعي، قائم على اعتبار الواقع، وحل مشاكله، ونزاعاته في ظل التشريع الإسلامي. وقد ساهم هذا في القضاء على ظاهرة الفقه الفرضي، الذي ناءت بأعبائه الكتب، بل استنزفت الجهد والوقت معاً، وكان باباً لتلك القيود والآصار، والشواذ والنوادر، في المسائل التي أثّرت في الفقه سلباً، وأقصته عن حياة الناس الواقعية،

(١٠٠) موقع: https://www.alittihad.ae/

بطاقاتها، وحدود إنسانيتها. لذلك يجب على المفتي أن تكون علاقته بالمجتمع الذي يعيشه علاقة وطيدة، حتى تكون آراؤه آراء عالم خبير بأحوال النفوس، دارساً لها، متعمّقاً في فهمها، فاحصاً لأحوال عصره، عارفاً بظروفه؛ لأنّ آراءه وفتاويه هي مواقف يسترشد بها المجتمع في سعيه للتغيير، فلا يقتصر ضررها على الفرد، بل يتجاوزه إلى الأمة.

فمعايشة الإمام الشاطبي لواقع مجتمعه، حفزته للأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وردّ البدع، ومحاربتها؛ وهذا من أولويات جهاده، وذوده عن السنة الصحيحة.

ولما كان المفتي خليفة رسول الله -صلى الله عليه وسلم - وقدوة للناس، وجب عليه أن يسلك منهجاً وسطاً، فلا يميل بمن جاءه مستفتياً كل الميل إلى الانحلال، ولا إلى الشدة، كي لا يخرج عن قصد الشارع في التكليف، إذ لا تكليف إلّا بمستطاع. والدليل على صحة هذا، ما قاله الإمام الشاطبي: "أنه الصراط المستقيم الذي جاءت به الشريعة، فإنه قد مر أن مقصد الشارع من المكلف الحمل على التوسط، من غير إفراط ولا تفريط"[(١٠١)].

فالمستفتي إذا حُمّل من التكليف ما لا تطيقه نفسه، وقع في الحرج والضيق، فيبغض الدين، وينقطع عن العبادة. أما إذا ذُهب به مذهب الانحلال، كان ذلك مظنة اتباع الهوى، وإنما جاء الشرع للنهي عنه.

ونبه المفتي - إذا كان ممن يكلف نفسه فوق الوسط - بأن يخفي ذلك؛ حتى لا يقتدي به من لا طاقة له بذلك العمل، فينقطع عنه نهائياً. وإذا ظهر للناس عمله، نبه عليه، كما كان رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يفعل، فقد فاق الناس عبادة وخلقاً[(١٠٢)]، ولكنه كان ينهى عن الوصال، وعن أمور أخرى، كانت خاصة به. يقول الله تعالى: {**وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ**}[(١٠٣)].

وحذّرَ من تتبع رخَص المذَاهب، واعتبَرَ ذَلك من المفَاسد[(١٠٤)]، لأنه ميل مع أهواء النفوس، يؤدي إلى الانسلاخ من الدين، بترك اتباع الدليل إلى اتباع الخلاف، والشرع جاء بالنهي عن اتباع الهوى[(١٠٥)].

---

(١٠١) الموافقات: ١٨٨/٤.

(١٠٢) المصدر نفسه: ١٩٠/٤.

(١٠٣) سورة الحجرات، الآية: ٧.

(١٠٤) المصدر نفسه: ١٠٦/٤.

(١٠٥) الموافقات: ١٠٥/٤.

إن الفقه الحق لا بد أن يكون واقعياً، يعرف الواقع ولا يجهله، يلتفت إليه ولا يلتفت عنه، يُعمله ولا يهمله، يبني عليه ولا يبني في فراغ. ويتم ذلك بتحقيق المناط: ولقد ذهب الإمام الشاطبي، في تحقيق المناط، مذهباً فذاً، وارتقى به مرتقى صعباً، وهو الذي سماه (تحقيق المناط الخاص)، وهو الذي لا يكتفي المجتهد فيه بتحقيق المناط بصفة عامة وإجمالية، وتنزيل الأحكام والتكاليف على من هم داخلون تحت عموم مقتضياتها، وإنما ينظر في الحالات الفردية، ويقدر خصوصياتها، وما يليق بها ويصلح لها في خصوصياتها تلك. فإذا كان تحقيق المناط العام يقتضي معرفة الواقع في عمومه، ومعرفة الحالات في إجمالها، فإن تحقيق المناط الخاص يقتضي معرفة الواقع الخاص، ومقدار خصوصيته، وما تستوجبه تلك الخصوصية في ميزان الشرع.

ولقد اتسم نظر الإمام الشاطبي، وبحثه في المقاصد، بالدقة والعمق، وقوة الاستدلال، وتحري ما وراءه عمل، مع التفرد والسبق إلى عشرات القواعد الكلية التي لم تُسْبَق إليها، مما يعد فتحاً جديداً في علم الأصول.

لذا كان من أعظم خصال الإمام الشاطبي، التي صبغت في المقاصد، أنه كان قاصداً فيما يقرره، متلمساً سبيل الأولين، فلم تأخذه أبهة التجديد إلى الخروج عن حد الاعتدال والتوسط، وهذا من أكبر الآيات على قوة نفسه، وعظيم إخلاصه، وشدة تواضعه.

فهو - رحمه الله - نجده يُبدي ويعيد في هذه القضية، ويلح على ضرورة الجمع في النظر بين جزئيات الشريعة، وكلياتها، وأن "من أخذ بالجزئي معرضاً عن كلية، فهو مخطئ، كذلك من أخذ بالكلي، معرضاً عن جزئية"[١٠٦].

ولذلك، فشأن الراسخين، تصدر الشريعة صورة واحدة يخدم بعضها بعضاً، كأعضاء الإنسان إذا صورت صورة مثمرة.. فكان العضو الواحد يعطي، في مفهوم أحكام الشريعة، حكماً حقيقياً، فمتبعه متبع متشابه[١٠٧].

ويقول الإمام الشاطبي، واصفاً **العمل الاجتهادي في تنزيل الحكم** على ما يليق به من الأفعال بحسب الحالات: "هو النظر فيما يصلح بكل مكلف في نفسه بحسب وقت دون وقت، وحال دون حال، وشخص دون شخص؛ إذ النفوس ليست في قبول الأعمال

---

(١٠٦) الموافقات في أصول الشريعة، تحقيق: عبد الله دراز: ٥/٣.

(١٠٧) تصدير الدكتور أحمد الريسوني لكتاب قواعد المقاصد عند الإمام الشاطبي لـ د. عبد الرحمن الكيلاني، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م، دار الفكر، دمشق، سورية، من سلسلة إصدارات المعهد العالمي للفكر الإسلامي رقم (٣٥)،ص ٩-١٠.

الخاصة على وازن واحد، كما أنها في العلوم والصنائع كذلك... فصاحب هذا التحقيق الخاص هو الذي رزق نوراً يعرف به النفوس، ومراميها، وتفاوت إدراكها، وقوة تحملها للتكاليف، وصبرها على حمل أعبائها، أو ضعفها. ويعرف التفاتها إلى الخطوطِ العاجلة، أو عدم التفاتها، فهو يحمل على كل نفس من أحكام النصوص ما يليق بها، بناءَ على أن ذلك هو المقصود الشرعي في تلقي التكاليف " وعنه كذلك أنه " لا يصلح للعالم إذا سئل عن أمر كيف يحصل في الواقع، إلا أنه يجيب **بحسب الواقع**، فإن أجاب على غير ذلك، أخطأ في عدم اعتبار المناط المسؤول عن حكمه، لأنه سئل عن مناط معين، فأجاب عن مناط غير معين"[١٠٨].

وبهذا يعد الإمام الشاطبي من رموز التجديد التي أبلت بلاء حسناً في ميدان التنوير الإسلامي، وتجديد المنهج العلمي والفكر الفقهي عند المسلمين، وأضافت للفكر الإسلامي لبنة مهمة في البناء المنهجي، أعادت الوصل بين المعقول والمنقول، وجددت الاتصال بين الفروع والأصول، وأفصحت عن سبيل الاتساق بين جزئيات الشريعة وكلياتها، ونقلت التصنيف في الأصول والقواعد ومقاصد الشريعة نقلة نوعية بارزة.

منهج الشاطبي في الفتوى قائم على الوسطية والاعتدال

الفتوى لغةً: هي الجواب عما يُشكل من المسالك الشرعية أو القانونية. والجمع: فتاوِ وفتاوى، ويقال أفتى في المسألة: أبان الحكم فيها، فالإفتاء هو إبانة الأحكام في المسائل الشرعية، أو القانونية، أو غيرها مما يتعلق بسؤال السائل. والمفتي: هو من يتصدر للإفتاء والفتوى بين الناس، وهو فقيه تعيّنه الدولة، ليجيب عما يُشكل من المسائل الشرعية. والجمع: مفتون. ودار الفتوى: هي مكان المفتي. والفتيا هي الفتوى في المسألة المشكلة[١٠٩].

الفتوى شرعاً: لا يختلف المعنى الشرعي للفتوى والإفتاء عن هذه المعاني اللغوية، فالفتوى: هي بيان الحكم الشرعي في مسألة من المسائل مؤيداً بالدليل من القرآن الكريم، أو السنة النبوية، أو الاجتهاد. وهي ضرورية للناس، لأنهم لا يمكن أن يكونوا جميعاً علماء بالأحكام. ولو انقطعوا لتحصيل ذلك حتى يبلغوا مرتبة الاجتهاد، لتعطل العمل، وتوقفت الحياة. فكان من رحمة الله تعالى بالأمة أن جعل منها علماء، ومقلدين،

(١٠٨) الموافقات: ٣/٨٣-٨٤.

(١٠٩) المعجم الوسيط: ٢ /٦٧٣.

وأوجب على العامة من المقلدين أن يستفتوا العلماء فيما يجهلونه، فقال: {**فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ**}[١١٠]. وأوجب على العلماء أن يفتوهم، ويجيبوهم، ويبينوا لهم الأحكام، فقال – صلى الله عليه وسلم -: (من سئل عن علم فكتمه، ألجمه الله يوم القيامة بلجام من نار)[١١١].

ويجب على العامي أن يتوجه بالسؤال إلى من يثق بعلمه وعدالته، فإذا جهل حاله، كفاه أن يراه مشهوراً بين الناس بذلك. ومع هذا، لا تبرأ ذمته بالعمل بفتواه، إلاّ إذا أطمأن قلبه إليها، فإذا كان يعلم أن الأمر في الواقع على خلاف الفتوى، لم يبرأ من الإثم، وإن كان المفتي أعلم العلماء.

وعن مكانة المفتي، ومسؤوليته، يقول الإمام الشاطبي: "المفتي قائم في الأمة مقام النبي – صلى الله عليه وسلم-، والدليل على ذلك أمور:

أحدها: النقل الشرعي في الحديث: (إن العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً، وإنما ورثوا العلم)[١١٢].

الثاني: أنه نائب عنه في تبليغ الأحكام، بقوله – صلى الله عليه وسلم-: (ألا ليبلغ الشاهد منكم الغائب)[١١٣]. وقوله: (بلغوا عني ولو آية)[١١٤].

---

(١١٠) سورة الأنبياء، الآية: ٧.

(١١١) رواه الإمام أحمد في مسنده: ٣٤٤/٢، رقم (٨٥١٤)، وأبو داود: رقم (٣٦٥٨)، والترمذي: رقم (٢٦٤٩) وقال: حسن. وابن ماجة: رقم (٢٦٦)، والحاكم في مستدركه: ١٨٢/١، رقم (٣٤٥)، والبيهقي في شعب الإيمان: ٢٧٥/٢، رقم (١٧٤٣).

(١١٢) رواه أبو داود (٣٦٤١)، في أول كتاب العلم، وابن ماجة (٢٢٣)، في المقدمة: باب فضل العلماء، والحث على طلب العلم، والدارمي: ٩٨/١، وابن عبد البر في جامع بيان العلم: ٣٩ و٤٠، والطحاوي في مشكل الآثار: ٤٢٩/١، والبغوي (١٢٩) ، وعبارة: (وإن العلماء هم ورثة الأنبياء، ورّثوا العلم، من أخذه أخذ بحظ وافر، ومن سلك طريقاً يطلب به علماً، سهل الله له طريقاً إلى الجنة) أوردها البخاري في (صحيحه)، في كتاب العلم، ضمن عنوان: باب العلم قبل القول والعمل.

(١١٣) رواه البخاري (٦٧) في العلم باب قول النبي: (رب مبلغ أوعى من سامع)، و (١٠٥) في العلم، باب: ليبلغ العلم الشاهد الغائب، و(٧٤٤٧) في التوحيد، باب قول الله: {**وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ**}، ومسلم (١٦٧٩) في القسامة باب تغليظ تحريم الدماء والأعراض والأموال(٥٠).

(١١٤) رواه البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل، رقم (٣٢٧٤)، والترمذي في جامعه رقم ٢٨٠٦، في كتاب العلم، باب ما جاء في الحديث عن بني إسرائيل، ثم قال الترمذي: (هذا حديث حسن صحيح).

الثالث: أن المفتي شارع من وجه، لأن ما يبلغه من الشريعة إما منقول من صاحبها، وإما مستنبط من المنقول: فالأول: يكون فيه مبلغاً، والثاني: يكون فيه قائماً مقامه في إنشاء الأحكام، وإنشاء الأحكام إنما هو للشارع.

وعلى الجملة، فالمفتي مخبر عن الله تعالى كالنبي، وموقع للشريعة على أفعال المكلفين بحسب نظره كالنبي، ونافذ أمره في الأمة بمنشور الخلافة كالنبي، ولذلك سموا أولي الأمر، وقرنت طاعتهم بطاعة الله ورسوله في قوله تعالى: {**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ**}[١١٥]، والأدلة على هذا المعنى كثيرَة"[١١٦].

وتحصل الفتوى من المفتَي من جهة القول، كأن يسأل فيجيب. ومن جهة الفعل، كأن يفعل، ويقتدى به. ومن جهة الإقرار، كأن يرى عملاً من شخص، فيقره عليه. ولا تصح الفتيا إذا خالفت مقتضى العلم، سواء كانت قولاً أم فعلاً أم تقريراً. والمفتي البالغ ذروة الدرجة، هو الذي يحمل الناس على المعهود الوسط فيما يليق بالجمهور، فلا يذهب بهم مذهب الشدة، ولا يميل بهم إلى طرف الانحلال[١١٧].

فالداعية إلى الله، المخلص لدينه، الصادق مع ربه، هو الذي يجمع ولا يفرق، ويجعل حديث الرسول – صلى الله عليه وسلم-: (يسروا ولا تعسروا) نصب عينيه، فإن من منهج الداعية التيسير، لا التعسير، كما أرشدنا إلى ذلك الداعية الأول رسول الله – صلى الله عليه وسلم- لما بعث دعاة الإسلام إلى الأمصار، يدعون الناس إلى دين الله بالحكمة والموعظة الحسنة[١١٨].

ومن مستلزمات التوسط في أهلية الإفتاء: ألا يقع المفتي تحت ضغط الواقع، وتأثيره - سواء كان الواقع الذي يريده العامة، أم الواقع الذي يريده السلطان - فينساق وراء دنياه؛ رغبة أو رهبة، فتغدو مهمته تسويغ الأحكام، والبحث عن المخارج، والحيل. كما حكى الباجي عن بعض أهل زمانه: "أنه كان يقول: إن الذي عليّ لصديقي، إذا وقعت له حكومة، أو فتيا، أن أفتيه بالرواية التي توافقه. وأخبرني من أثق به أنه وقعت له واقعة، فأفتاه جماعة من المفتين بما يضره، وكان غائباً، فلما حضر، قالوا: لم نعلم أنها لك، وأفتوه

(١١٥) سورة النساء، الآية: ٥٩.

(١١٦) الموافقات: ١٦٢/٤-١٦٣.

(١١٧) المصدر نفسه: ١٦٣/٤.

(١١٨) التأصيل الشرعي لفقه الواقع، الشيخ محمد الهسنياني رحمه الله: ٢١٤.

بالرواية الأخرى. قال: وهذا مما لا خلاف بين المسلمين، المعتد بهم في الإجماع، أنه لا يجوز"[١١٩].

ويلتحق بهذه الصفات المؤهلة لإفتاء لا شطط فيه، ولا تفريط - أيضاً - مراعاة أعراف الناس، والتغيرات الطارئة على حياتهم؛ فلكل عصر مشكلاته، ولكل قوم طريقة ونمط في السلوك والخطاب. غير أن هاهنا قضية عمت بها البلوى في زمن (القرية الواحدة)، رأيت التنبيه عليها، وهي ظهور الفتوى وشيوعها في القنوات الفضائية، وفي شبكة (الإنترنت)، فقد مضى الناس يسألون ويستفتون من كافة أقطار المعمورة، ويأتيهم جواب واحد لجميعهم في القضية الواحدة، وكثيراً ما تكون متصلة بالعرف، أو المذهب السائد في البلد الذي ورد منه السؤال، ولكن التسرع في الإفتاء[١٢٠]، يجعل المفتي في غنى عن معرفة التفاصيل، والسؤال عن عرف السائل!، وهو خطأ بيّن، وتساهل مكشوف في أمر الدين، ومضيع لحقوق المسلمين. فليس بلازم، إذا تسارع الزمن، أن يتسرع المفتي، فيحمل القاصي والداني على رأي واحد، فيفرط أو يفرّط، بل الواجب التثبت في الفتوى، والاستفادة من هذه الوسائل الحديثة، حتى يظهر للمفتي وجه الحق، ويهتدي إلى الصواب[١٢١].

منهجه الوسطي قائم على التيسير، ورفع الحرج، مراعاةً للمصالح

والمتتبع لفتاوى الإمام الشاطبي يجده يكره التكلف والتعسف، ويميل إلى اليسر والسماحة، ويظهر ذلك عندما سُئل عن خلط أصفر الزعفران، وأصل الشعر بما ابيضّ منه، هل يكون ذلك من الغش أم لا؟[١٢٢]، فأجاب: "الذي ظهر لي على الجملة أنه لا يشك أنّ خلطه الأصفر في الزعفران غش، وأما أصول الشعر، وهو الأبيض الذي ذكرتم، فالأمر فيه عندي خفيف، لأنه يشبه عجم التين، وعراجين الزبيب، وما أشبه ذلك، فلا ضرر فيه. وإن قلتم: إنه يزيد في الوزن، فالزيادة يسيرة، مع أن مثل ذلك لازم في الزبيب وغيره، ولا مقال فيه، وإنما قطع الأبيض عندي كتنقية الزبيب من عجمه، فمن فعله

(١١٩) الاختلاف الفقهي في المذهب المالكي: ١٩٢.
(١٢٠) يدل عليه أنك نادراً ما تسمع أحدهم يقول: لا أدري!
(١٢١) مناهج الفقهاء في التعامل مع الخلاف الفقهي: ٣٤.
(١٢٢) فتاوى الإمام الشاطبي: ١٤٩.

فحسن، ومن لا، فلا حرج. فإن رضيتم بهذا النظر، من غير نص أستند إليه في المسألة، وإلا فأنتم أعلم"[١٢٣].

ونهجَ الإمام الشاطبي التيسير والتخفيف في إفتائه لم يكن اعتباطاً، وإنما هو اتجاه إلى التوسعة على الناس، فيما لا يصادم نصاً ثابتاً محكماً، ولا قاعدة شرعية، فهو يسير مع النصوص، والقواعد العامة، الموافقة لروح الإسلام ومقاصده.

ويرى أن اليسر والتسهيل في الشريعة ليس مطلقاً، وإنما هو مقيّد بما هو جار على أصولها. لذلك، لا تصح الفتوى بما يوافق هوى السائل، وشهوته، فيميل إلى تتبع الرخص بإطلاق، وهذا مضاد للوسطية والاعتدال. وفي ذلك يقول: "لأن الحنيفية السمحة إنما أتى فيها السّماح مقيّداً بما هو جار على أصولها، وليس تتبع الرخص، ولا اختيار الأقوال، بالتّشهي، بثابت من أصولها... ثم نقول: تتبع الرخص ميلٌ مع أهواء النفوس، والشرع جاء بالنهي عن اتّباع الهوى، فهذا مضادٌ لذلك الأصل المتفق عليه"[١٢٤]. ويضيف قائلاً: "وهو أيضاً مؤدٍّ إلى إيجاب إسقاط التكليف جملة، فإن التكاليف كلها شاقة ثقيلة، ولذلك سميت تكليفاً، من الكلفة، وهي المشقة. فإذا كانت المشقة حيث لحقت في التكليف، تقتضي الرفع، بهذه الدلائل، لزم ذلك في الطهارات، والصلوات، والزكوات... وغير ذلك، ولا يقف عند حدّ، إلا إذا لم يبق على العبد تكليف، وهذا محال"[١٢٥].

كما اتّسم منهجه بالتيسير، ورفع الحرج، مراعاةً للمصالح. وهذا التصوّر لمنهج التشريع، ربما لا يخفى - من حيث المبدأ - على من له إلمام بسيط بعلوم الشرع. فالإمام الشاطبي - بملكته الإدراكية للنصوص الشرعية، ومقاصد الشريعة - استطاع أن يخرج بآراء تتفق والأهداف العامة للتشريع، القاضية بأداء كل ما طلبه الشارع، والامتناع عما نهى عنه، بالقسط واليسر، دون شطط ولا ظلم. وهذا التيسير والعدل، في مفهوم الإمام الشاطبي، لا يعني تغليب هذا الجانب على الجوانب الأخرى، التي يتطلب الأمر فيها التزام الحذر والشدة أحياناً، كما إذا كان الأمر يتعلق بالابتداع في العقائد والعبادات... بل المراد أن يكون التيسير بالقدر الذي لا يفضي إلى انخرام مقاصد الشريعة؛ وإلاّ لزم ارتفاع جميع التكاليف، أو أكثرها. فهذا هو الطريق الوسط الذي جاءت به الشريعة.

---

(١٢٣) المصدر نفسه.

(١٢٤) الموافقات: ١٠٥/٤.

(١٢٥) الموافقات: ١٠٨/٤.

تميّز منهجه، في غالب فتاويه، بالإسهاب والاستطراد، بقصد البيان والتوضيح وإظهار الحق، ومتى كان ذلك هو المقصود. فالإمام الشاطبي لا يحسن عنده تأخير البيان عن وقت الحاجة، وأحياناً يختصر الكلام في مسألة ما، لعدم مناسبة المقام، أو لاشتهار الجواب عنها، وهكذا..

كما اهتم الإمام الشاطبي بالتطبيق الفعلي لقواعد الفقه، وأصوله، كقاعدة: (العبرة بالمقاصد والمعاني، لا بالألفاظ والمباني)، و(البينة على المدّعي، واليمين على من أنكر)، وقواعد الضرورة.. وغيرها، فكان حريصاً على أن تظل القواعد والأصول حية، مطبّقة - فعلاً - في ميادينها، ومتى كان كذلك، فإنه يعطي لتلك المواد روحها، وتكون مفهومة واضحة في مجالها. وبهذه الطريقة تُفهم هذه الأصول والقواعد، وتكون واضحة المعاني.

ومبدأ التخفيف والتيسير في العبادة، من أجل المرض والسفر والجهاد، مبدأ نزل به القرآن منذ مطلع فجر الإسلام، في مكة. قال الله تعالى: {**عَلِمَ أَلَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَؤُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَؤُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**}[١٢٦].

ويفهم اليسر - بصورة أدق - إذا تتبعنا التوازن والاعتدال في الأحكام الشرعية، والقاعدة في ذلك قول العلماء: (الأحكام الشرعية لا تعرف بتشديد غال، ولا بترخص جاف، ولا بعلة توهم بالانقياد)[١٢٧]. فلا يكون منهج الإنسان في فهم الأحكام الشرعية، وتطبيقها، البحث عن الأمور التي فيها رخصة وسهولة، وقد قال العلماء: (لو تتبعت رخصة كل عالم، اجتمع فيك الشر كله). فلا ينبغي على المسلم أن يبحث عن سقطات العلماء، وشواذ الفتيا، ومرجوح الأقوال، فيتخذ من ذلك مذهباً يدين به. كما أنه لا ينبغي للمسلم أن يكون منهجه هو البحث عما فيه شدة.

لذا، فإن من التفريط في الأحكام الشرعية تتبع الرخص في المذاهب، أو تتبع أسهل الآراء فيها، لمجرد التخفف من ثقل التكاليف. ولكن مع هذا، نرى أن الشريعة الإسلامية قد بنيت على اليسر، وكثرة الرخص، ولذلك فإن التوسط والاعتدال والتوازن هو الذي

(١٢٦) سورة المزمل، الآية: ٢٠.

(١٢٧) جامع بيان العلم وفضله: ٩٢/٢.

يرجح بين كفتي التشديد في الأصول، والتيسير في الفروع. وما أروع وأحسن ما قاله الإمام الشاطبي في هذا الشأن: "فعلى هذا يكون الميل إلى الرخص في الفتيا، بإطلاق، مضاداً للمشي على التوسط. كما أن الميل إلى التشديد، مضاداً له أيضاً. وربما فهم بعض الناس ان ترك الترخص تشديد، فلا يجعل بينهما وسطاً، وهذا غلط، والوسط هو معظم الشريعة، وأمّ الكتاب. ومن تأمل موارد الأحكام، بالاستقراء التام، عرف ذلك. وأكثر من هذا شأنه من أهل الانتماء إلى العلم، يتعلق بالخلاف الوارد في المسائل العلمية، بحيث يتحرى الفتوى بالقول الذي يوافق هوى المستفتي، بناء منه على أن الفتوى بالقول المخالف لهواه، تشديد عليه، وحرج في حقه، وأن الخلاف إنما كان رحمة بهذا المعنى، وليس بين التشديد والتخفيف واسطة، وهذا قلب المعنى المقصود في الشريعة.. وقد تقدم أن اتباع الهوى ليس من المشتقات التي يترخص بسببها، وأن الخلاف إنما هو رحمة من جهة أخرى، وأن الشريعة حمل على التوسط، لا على مطلق التخفيف، وإلا لزم ارتفاع مطلق التكليف، من حيث هو حرج ومخالف للهوى، ولا على مطلق التشديد. فليأخذ الموفق في هذا الموضوع حذره، فإنه مزلة قدم، على وضوح الأمر فيه"[(١٢٨)].

وضابط الاعتدال أن العزيمة في موضعها أحب إلى الله تعالى، وأن الرخصة في موضعها أحب إلى الله تعالى. كما لا ينبغي أن يتوقف امتثال المسلم لأمر الله، على إدراك العلة أو الحكمة، بل يكفي أن يعتقد اعتقاداً مجملاً أن الله لم يحل إلا طيباً، ولم يحرم إلا خبيثاً، ولم يشرع إلا لحكمة، علمها من علمها، وجهلها من جهلها، وعدم العلم بها لا ينفي وجوبها.

يقول الإمام الشاطبي: "المفتي البالغ ذروة الدرجة، هو الذي يحمل الناس على المعهود الوسط فيما يليق بالجمهور، فلا يذهب بهم مذهب الشدة، ولا يميل بهم إلى طرف الانحلال. والدليل على صحة هذا، أنه الصراط المستقيم الذي جاءت به الشريعة، فإنه قد مر أن مقصد الشارع من المكلف الحمل على التوسط، من غير إفراط ولا تفريط، فإذا خرج عن ذلك في المستفتين، خرج عن قصد الشارع. ولذلك، كان من خرج عن المذهب الوسط، مذموماً عند العلماء الراسخين.

أيضاً، فإن هذا المذهب كان المفهوم من شأن رسول الله – صلى الله عليه وسلم- وأصحابه الأكرمين، وقد ورد عنه - عليه الصلاة والسلام - التبتل، وقال لمعاذ لما أطال

(١٢٨) الموافقات: ١١٦/٢.

بالناس في الصلاة: (أفتان أنت يا معاذ؟)[١٢٩]. وقال – صلى الله عليه وسلم -: (إن منكم منفرين)[١٣٠]. وقال – عليه الصلاة والسلام-: (سددوا وقاربوا، واغدوا وروحوا، وشيء من الدلجة، والقصد القصد، تبلغوا)[١٣١]. وقال – صلى الله عليه وسلم-: (عليكم من العمل ما تطيقون، فإن الله لا يمل حتى تملوا)[١٣٢]، وقال – عليه الصلاة والسلام-: (أحب العمل إلى الله، ما دام عليه صاحبه، وإن قل)[١٣٣]. ورد عليهم (الوصال)، وكثير من هذا.

وأيضاً، فإن الخروج إلى الأطراف، خارج عن العدل، ولا تقوم به مصلحة الخلق؛ أما في طرف التشديد، فإنه مهلكة، وأما في طرف الانحلال، فكذاك أيضاً. لأن المستفتي، إذا ذهب به مذهب العنت والحرج، بغض إليه الدين، وأدى إلى انقطاع عن سلوك طريق الآخرة، وهو مشاهد. وأما إذا ذهب مذهب الانحلال، كان مظنة للمشي مع الهوى والشهوة، والشرع إنما جاء بالنهي عن الهوى، واتباع الهوى مهلك)[١٣٤].

ثم قال رحمه الله: "قد يسوغ للمجتهد أن يحمل نفسه من التكليف ما هو فوق الوسط، بناء على ما تقدم في أحكام الرخص، ولما كان مفتياً بقوله وفعله، كان له أن يخفي ما لعله يقتدى به فيه، فربما اقتدى به فيه من لا طاقة له بذلك العمل فينقطع، وإن اتفق ظهوره للناس نبه عليه، كما كان رسول الله – صلى الله عليه وسلم- يفعل، إذ كان قد فاق الناس عبادة وخلقاً، وكان قدوة، فربما اتبع لظهور عمله، فكان ينهى عنه في مواضع، كنهيه

---

(١٢٩) رواه الإمام أحمد في مسنده: ٢٩٩/٣ (١٤٢٢٦)، تعليق: شعيب الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين، والبخاري، في: ٧٨ كتاب الأدب: ٧٤ باب: من لم ير إكفار من قال ذلك متأولاً أو جاهلاً، ومسلم (٤٦٥)، (١٧٨)، في الصلاة: باب: القراءة في العشاء.

(١٣٠) رواه البخاري في العلم، باب: الغضب في الموعظة والتعليم إذا رأى ما يكره، ومسلم في باب: أمر الأئمة بتخفيف الصلاة في تمام (٧١٣)، والنسائي في العلم.

(١٣١) رواه البخاري في كتاب الإيمان، باب الدين يسر، والنسائي في كتاب الإيمان وشرائعه، باب الدين يسر.

(١٣٢) رواه البخاري في كتاب اللباس باب الجلوس على الحصير وغيره، فتح الباري: ٣٨٦/١٠. ومسلم كتاب الصيام، باب صيام النبي في غير رمضان.. والملال كناية عن القبول أو الترك، أو أطلق على سبيل المشاكلة، وهو فتور يعرض للإنسان من كثرة مزاولة شيء، فيوجب الكلال، والإعراض عنه. وقوله صلى الله عليه وسلم: (إن أحب الأعمال إلى الله ما دام)، أي استمر في حياة العامل، وليس المراد حقيقة الدوام، التي هي شمول جميع الأزمنة. لسان العرب: ٤٩/١٣، مادة (ملل).

(١٣٣) رواه البخاري رقم (٦١٠٠) بَاب الْقَصْد وَالْمُدَاوَمَة عَلَى الْعَمَل، ومسلم رقم (٧٨٢) في كتاب الصيام، باب صيام النبي في غَيْرِ رَمَضَانَ، وَاسْتِحْبَابِ أَنْ لاَ يُخْلِيَ شَهْرًا عَنْ صَوْمٍ.

(١٣٤) الموافقات: ١٧٢/٤.

عن الوصال، ومراجعته لعمرو بن العاص في سرد الصوم، وقد قال الله تعالى: {**وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الأمر لَعَنِتُّمْ**}[١٣٥]، وأمر بحلّ الحبل الممدود بين السَاريتين، وأنكر على الحولاء بنت تويت قيامها اللَيل، وربما ترك العمل خوفاً أن يعمل به الناس، فيفرض عليهم. ولهذا - والله أعلم - أخفى السلف الصالح أعمالهم، لئلا يتخذوا قدوة، مع ما كانوا يخافون عليه أيضاً من رياء أو غيره. وإذا كان الإظهار عرضة للاقتداء، لم يظهر منه إلا ما صح للجمهور أن يحتملوه"[١٣٦] ❐

(١٣٥) سورة الحجرات، الآية: ٧.

(١٣٦) الموافقات: ١٧٤/٤.

حملات تشويه الخليفة عمر بن الخطاب
بين جذورها التاريخية، وتجديدها المعاصر

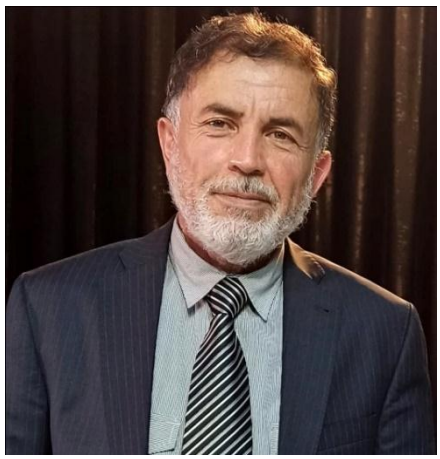

أ.د. فرست مرعي

المقدمة

✍ عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبد العزى بن رياح بن عبد الله بن قرط بن رزاح بن عدي بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر، وهو قريش بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن لياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان، العدوي القرشي. وهو ابن عمّ زيد بن عمرو بن نفيل، الموحد على دين إبراهيم، وأخوه الصحابي زيد بن الخطاب، والذي كان قد سبق عمر إلى الإسلام. ويجتمع نسبه مع الرسول محمد في (كعب بن لؤي بن غالب).

وهو أبو حفص عمر بن الخطاب العدوي القرشي، المُلقب بالفاروق، ثاني الخلفاء الراشدين، ومن كبار أصحاب الرسول محمد - صلى الله عليه وسلم-، وأحد أشهر الأشخاص والقادة في التاريخ الإسلامي، ومن أكثرهم تأثيراً ونفوذًا. وهو أحد العشرة المبشرين بالجنة، ومن علماء الصحابة وزهّادهم. تولّى الخلافة الإسلامية بعد وفاة أبي بكر الصديق في 23أغسطس سنة 634م، الموافق للثاني والعشرين من جمادى الآخرة سنة 13

هـ . كان ابن الخطّاب قاضيًا خبيرًا، وقد اشتهر بعدله وإنصافه الناس من المظالم، سواء كانوا مسلمين أو غير مسلمين، وكان ذلك أحد أسباب تسميته بالفاروق، لتفريقه بين الحق والباطل.

هو مؤسس التقويم الهجري ، وفي عهده بلغ الإسلام مبلغًا عظيمًا، وتوسع نطاق الدولة الإسلامية حتى شمل كامل العراق ومصر وليبيا والشام وأذربيجان وفارس وسجستان وخراسان وشرق الأناضول وجنوب أرمينية والجزيرة الفراتية، وهو الذي أدخل القدس تحت حكم المسلمين لأول مرة، وهي ثالث أقدس المدن في الإسلام، وبهذا استوعبت الدولة الإسلامية كامل أراضي الإمبراطورية الفارسية الساسانية، وحوالي ثلثي أراضي الامبراطورية البيزنطية.

تجلّت عبقرية عمر بن الخطاب العسكرية في حملاته المنظمة المتعددة التي وجهها لإخضاع الفرس الساسانيين، الذين فاقوا المسلمين قوة، فتمكن من فتح كامل إمبراطوريتهم خلال أقل من سنتين. كما تجلّت قدرته وحنكته السياسية والإدارية عبر حفاظه على تماسك ووحدة دولة كان حجمها يتنامى يومًا بعد يوم، ويزداد عدد سكانها، وتتنوع أعراقها.

وكان النبي محمد - صلى الله عليه وسلم- أرسل إلى (كسرى أبرويز بن هرمز) برسالة يدعوه فيها إلى الإسلام، إلا أن ازدراء الكبرياء الفارسي للعرب - قديماً وحديثاً - جعله يسخر من الرسالة، ومرسلها - صلى الله عليه وسلم-، فمزق كسرى الرسالة، فدعا عليه رسول الله بأن يمزق الله ملكه كل ممزق. أجيبت دعوة النبي الكريم، ومزق الله ملك فارس. وأخبر النبي - صلى الله عليه وسلم - أن فارس نطحة أو نطحتين، أي معركة أو معركتين وتسقط فارس. وبالفعل سقطت فارس في القادسية وجلولاء ونهاوند، ولم تعد لها قوة ودولة، كما كانت عليه من قبل.

ويتجلى موقف النبي الكريم محمد - صلى الله عليه وسلم- من عمر بن الخطاب، في مثل قوله: [لقد كان فيما قبلكم من الأمم ناس محدَّثون، فإن يكن في أمتي أحد فإنه عمر]، ومعنى محدَّثون: أي ملهم، وقيل هو الرجل الصادق الظن، وقيل من يجري الصواب على لسانه من غير قصد. وقد قال النبي - صلى الله عليه وسلم-: [إن الله جعل الحق على لسان عمر، وقلبه]. كذلك أخبر النبي - صلى الله عليه وسلم- أن: [لو كان نبي بعدي لكان عمر بن الخطاب]، ففي هذا إبانة عن فضل ما جعله الله لعمر - رضي الله عنه- من أوصاف الأنبياء، وخلال المرسلين.

وقال الصحابي ابن مسعود عن إسلام عمر: إن إسلام عمر كان فتحاً، وإن هجرته كانت نصراً، وإن إمارته كانت رحمة، ولقد كنا ما نصلي عند الكعبة حتى أسلم عمر، فلما أسلم

قاتل قريشاً، حتى صلى عند الكعبة، وصلينا معه. وقال: "ما زلنا أعزة منذ أسلم عمر". قال شيخ الإسلام ابن تيمية عن قاتل عمر بن الخطاب - رضي الله عنه-: "وأبو لؤلؤة كافر باتفاق أهل الإسلام، كان مجوسياً من عباد النيران... فقتل عمر، بغضاً في الاسلام وأهله، وحباً للمجوس، وانتقاماً للكفار، لما فعل بهم عمر حين فتح بلادهم، وقتل رؤساءهم، وقسم أموالهم...". وقد ساغ لكثير من الفرس أن يعتنقوا المذهب الشيعي، على خلفية البغض للعرب، واكتسى ذلك البغض العنصري بلون ديني، يصور جمهور العرب بأنهم تآمروا على الرسول - صلى الله عليه وسلم-، وعلى أهل بيته. فتدخلت العصبية المذهبية، مع العصبية القومية الفارسية، الأمر الذي يؤدي إلى تطرف بالغ يقترب من الهوس.

وفي هذا السياق، يقول المستشرق البريطاني (أدوار براون) (المتوفى سنة١٩٣٠م)، في كتابه (تاريخ الأدب في إيران): إن من أهم أسباب عداوة أهل إيران للخليفة الراشد الثاني عمر: "هو أنه فتح العجم، وكسر شوكتهم، غير أنهم (أي أهل إيران) أعطوا لعدائهم صبغة دينية مذهبية، وليس هذا من الحقيقة بشيء...".

وهذا الحقد على عمر بن الخطاب - رضي الله عنه-؛ لأن عمر هو الذي فتح بلاد إيران برمتها، التي كانت تتضمن أقاليم عديدة تضم أكثر من حدود عشرة دول معاصرة، وأطفأ النار المجوسية، التي كانت متقدة لمئات السنين، وأوصل لها الإسلام. واعتبر الفرس يوم قتله على يد الفارسي المجوسي (أبا لؤلؤة) عيداً من أعظم أعيادهم (=عيد بابا شجاع الدين)، ويعتبرون الزنديق (أبا لؤلؤة المجوسي) الخبيث مسلماً من أفضل المسلمين.

كان الخبيث أبا لؤلؤة المجوسي يمسح على رؤوس الصبيان الفرس، ويقول: أكلت العرب كبدي، أكل عمر كبدي.

وقال عمر - رضي الله عنه-: "وافقت ربي في ثلاث: في مقام إبراهيم، وفي الحجاب، وفي أسارى بدر".

لقد تم فتح كثير من البلاد في عهد عمر بن الخطاب - رضي الله عنه-، ففتح بيت المقدس على يده، وفتحت دمشق، وبلاد الشام، والموصل، وبلاد الفرس، والترك، ومصر، والمغرب العربي. وعرف عمر كيف يسوس الناس بكتاب الله وسنة رسوله.

وبشأن إرسال الجيوش إلى فتح العراق، وفي الأول من محرم سنة ١٤هـ، ركب عمر بن الخطاب في الجيوش، من المدينة، عازماً على غزو العراق بنفسه، ولكنه استصوب رأي بعض الصحابة في أن يبعث رجلاً، ويرجع هو إلى المدينة، لما في ذلك من المصلحة للمسلمين. ولما

سأل عمن يبعث إلى العراق، قيل له: الأسد في براثنه: سعد بن مالك الزهري، فاستجاد قولهم، وأرسل إلى سعد، فأمّره على العراق. فسار سعد إلى العراق في أربعة آلاف، وقيل أكثر، ولما وصل إلى محلة الجيوش في العراق، انتهت إليه رياستها وإمرتها، ولم يبق بالعراق أمير من سادات العرب إلا تحت أمره. وأمده عمر بإمداد آخر، حتى اجتمع معه يوم القادسية ٣٠ ألفاً. وقال عمر: والله لأرمين ملوك العجم بملوك العرب. وبعث عمر كتابه إلى سعد بن أبي وقاص، يأمره بالمبادرة إلى منطقة القادسية، والقادسية باب فارس في الجاهلية، وأن يكون بين الحجر والمدر، وأن يأخذ الطرق والمسالك على فارس، وأن يبدروهم بالضرب والشدة، ولا يهولنهم كثرة عددهم، وعُدَدهم، فإنهم قوم خدعة، مكرة. وأمره بمحاسبة نفسه، وموعظة جيشه، وأن يكثروا من قول: (لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم)، وأن يوافيه بجميع أحواله، وتفاصيلها، كأنه ينظر إليه. فأطاع سعد أمر عمر، ونفذ كل ما أمره إليه، وكتب إليه يخبره بأن الفرس قد جردوا لحربه (رستم)، وأمثاله. وكتب إليه عمر بأنه قد ألقي في روعه أنهم سيهزمون الفرس، فإذا هزمتهم، فلا تنزع عنهم حتى تقتحم عليهم (المدائن)، فإنه خرابها، إن شاء الله. وجعل عمر يدعو لسعد خاصة، وللمسلمين عامة.

وتم النصر للجيش الموحد الإسلامي، وهزم الفرس شر هزيمة، وسقطت إمبراطوريتهم الفارسية الساسانية، وقتل ملكهم (يزدجرد) على يد أحد رعايا الفرس، في منطقة (خراسان) عام٣١هـ/٦٥١م.

أولاً: الجذور التاريخية القديمة للحملة على عمر بن الخطاب:

من دون شك، فإن الصراع السني – الشيعي، في العصور العباسية المتأخرة، وتحديداً العصر البويهي (٣٣٤ – ٤٤٧هـ)، والعصور التي تلته، كان له دور كبير في تغذية الحملة الشديدة على الخليفة الراشدي الثاني، وإطلاق التسميات غير اللائقة على حضرته، وعلى بقية الصحابة الكبار، وأمهات المؤمنين - رضي الله عنهن-. وفي الحقيقة، فقد كان سب الشيعة - وتحديد العناصر الشعبية منهم، والذين تسميهم بعض المصادر بالجهلة- للصحابة يمثل الشرارة الأهم، والأكبر، لعمليات الصدام المذهبي بين الطرفين. فقد أثارت عمليات السب هذه، حفيظة أهل السنة، وبخاصة العوام منهم، الذين دفعتهم العاطفة للندب على صحابة رسول الله - صلى الله عليه وسلم-". (ابن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر في ايام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر، ج٣، ص١٧٢، ج٤، ص٢٩).

فقد كانت العناصر الشيعية - في أغلبها - تسب أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم-، "وتصب جام غضبها عليهم، وعلى زوجات الرسول - صلى الله عليه وسلم -، تحديداً السيدة عائشة. فمنهم من كان يقذف ويشتم بأفظع الشتائم، ومنهم من كان دون ذلك، يطعن وينال منهم. فقد استحب غالبيتهم، وأوجب بعضهم، ضرورة لعن أبي بكر وعمر وعثمان ومعاوية، والعديد من الشخصيات المكروهة لدى النفسية الشيعية، ولعنهم بأسمائهم، عقب كل صلاة". (محمد عمارة، فتنة التكفير بين الشيعة والوهابية والصوفية، ٢٠٠٦م، ص٧٦).

وقد اتخذ السب طرقاً، تدل بامتياز على العقلية الشعبية؛ من نكاية وعناد، فكانت بعض الممارسات السلبية، والشاذة، التي عبرت – أيضاً - عن هذا السياق، والتي من الممكن أن توصف بأنها بالغة في التطرف. وهناك نص تاريخي يعبر عن ذلك الطرح، من أن رجلاً شيعياً ببغداد، كان لديه (بغلان)، فسمى الأول باسم أبي بكر، والثاني باسم عمر. (ابن خلكان، وفيات الأعيان، ١٩٦٨م، ج١، ص٢٠٥),

وكذا ما قام به – أيضاً - بعض الشيعة في العراق، بإحضار نعجة حمراء، أسموها عائشة، وأخذوا ينتفون شعرها. وعمد آخرون إلى تسمية دوابهم باسماء أبي بكر وعمر، ويضربونها بغير حق، ويعذبونها، ويحرمونها من الطعام والشراب، معتقدين أنها تحمل أرواح أبي بكر وعمر - رضي الله عنهما-. وكذلك – أيضاً - كانوا يضربون النعجة التي يسمونها باسم عائشة، معتقدين أن روح (أم المؤمنين) السيدة عائشة - رضي الله عنها- قد حلت في هذا الحيوان المسكين، حسبما اعتقدوا. (ابن تيمية، منهاج السنة،ج١، ص٨٥).

ومن العادات السلبية – أيضاً - المرتبطة بهذه الممارسات الشاذة، هي عادة كتابة أسماء الشيخين أبي بكر وعمر على كعبي القدمين. (محمد فياض، التشيع الشعبي في العراق، ٢٠١٦، ص٧٧)، فضلاً عما كان يقوم به البعض الآخر من سلوك شاذ، فكان بعضهم يسمون كلابهم بأسماء أبي سفيان، ومعاوية. وكان ذلك في ذهنياتهم نوعاً من الثأر للحسين، وكل من قتل من العلويين. وبصفة عامة، فقد كانوا يبغضون الأسماء ذات العقد التاريخية القديمة، فيبغضون من كان اسمه (أبو بكر)، أو (عمر)، ويكون بعضهم أقرب - معنوياً - للعنصر الشيعي الشعبي، فقط لأن اسمه علياً، حتى لو كان سنياً. (ابن تيمية، منهاج السنة، ج١، ص٨٢)، (خالد علال، التعصب المذهبي، ص١٨).

وهناك حادثة أخرى تعبر – أيضاً - عن تلك الممارسات الشعبية السلبية، والتي تتعلق بذلك المنحى، وهي ما حدث في بغداد سنة ٥٨٢هـ/ ١١٨٦م، عندما أحيا الشيعة مناسبة عاشوراء، فكان ما فعلوه أن سبوا أبا بكر وعمر وعثمان وطلحة والسيدة عائشة، وكانوا

يصيحون قائلين (ما بقي كتمان). وكانت فيهم امرأة تنشد لهم الأشعار في ثلب الصحابة، فسبت السيدة عائشة، وقالت: "العنوا راكبة الجمل، وذكرت حادثة الإفك بأقبح الشناعات...".(سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، ١٩٨٧م، القسم الأول، ج١، ص٣٨٦). ولم يقتصر الأمر على ذلك فقط، بل زاد نطاقه، وتطور، ليأخذ شكلاً أشكال الحرب الدعائية، عبر استخدام دور العبادة، للتعريض بالصحابة، وكتابة الشتائم واللعنات على جدران المسجد. ولم يقف أهل السنة مكتوفي الأيدي، وإنما عمدوا إلى إزالة تلك الكتابات، وكتبوا - عوضاً عنها - لعن الله الظالمين لآل محمد؛ من الأولين والآخرين، ...". (محمد فياض، التشيع الشعبي في العراق، ٧٧ – ٧٨).

ويبدو أن إيمان الشيعي بالسب قد وصل إلى درجة كبيرة من درجات الإيمان، لدرجة أن بعض الذين قاموا بهذه الممارسات، التي لم يتبرأوا منها في كثير من الأحيان، حتى واجه بعضهم في كثير من الأحيان عقوبة القتل، وكان من الممكن أن ينجو من ذلك في حالة الإنكار. (التنوخي، نشوار المحاضرة، ج٦، ص٦٤).

وفي السياق ذاته – أيضاً - ما روي عن أحد العوام من الشيعة، الذي آمن إيماناً قوياً بتلك القضية، فكان يسب الشيخين (أبا بكر، وعمر). ويبدو أن ذلك الإيمان بتلك الممارسات السلبية، قد تمكن قوياً من ذهنية الشيعي، وقلبه، لدرجة أنه قال لأحد أصحابه: لو أن لي رجلاً يضمن لي عيالي، لتكلمت في أبي بكر وعمر أمام الناس، فضمن له صاحبه التكفل بعياله، فقام الأول وسب الشيخين، فقام عليه الناس وضربوه حتى الموت". (ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٤، ص٤٠٩).

إن ما سبق وعرضناه من نصوص، يدلل لنا دلالة قاطعة إشكالية مهمة، حيث تعرض لنا موقفين مختلفين، موقف رجل بسيط، إيمانه الأكبر هو سب الصحابة، ومشكلته الأكبر اقتصادية، تتعلق بإعالة أولاده وأسرته. أما الآخر، فهو المستمع الذي يستطيع أن يكفل عائلة أخرى، إذن فنحن أمام رجل ميسور من رجال الشيعة، لم يردع ذلك الرجل البسيط، بل استحثه للقيام بذلك، مغرياً إياه بكفالته لأسرته. وكان نتاج ذلك الأمر، مصرع الرجل العامي، نتيجة ما آمن به جداً، وأيضاً نتيجة هروبه من فقر وواقع اجتماعي مرير، وأسرة لا يستطيع كفالتها. وهكذا راح العوام ضحية أفكار شاذة، ومشوهة، آمنوا بها، رغم عدم فهمهم لأبسط أبجديات القضية، وكذا ضحية أشخاص ساهموا في الدعم المادي والمعنوي للأمر، مستغلين البسطاء، وحاجاتهم، وضحالة أفكارهم. (محمد فياض، التشيع الشعبي في العراق، ص٧٨ – ٧٩).

ثانياً: الجذور التاريخية الحديثة للحملة على عمر بن الخطاب:

لقد تطرقت إحدى تقارير المنصرين(= المبشرين) إلى سيرة حياة سعيد بن ملا رسول (= سعيد كوردستاني) إمام أحد مساجد مدينة (سنندج) - عاصمة كوردستان إيران -، وشقيقه (خاخا)، ومسقط رأسيهما في مدينة (سنندج)، وكيف تمكنت إحدى إرساليات من قنصه، مع شقيقه (خاخا)، وإدخالهما في النصرانية، بعد جهود طويلة استمرت سنوات من العمل الدؤوب، ومن ثم تهريبهما إلى مدينة (همدان)، في غرب إيران، وتسليمهما إلى مبشرين ذوي خبرة. "في شمال غرب إيران يقع إقليم في الطرف الشرقي من هلال يُدعى (كوردستان)، يجاور شمال العراق، وجنوب شرق تركيا، يسكنه شعب الأكراد، وهم من سلالة الآريين، الذين احتفظوا إلى حد كبير بصلات القبيلة، واللغة، والعادات. وهم سلالة صلبة، قوية، اشتهروا في الماضي بكرم الضيافة، والتعصّب الديني، والخصال الحربية. والجزء الخاص من كوردستان الواقع في إيران، هو أحد الأقاليم الأربعة عشر الرئيسية التي تتكوّن منها إيران. وهو يقع في قلب سلسلة جبال الزاغروف، التي تجاور العراق. وهي أرض رائعة الجمال، تكسو الثلوج قممها، وتجري فيها روافد وأنهار تعجّ بالمياه، وتتخلّلها أوديةٌ خضراء، تكلّلها أزهار ونباتات الربيع. والمدينة الرئيسية في كوردستان هي (سناج)، أو (سنة)، كما يلفظها العامة، وهي عاصمة الإقليم، ومركز التجارة للقرى المجاورة، يلتقي فيها علماء الإسلام، وأساتذة الفقه. (جاي رسولي بن محمد رسولي، أخوان من كوردستان، دهوك، مطبعة الحياة).

ويتطرق المرجع التنصيري إلى الأحوال الدينية والاجتماعية لأسرة الملا رسول، إمام أحد مساجد مدينة (سنندج)، فضلاً عن اتهام أهلها بالتعصب: "في هذه المدينة المتعصّبة، في القرن التاسع عشر، سكن رجلٌ اسمه (رسول)، مع عائلته، في بيت صغير، يتكوّن من ثلاث غرف. وكان هو السابع في عائلة اشتهرت بولائها للإسلام، ولذلك كانوا يدعونه (رسول المُلّا)، ومعناه الإمام رسول. وكان مصدر رزقه، هو وعائلته، كتابة صلوات للمرضى، كما كان يعالج كل أنواع المرض، ويلقّن المشرفين على الموت كيف يجيبون الملاكين عندما يحضران لاستجوابهم، حسب تعاليم الإسلام، ويعلّم أهل بلده أصول دينهم ومعتقداتهم. وكان يدير مدرسة تضم نحو عشرين، أو ثلاثين صبياً، يعلّمهم الفارسية والعربية. وكان يؤمّ الصلاة يومياً في مسجد القرية، ويذهب بين حينٍ وآخر لزيارة مستعمرة للبرص، خارج المدينة، غير خائف من العدوى، كما كان يعزي البؤساء في محنهم. وكان للمُلاّ رسول، وزوجته، ثمانية أولاد، مات أحدهم بعد الآخر، ولم يبقَ منهم سوى اثنين: أكبرهما محمد، والثاني سعيد، الذي يصغر محمداً بثمانية أعوام. وحسب التقاليد والعادات الكردية كان سعيد الأصغر،

لا يخاطب أخاه محمد بالاسم، بل يدعوه خاخا، أو الأخ باللغة الكوردية. وتبعاً لذلك عندما انتقلا إلى منطقة أخرى لا يعرف أهلها اللغة الكوردية، وكانوا يسمعون سعيداً يدعو أخاه: (خاخا)، حذوا حذوه، فكان كل واحد يعرفه باسم (خاخا). ولهذا السبب سنُطلق عليه هذا الاسم. ومع أنهما أخَوان شقيقان، إلا أننا نرى فرقاً كبيراً في اسميهما، لأنه في تلك الأيام الخالية كان لكل إنسان اسمٌ واحد. ولكن عندما تقدم الأخَوان في العمر، طلبت الحكومة من كل رعاياها أن يختاروا اسماً للعائلة، فاختار (خاخا) اسم والده، بينما اختار سعيد اسم الإقليم الذي يسكنه، وأضاف كل واحد ياء النسب للدلالة على الأصل، فأصبح اسم الأخوين: محمد رسولي، وسعيد كوردستاني. (جاي رسولي بن محمد رسولي، أخوان من كوردستان، المرجع السابق).

وبشأن وفاة الملا رسول، وتركه لولدين، يقول التقرير التنصيري: "وفي عام ١٨٧٦م مات المُلاّ رسول، تاركاً ابنه (خاخا)، البالغ الحادية والعشرين من العمر، رئيساً للعائلة. وكان عمر سعيد ١٣ سنة وقتئذ، لكنه كان قد اكتسب إلماماً مدهشاً باللغتين الفارسية والعربية، كما كان يعرف القرآن معرفة جيدة، حتى أن الناس الذين اجتمعوا في حفل تأبين المُلاّ رسول، خلعوا على سعيد لقب المُلاّ، واختاروه خلَفاً لأبيه للتدريس في المدرسة. وإذ صار (خاخا) رئيساً للعائلة، أصبح مسؤولاً عن إعالتها، لذلك ترك مواصلة دراساته، وصار يكتسب قوته وقوت العائلة من تلاوة القرآن علَناً في الأضرحة، وعند القبور. وكان خاخا، وسعيد، من المسلمين الغيورين في معقل التعصب، حيث كانا يسكنان، فكانا يواظبان - بكل أمانة واجتهاد - على الصلاة في المساجد، وعلى ممارسة فروض الصلوات الخمس يومياً، وفي الصوم قطعياً عن الطعام والشراب، من الفجر إلى الغروب، مدة شهر رمضان، كما تتطلب الشريعة الإسلامية.

وكانت الإرساليات التنصيرية البروتستانتية، والكاثوليكية، قد وفدت إلى إيران، اعتباراً من العصر الصفوي(١٥٠١ – ١٧٣٦م)، بسبب العلاقات الجيدة بينهم وبين الأوروبيين، المعادين لعدوهم اللدود الدولة العثمانية. وقد استمرت هذه الإرساليات تترى في العصرين الأفشاري والزندي، وانتهاءً بالعصر القاجاري (١٧٩٦ – ١٩٢٥م)، والبهلوي (١٩٢٥ – ١٩٧٩م). "وفي عام ١٨٣٤م كان قد جاء إلى إيران مرسَلون بروتستانت، للعمل بين الآشوريين(= النساطرة – أتباع كنيسة المشرق)، في مدينة (يروميا) (= رضائية – أرومية)، الواقعة في الركن الشمالي الغربي من البلاد. وفي خلال أربعين عاماً من العمل المرسلي، رسّخت الحركة البروتستانتية أقدامها في (يروميا)، ومجاوراتها، بكنائس ومدارس في المدينة والقرى المجاورة. وتدرّب قسوسٌ، ومعلّمون، وصاروا يرسلون مبشرين، وموزعي

كتب مقدسة، إلى المدن الأخرى. وفي عام ١٨٧٩م (لما كان عمر خاخا ٢٤، وعمر سعيد ١٦) وصل إلى مدينة (سناندج) (= سنندج) القس يوحنا، مع اثنين من موزعي الكتاب المقدس، لتوزيع الكتب المقدسة، وليشهدوا للإيمان المسيحي. وكان الموزِّعان ينويان قضاء فرصة قصيرة للزيارة، أما القس يوحنا فكان قد عزم على البقاء مدة طويلة، لأنه كان يريد أن يحسِّن معرفته باللغة الفارسية. فأخذ يبحث عن معلّم، فقدَّموا له (سعيداً)، وبعد أن أخذ سعيد إذناً من خاخا، بوصفه رئيس العائلة، قبِل المهمة، وكان الكتاب المقرر للدراسة هو الكتاب المقدس.(المرجع نفسه).

وفي السياق نفسه، يذكر التقرير حول محاولة سعيد كوردستاني البحث عن أصول أهل الحق (يارسان): "ولم يكن بحثه عن الحق قاصراً على ميادين الطب والإيمان المسيحي. بل - بما أنه من أصل كوردي - كان يهتم أعمق اهتمام لمعرفة (أهل الحق)، أو (علي الإلهي)، وهو مذهب يُعتبر بدعة في الإسلام، نشأ في كوردستان. وقد قرأ مقالة ضليعة عن هذا الدين الغريب، في المؤتمر المرسلي، الذي عقد في طهران عام ١٩٢٦م. وكان بعض البابيين الأوائل، ومنهم الباب نفسه (= الأصح: بهاء الله)، بين مرضاه، وأصدقائه، فأتاح ذلك له معرفة وثيقة قريبة بنشأة حركة بابي بهاء (= البابية، والبهائية)، وجمع قدراً كبيراً من المعلومات الثمينة النادرة، والمخطوطات البابية المكتوبة باليد، من مصادرها الأصلية. وكثير من هذه الكتب، والمخطوطات الثمينة، موجودة الآن في مكتبة (جامعة برنستون) (= في الولايات المتحدة الأمريكية). لكنه لم يجد في هذه الأديان جميعاً، شيئاً يمكن أن يُقارن بالكنوز التي وجدها في المسيح.(المرجع نفسه).

وكان جل ثقافة المنصر سعيد كوردستاني تعتمد على كتابين، يرجع إليهما غالبية المنصرين؛ الكتاب الأول: (ميزان الحق)، لمؤلفه (كارل غوتليب فاندر) (1803-1865)، وهو منصر (مبشر) مسيحي ألماني، وأحد مبشّري طاقم بعثة بازل التبشيرية في آسيا الوسطى والقوقاز، ومن خطباء جمعية الكنيسة التبشيرية إلى شمال وغرب مقاطعة أجرا (= أغرة)، في ولاية (أتر برديش)، شمالي الهند . كان معروفًا بتنصير المسلمين إلى المسيحية. قام بتأليف كتب، أشهرها: ميزان الحق، والاعتذار، وملاحظات عن الطبيعة المحمدية. لكن سرعان ما ناظره العالم المسلم الهندي الكيرواني (١٨١٨ – ١٨٩١م) - رحمه الله -، حيث لم يستطع الإفلات من مواجهته، وهرب على إثرها إلى (استنبول)، عاصمة الدولة العثمانية. وقد لاقت المناظرة رواجاً، واندلعت بعدها الثورة الهندية عام١٨٥٧م.

والكتاب الثاني (مصادر الإسلام)، لمؤلفه (تيسدال وليم سكلير)(١٨٥٦ – ١٩٣٨م)، وهو منصر ومؤرخ بريطاني، شغل منصب أمين كنيسة إنكلترا في جمعية التبشير في أصفهان،

وبلاد فارس. وقد شرع في كتابه (مصادر الإسلام)، الذي ألفه عام ١٩٠٥م، في مهاجمة ضارية للإسلام، ورسوله، ونصه المقدس، في مقابل دفاع مستميت عن المسيحية، ورموزها، ونصوصها. وكان هذا الكتاب محل تبنٍ واجترار لمستشرقين آخرين، جاءوا لاحقاً، لتُشكِّل توجهًا راسخًا بدرجة كبيرة، يتمحور حول محاولات إثبات أن النص القرآني ليس وحيًا إلهيًا، وإنما هو تأليف بشري، أنجزه النبي محمد - صلى الله عليه وسلم-، مُستفيدًا وناقلًا من الحضارات، والديانات، التي عاصرها، أو السابقة له، مثل اليهودية، والنصرانية، والصابئة، والمجوسية؟.

وتجدر الإشارة إلى أن الطبيب سعيد بن ملا رسول، الملقب بـ (سعيد خان كوردستاني)، كان قد غادر مدينة (سنندج) سنة ١٨٨١م، بصورة سرية، إلى مدينة (همدان)، و تنصر هناك رسمياً سنة ١٨٨٧م، بتعميده من قبل المبشر الأمريكي الدكتور (الكساندر)، واستقر في مدينة (همدان)، إلى أن مات فيها عام ١٩٤٢م. وكان له دور في اكتشاف ثلاثة وثائق مدونة، عثر عليها في كهف (كوه- سالان)، في منطقة جبال هاورامان التابعة لشهرزور، اثنتان منها كتبتا بالحروف اليونانية الكلاسيكية، والثالثة دونت بالخط الآرامي القديم، عندما زار منطقة هاورامان في إحدى زياراته المكوكية، بقصد علاج أحد سلاطين المنطقة. وهي عبارة عن ثلاث صكوك بيع بستان كروم (باغ- رز-Bag-Reza).

وقد نشرت الوثيقتان الأوليتان في مجلة الدراسات الهيلينية، عام ١٩١٥م، من قبل البروفيسور (مينس MINS). أما الثالثة، فقد نشرها السيد (كاولي A. COWLEY)، في مجلة (الجمعية الآسيوية الملكية البريطانية)، عام ١٩١٩م. ويعتقد بأن جميع هذه الوثائق ترتقي إلى العصر الفرثي (الأشغاني – ملوك الطوائف).

وغني عن القول أن الطبيب سعيد كوردستاني، قد تعاون مع الباحث الكوردي الإيراني الآخر: الدكتور غلام رضا رشيد ياسمي (١٨٩٦-١٩٥١م)، الذي ينتمي إلى عشيرة الباجلان الكوردية، ومن أتباع المذهب الشيعي الغالي (العلي إلهية -أهل الحق – اليارسان)، في تزوير الوثائق الأصلية الخاصة ببيع بستان العنب، المار الذكر آنفاً، وانتحال وثيقة جديدة مزورة؛ ولكنه لغرض الانتقام من الإسلام، والدعاية للنصرانية، زعم أن الوثيقة الأصلية عبارة عن أبيات شعرية مدونة باللغة الكوردية – اللهجة الكرمانجية الجنوبية – السورانية، تخص وقائع انتشار الإسلام في كوردستان، وكيف أن المسلمين الفاتحين قتلوا زعماء الزرادشتيين، واطفأوا النيران المجوسية، ودمروا معابدهم، ونهبوا ممتلكاتهم، وسبوا نساءهم!

تهدَمت معابدُ هرمز، وأخمدت النيران
واختفى أحد أكبر الزعماء
لقد هزموا الأكراد
وانسحب الأكراد إلى حدود شاهريزور
ووقع في الأسـر النساء والفتيات
قتل الأبطال في الكمائن
وظل قانون – ملك – زرادشت لا حول له ولا قوة
ولم يعد لهرمز الشفقة لأي شخص

وقد تعاون هذان الشخصان في انتحال هـذه الوثيقـة لتشـويه سـمعة الإسـلام، كـما هـو ديـدن الحركـات التبشـيرية (=التنصـيرية)، التـي تحـاول جاهـدة الاسـتفادة مـن شـبهات المستشـرقين والمنصـرين، وتوظيفها في خدمة مشـروعها القـاضي بتنصـير المسـلمين، وخلـق فجوة بين الأمم الإسلامية .

كما لا يمكن نسيان إسهام (رشـيد ياسـمي) في هـذا المخطـط، بحكـم عقيدتـه الباطنيـة، وارتباطه المشبوه بمخطط الشاه الإيراني رضا بهلوي(١٩٢٥ -١٩٤١م)، حيث تنسـب للعمـل في (جامعة طهران) كأستاذ، اعتباراً من سنة ١٩٣٤م، وكان يحاول هو الآخر الدعاية لأفكـار الشاه حول توحيد الأمم الآرية تحت رايته، واعتبار المجوسية الـدين القـديم لهـذه الأمـم، وأنه يجب إحياؤه مـن جديـد، ومحاولـة إخـماد الحركـة الوطنيـة الكورديـة في كوردسـتان إيران، من خلال ربط تاريخ الكورد بتاريخ الفرس!! فلا عجب أن تلاقت أفكـار الـرجلين في انتحال هذه الوثيقة؛ مهمة المبشـر الطبيب (سعيد خان) تتجلى في تشويه سـمعة الإسـلام، وكيف أنه انتشـر عن طريق السيف، الذي أدى إلى تدمير مقدرات الشعب الكوردي!، فيما كانت مهمة الأسـتاذ (رشـيد ياسـمي) تـذهب إلى الدعايـة للديانـة المجوسـية مـن ناحيـة، وتشويه سمعة الإسلام، من ناحية ثانية، وتحديداً الخليفة الراشد الثاني عمر بـن الخطـاب، على أساس أن الفتح الإسـلامي للهضـبة الإيرانيـة، ولكوردسـتان، جـرى في عهـده، وهـو مـا أودعه في كتابه المؤلـف باللغـة الفارسـية (كـرد وبيويسـتكي نـزادى وتـاريخى) (= الكـورد وروابطهم العرقية والتاريخية) (الصفحة ١٢٠)، وادعى فيه بأنها تنسـب إلى كهـف يقـع في جنوب جيشانة، في كهف هزار ميرد (= كهف كبير يقع على بعد عدة كيلـومترات في سـفح الجبل الواقع جنوب غرب مدينـة السـليمانية)، وهـذا الكتـاب مخصـص في غالبيتـه لكيـل المدح والفخر للأسـرة الساسانية، التي أعادت الاعتبار للديانة الزرادشتية، واعتبرتها الديانـة الرسمية للدولة، في عهد عاهلها (أردشير بن بابك بن ساسان) (٢٢٤- ٢٤٢م).

ولما كان المؤرخ والصحفي الكوردي الناشئ (حسين حزني الموكرياني)(١٨٩٣ – ١٩٤٧م)، من أهالي مدينة (مهاباد) الإيرانية، يحاول ملء حلقات مفقودة من تاريخ الشعب الكوردي، وكعادته في نشر مثل هذه الروايات دون تمحيص، أو دون الإشارة إلى المصدر الذي نقل منه، فقد نشر هذه الوثيقة المزورة المنتحلة في مجلته (زاركرمانجي)، العدد ٢١، في ٦ نيسان ١٩٣٠م، التي كانت تصدر في مدينة (رواندوز). ولم يدر بخلده بأنها تشوه صورة الإسلام، دين غالبية الكورد بني قومه. ومن ثم، فإن العديد من الكتاب؛ الكورد والفرس، نقلوا هذه الوثيقة في مؤلفاتهم، نقلاً عن رشيد ياسمي، دون التحقيق من مصدرها الأصلي، أو التحقق في مدى وجود هذه الوثيقة أصلاً.

وقد تبنى بعض المستشرقين هذا الرأي، ومنهم الفرنسي الدومنيكي (توماس بوا) (١٩٠٠ – ١٩٧٥م)، في كتابيه (تاريخ الاكراد)، و(الكورد والحق)، فذكر قائلاً: "غير ان هذا الاحتلال (الفتح الإسلامي) كان بعيداً لجعل هذا البلد إسلامياً بالكامل، فقد اصطدمت جيوش الخليفة عمر، مع أكراد الأهواز، ولم يكن ذلك دون إراقة الدماء، حيث استولت على (شهريزور Chahrizor) عام ٦٤٣م، وعلى (برود Prud)، و(بالاسجان Balascan) عام ٦٤٥م، وإن ذكرى هذا الاعتناق العنيف، والشاق، مذكورة في نص تمت قراءته قديماً! غير أن المستشرق البر يطاني (ديفيد نيال ماكينزي Mackenzie) (١٩٢٦ – ٢٠٠١م)، المختص باللغات الآرية، ومنها الكوردية، شكك في صحة هذا النص (الوثيقة المزورة).

ويسأل الباحث هنا سؤالاً: لماذا غفل هؤلاء عن تلك الحملة العسكرية الكبيرة التي قادها الامبراطور البيزنطي هرقل(٦١٠ -٦٤١م)، لمطاردة القوات الفارسية الساسانية، خلال المنطقة الكوردية، عام ٦٢٨م، والتي بقيت المنطقة بسببها تحت السيطرة البيزنطية حتى سنة ٦١٩م؟ وكيف أنه قضى على قدس الأقداس المجوسية (معبد بيت النار آذركُشناسب)، الواقع في مدينة (شيز)، جنوب شرقي مدينة (أورميه)، في كوردستان إيران، حيث ثأر من انتزاع الصليب (المقدس) من كنيسة القيامة، في مدينة (إيليا كابيتولينا) (= القدس)، من قبل الجيش الفارسي!، وكانت منطقة (شهرزور) قد تعرضت لتخريبات وعمليات نهب كبيرة، من جراء تلك المعارك الطاحنة بين الدولتين الفارسية الساسانية والرومية البيزنطية، وقد قضى الإمبراطور (هرقل) شهر فبراير /شباط سنة ٦٢٨م فيها، ولم يترك مدينة أو قرية في هذه المنطقة الكوردية إلا وأعمل فيها يد النهب والسلب والتدمير، ثم توجه نحو منطقة أردلان، في كوردستان إيران.

وهذا العصر الذي وجدت فيه الوثيقة المزعومة، يسبق عصر الفتوحات الإسلامية بأكثر من ثمانية قرون، فضلاً أن وثائق هاورامان مدونة باللغتين الآرامية واليونانية، أما الوثيقة المزعومة، فهي مدونة باللغة الكوردية، لهجة منطقة هاورامان. وعند دراسة اللغوي الكوردي الدكتور (كامل حسن البصير) لهذه الأبيات الشعرية، وجد - من خلال النقد الداخلي لها - بأنها منحولة، "اصطنعها بعضهم من اللهجات الكوردية المعاصرة، لغرض ما".

كما أن أقدم نص شعري كوردي وصل إلينا، هو ما نسب إلى الشاعر (بابا روح الهمداني)، الذي عاش في القرن التاسع الميلادي/ الثالث الهجري، وتوفي سنة ٨٤١م، رغم الشكوك التي تساور هذه المعلومة، على أساس أن الباحثين الإيرانيين يعدونه شاعراً فارسياً، أو على أقل تقدير شاعراً لُرياً، وأن العديد من المستشرقين الأوربيين، والباحثين الفرس، لا يعدون اللور من الكورد، رغم أن البلداني الإسلامي (ياقوت الحموي) (المتوفى سنة٦٢٦هـ) أدخلهم ضمن الجنس الكوردي في كتابه: معجم البلدان، المجلد الخامس.

وفي السياق نفسه، لا يمكن نسيان طروحات الكاتب الإيراني الدكتور (محمد إبراهيم باستانى باريزى) (١٩٢٥ – ٢٠١٤م)، المشهور بكتاباته بالأسلوب القصصي التاريخي السهل المبسط، حيث جذبت إليها قراء كثيرين، منها: قوله بأن أبا لؤلؤة الفارسي كان من سكان مدينة (نهاوند)، وأنه كوردي الأصل. وقد اقتبس أحد الباحثين الكورد العراقيين هذه المعلومة دون تمحيص، وصنع منها سردية كاملة، فحواها أن (أبا لؤلؤة)، البطل النهاوندي الفيلي، قتل (عمر بن الخطاب)، انتقاماً لشهداء وسبي (معركة جلولاء)! ولم يدر بخلد الباحث الإيراني (إبراهيم باستاني باريزى)، ولا الباحث الكوردي العراقي، أن مدينة (نهاوند) كان سكانها - في صدر الإسلام - خليطاً من الفرس والكورد، وأن (أبا لؤلؤة) كان فارسياً، بدليل أن شقيقه (أبو الزناد عبدالله بن ذكوان) الفارسي (٦٥ – ١٣٠هـ)، كان تابعياً. ولا يعقل أن يكون (أبو الزناد) فارسياً، وأن يكون أخوه (أبا لؤلؤة) كوردياً!؟.

ومن جانب آخر، لو لم يكن (أبو لؤلؤة) فارسياً، لما أقام الفرس الإيرانيون ضريحاً لقبره المزعوم في مدينة (كاشان)؟.

وبعد تفنيد هذه المزاعم، يلوح للباحث بأن القصد منها ما هو – إلا النيل من الدين الإسلامي، ورموزه، وتشويه صورة الفتوحات الإسلامية للمنطقة الكوردية، في عهد الخلافة الراشدة - في الوقت الذي كان الكورد يعانون من شتى صنوف الأذى والاضطهاد والظلم على أيدي حكام الإمبراطوريتين الساسانية، والبيزنطية، اللتين كانتا تتقاسمان المنطقة لكوردية❐

عبق الكلمات

فقه القراءة

عبد الباقي يوسف
abdalbakiuosf@gmail.com

✍ الكلمة التي وردت إليك بواسطة صفحة بيضاء هي عالم بحد ذاته، عالم بتقلب فصوله، تماماً كالإنسان الذي يشكل كل فرد منه عالماً خاصاً به، فهي تحمل جزءاً من ماضيك وحاضرك ومستقبلك، بكونك حامل تاريخ ملايين البشر.

إنك هنا تحتاج إلى صفاء وركون وجهد كي تتعرف على هذه الكلمة، لأن كل جيل من سلسلتك البشرية حملها لغزاً وبصمةً وتحيةً إليك، فإن لم تتقن فنية فض غلاف هذه الكلمة، لن تقع على اللب المستقر في كوامنها، والذي ينبض في ثناياه ذاك التاريخ الحافل الذي انتهى بك.

فإن استعصى عليك أمر التعرف على الكلمة التي تنظر فيها، يمكن أن تتخذ منظاراً مكبراً يتيح رؤيةً أكمل في تمظهرات جسد الكلمة، في نقاطها، وحروفها، وهيكليتها، فتصغي آنئذ لحركاتها، وسكونها، وانفعالاتها، وموسيقاها.

ولا بأس أن تسكن الكلمة فتلقي بجسدك في فراشها، وتتوسد إحدى نقاطها، وفي البرد تلتحف حرفاً منها، وتداعبها، وتأتنس بها.

حينها ستداعبك وتأتنس بك، فتعوم ذراتُها مع ذراتك في فضاء النفس المنتشية برفقة ما تحب، حتى إنها في ذروة انسجام ذراتها مع ذراتك، تفضي الذراتُ للذراتِ ما لم تفض به لمخلوق غيرك.

وهذا يستغرق أياماً طوالاً، وإياك أن تركن لضجر، أو يستوطنك نفور من هذه العلائق في جسد وروح الكلمة. وتلافياً لكارثة كهذه، يمكن أن تنطلق إلى الطبيعة، بين حينٍ وآخر، للترويح، ولتجدّد روح العلاقة بينك وبين الكلمة، كذلك لإراحتها من سطوتك وهيمنتك عليها، ومن سطوتها وهيمنتها عليك، تلافياً لأي بؤرة تمرد عليك، أو الانفجار في روحك.

هذه الحميمية السحرية مع الكلمة الواحدة، تولّد حالة صفاء لانهائية في الذهن. فليس ثمة ما هو أرقى وأنقى من الإصغاء لموسيقى الأحرف من داخل الكلمة، عندها ستدرك أي شقي ذاك المغفَّل الذي يفوته الإصغاء والاستئناس بموسيقى الكلمات الطبيعية، فليس ثمة موسيقى في الكون أعذب منها على الروح، ولن تجد بدّاً من الرأفة

بذاك الشقي الذي يُمضي ساعات في قراءة آلاف الكلمات في ليلة واحدة، دون أن يبني علاقة روحية مع كلمة واحدة من تلك الكلمات المباركة التي تتطاير أمام ناظريه، نافرة من لا أدبه في الإفراط بحقه من الظفر بنعيمها.

فلو اكتفى هذا المفرط بقراءة صفحتين قراءة تدبرية من الداخل، لأغناه ذلك عن قراءة مئات الصفحات قراءة خارجية شكلية لفظية.

واعلم أن للتلقي عدة وجوه متفاوتة: يمكن أن تلقي نظرات تأملية في جسد الكلمات الموضوعة على الصفحة أمام ناظريك، ثم تمرر بصرك على الحروف حرفاً حرفاً، وتقف أمام إشارات وعلائم الترقيم والتشديد والتقطيع والتسكين والتلوين والتوصيل.

لا تدع كلمة دون أن تنظر فيها من الصفحة التي هي أمامك، وتكون في حالة من الصفاء الذهني لاستقبال نص أدبي وفني، وتذوّقه، وستكون حواسك خلال مدة النظرات التأملية قد استعدَّت لاستقبال غذاء الذهن والحواس والروح، فتشرع في تركيز عينيك وذهنك على السطر الأول من النص، وتمر على السطور سطراً سطراً مستوعباً معاني ومدلولات المفردات اللغوية.

هذا وجه من وجوه القراءة التأملية المفتوحة، ويمكن الولوج إلى وجه آخر، كأن تباشر في القراءة جملة واحدة، ثم تستريح أسبوعاً تراقب خلاله ما علق في ذهنك، فتعود مرة أخرى لإعادة القراءة قراءة معرفية تأملية، ثم بعد وقت غير محدد آخر تعود إلى النص قراءة ثالثة، متقطّعة، بغية استخراج عناقيد اللآلئ من جوف اللغة، بعد أن تكون قد تملَّكتها.

واعلم أن اللغة لا تهب لآلئها للقارئ الواهن الذي يبدو ضعيفاً أمام قوّتها، بَيدَ أنها تهب كنوزها المعرفية الثمينة لقارئ قوي، تبدو واهنةً أمام قوّته، وقد تملَّكها، وانتزع مبتغاه انتزاعاً من كوامنها.

على هذا المنوال ستنفرز النصوص إلى مقامات من تلقائية ثرائها أو خوائها، فتجد نصوصاً لا تستحق منك إضاعة وقت لإعادة قراءتها، وتجد نصوصاً تقف عندها في قراءتَين، وتجد نصوصاً تدعها نصف أو ربع مقروءة، وكذلك تجد نصوصاً ترجع إلى قراءتها مدى العمر، فلا ترتوي نفسك من قراءتها.

الذي لا يمتلك فقه القراءة، يصعب عليه أن يمتلك فقه الإصغاء، أو فقه المشاهدة، فكم من ناظرٍ إلى لب الطبيعة، وليس له فقه النظر، ولا علاقة له بنبل الكنوز الخفية.

كل هذه المدركات مرتبطة ببعضها البعض، وفي جميع الأحوال فإن شخصاً يقرأ لهو أفضل من شخصٍ لا يقرأ❐

مقالات

- نظرة في حزمة إصلاح الاقتصاد التركي	شوان زنكنة
- تفنيد قصّـــة سحر النبي المزعومة	محمد القوصي
- بشرية الرسول محمد – عليه الصلاة والسلام -	د. سعد الديوەجي
- نحن والحياة	د. سامي محمود
- مصطلح (الإبراهيمية) بين سيرتين	د. سنان أحمد
- من الوحي إلى العصر	عمار وجيه
- أهلاً وسهلاً	بكر أبو بكر
- صفات مرتكبي الجريمة الإلكترونية وخصائصهم	مريم عبد الرحمن

نظرة في
حزمة إصلاح الاقتصاد التركي

شوان زنكنة
ماجستير في الاقتصاد الإسلامي

أعلنَ الرئيسُ التركيُّ في ٢٠٢١/٣/١٢ عن حُزمة إصلاحات اقتصادية، وذلك لدفع عَجلة الاقتصاد إلى الأمام، كي تكونَ ضمنَ اقتصادات الدول العشر الأولى. وتركّزتْ هذه الإصلاحات - كما صرّح إردوغان- في أربعة محاور، هي: الاستثمارُ، وتوفيرُ فُرص العَمل، والتّصديرُ، والإنتاجُ، واستهدَفت الاقتصادَ الكليَّ والجزئيَّ التركيَّ، وتعزيزَ بُنيته، وحمايةَ الليرة التركية، وتخفيضَ نسبةَ التضخّم وسعرِ الفائدة، وتوفيرَ فُرص العمل، ونُموَّ الإنتاج، وزيادةَ الصادرات، وتقليلَ العجزِ في الميزانِ التجاريِّ، واللّحاقَ بالتقدّم التكنولوجي العالمي.

وقبلَ الولوج في ثنايا حزمةِ الإصلاح، لا بُدَّ من ذكرٍ مُختصرٍ عن الاقتصادِ التركي، وكما يلي :

تقعُ تركيا، ذاتُ الموقعِ الاستراتيجيّ بين الشرقِ الآسيويِّ، والغربِ الأوربيّ، على أرضٍ مساحتُها حوالي ٧٨٤ ألف كم٢، ومجموعُ سكانها حوالي ٨٤ مليون نَسمة، ويحكمُها نظامٌ ديمقراطيّ جمهوريّ رئاسيّ، وسلطةٌ تشريعيةٌ برلمانيةٌ.

الاقتصادُ فيها ليبراليٌّ، أشبهَ ما يكونُ بالاقتصاد الكينزي، تمارسُ السلطةُ فيه دورَ المُوجِّه، والمُؤثِّرِ، والدَّاعِمِ، من خلال سياستَيها الماليةِ والنَقديةِ، ونفوذِها السياسيِ الإقليمي والعالمي.

أنهكت الحكوماتُ التركيةُ المُتعاقبةُ، بعد إعلانِ الجمهوريةِ، الاقتصادَ التركيَّ، وأضعفتْ مفاصلَه، بسوء إدارة الإنتاج، والصحة، والتعليم، والبُنى التحتية، فتَعرّضَ إلى عدة انهيارات، كان آخرها انهيارُ العملة التركية سنة ٢٠٠١ م، والذي أعقبهُ تسلُّمُ حزبِ العدالةَ والتنميةَ، برئاسة إردوغان، للسلطة. ومنذ ذلك التاريخ، سعتْ حكومةُ إردوغان إلى دفع عجلة الاقتصاد، ومعالجة أعطابه، وخطت في ذلك خطوات جيدة، ولكنّها لم تستطعْ معالجةَ العطبِ الأساسي في الاقتصاد التركي، الذي جعلَه هشًّا لا يقوى على تحمّل الضربات والمدخلات السلبية، هذه الهشاشةُ تكمُنُ في مُثلّث: الإنتاج، والتصدير، والتكنولوجيا.

ولا بُدَّ للحكومة من أنْ تُعالجَ مشكلةَ تكلفةَ الإنتاج، وتستهدفَ تقليلَها، كي تُسيطرَ على التضخّمِ وسعرِ الفائدة، ولا بُدَّ لها من أنْ ترفعَ مستوى التصدير، كي تُوفّرَ حاجتَها من العملات الاجنبية، والتي تُوازنُ بها ميزانَها التجاري أيضًا، ولا بُدَّ لها من التّوجّه نحو الصناعات التقنية المتطورة، كي تُحقّقَ النموَّ بمستويات عالية..

وخلالَ سنواتَ حكمها الماضية، لم تُقدّمْ حكومةُ إردوغانَ حلولًا ومعالجات جذرية في طبابَة هشاشة الاقتصاد التركي، وقد تكونُ معذورةً طيلةَ هذه الفترة، لأنّ الاستثمارَ في معالجة هذه الهشاشةَ لا يكون منظُوراً من قبَل المواطن، وبالتالي لا يُدرُّ لها نفعًا سياسيًا انتخابيًا، إلا أن الوضعَ اليوم يختلفُ كثيراً، فقد استكملت الحكومةُ تثبيتَ أركانها من جهة، والتقدُّمُ التقنيَّ العالميَّ يحتاجُ إلى ملاحقة، ومزامنة، من جهة أخرى. وبالتالي، فلا بُدَّ من إصلاحٍ اقتصاديٍ جذري، يستهدفُ هشاشةَ الاقتصاد. وأعتقدُ أن إردوغان أدرك هذه الحقيقة عندما أعلن عن هذه الحزمة التي يمكن اعتبارها الخطوةَ الأوليةَ بالاتّجاه الصحيح، ولكن لا يمكن اعتبارها إصلاحاً جذريّاً. وأعتقدُ أن الخطوةَ الأخرى الأكثرَ جرأةً ستأتي بعد انتخابات ٢٠٢٣ م، بعد أن تَضمَنَ الحكومةُ أربعَ سنوات قادمة من الحكم، عندها ستقومُ الحكومة بالنّقلة الجذرية للاقتصاد، إذا توفّرتْ لها الفرصةُ بالطبع.

وبلا خَوض في التفاصيل، يمكن تلخيصُ محتوياتِ الحزمة، مع تعليقاتي عليها، بالبنود الأساسية التّالية:

١- تأسيسُ صندوقِ ضَمانٍ، لتمويل الشّركات والمؤسّسات الاقتصادية، في حال تعَثُّرها عن سَداد ديونها المُستَحَقَّة، وذلك لمنع انهيارها، وضَمانَ استمراريَّتها داخلَ العمليةِ الاقتصاديّة.. وهذه خطوةٌ إصلاحيّةٌ حقيقيّةٌ، تدعمُ البنوكَ والشركات، من خلال تَحمّلِ الصندوقِ لأعباء التَّعثُّرات المَاليّة.

٢- تسهيلُ عمليّات عرض حصَص وأسهُم الشّركات العامَّة، والخاصّة، للاكتتاب العامِّ.. ويمكن القول عن هذه الخطوة: أنَ هذه العملياتُ جَاريةٌ حاليًا، ولكنَ الجَديدَ فيها هو التّعديلاتُ التي تُسَهّلُ عمليات العَرض، وهي خُطوةٌ مهمّةٌ تساعدُ في تقليل عمليات القروض من البنوك، وتُساهمُ في توسيع قاعدَة المُشاركة الشّعبية في حِصص الشّركات، وبالتّالي، تُعتبَرُ هذه الخطوةُ إيجابيةً، وفي الاتّجاه الصّحيح.

٣- وضعُ المصارف التّشاركيّة (الإسلاميّة) تحتَ سقف واحد، وذلك لتعزيز أنشطتها.. ومعلومٌ أنّ هذه المَصارفَ منضَويةٌ تحتَ اتحاد باسمِ: (اتّحادُ المصارف التّشاركيّة)، ولا أدري كيف سيكون شكلُ السقف المذكورِ في الحزمة، وكيف سيكون تأثيره الاقتصادي، ولكني أعتقد أنه كان يجب أن تُعالجَ الحُزمةُ علاقةَ هذه المصارف بالبنك المركزيِّ، وما ينتجُ عنها من مشاكلَ فنية وإداريّة وشرعيّة.

٤- سيتمّ تحديدُ أسعارِ السّلع بشكل عامٍ سنويًّا، استنادًا إلى نسبة التّضخّم الحاصل في حينه فعلًا، وليسَ قياسًا إلى نسبة التّضخّم في السنة الماضية.. وهذه خطوةٌ إصلاحيّةٌ مهمّةٌ، إذ ستكون الأسعارُ الحقيقيّةُ السّائدةُ في السوق هي الأسعارُ التي تعلنُ عنها مؤسسةُ الإحصاء التركيّة، وليست الأسعارُ التخمينيةُ التي تُعلنُ عنها حاليًا. وبالتّالي، ستتحلّى الحكومةُ ومؤسّساتُها الاقتصاديةُ بالشفافيّة، ويرتفعُ مُستوى الثقة بها .

٥- سيتمُّ تشكيلُ لجنة (استقرارُ أسعارِ السّلع)، مهمّتُها مراقبةُ أسعارِ السّلع، والتّخفيفُ من وَطأة التّضخّم.. وهذه خطوة جيدة، إذا حافظتِ اللجنةُ على استقلاليّتها، وأدّتْ وظيفتَها في المراقبة، والمُعالجة، بكفاءة.

٦- تفعيلُ وتوسيعُ (نظامُ بنك الغذاء)، الذي أقامتْهُ الحكومةُ قبل فترة للسّيطرة على أسعارِ الموادِّ الغذائية، وذلك لتحسينِ كفاءة التّوقّع المُسبَقِ لحركة أسعارِ السّلع الزراعية والحيوانية في الأسواق، ومنع تذبذُبها، والتّلاعُبِ فيها.. وهذه خطوةٌ مهمّةٌ جدًّا باتّجاه تقليلِ الكُلفة، وتخفيضِ مُستوى التضخّم.

٧- إيقافُ العجزِ في الميزانية العامة بحدود ٣.٥ %، علمًا بأنّ العجزَ الحاليّ بحدود ٣% من الميزانية العامّة.. هذا هدفٌ وليس إصلاحٌ، وتحقيقُه ضروريّ لتحسينِ الوضع الاقتصاديِّ، وذلك من خلال تَرشيد الإنفاق، وتَنويع المَوارد.

٨- مَأسَسَةُ التّعاون بين القطاعَين، العام والخاصّ، وتعزيزُ الشراكات بينهما، وتسهيلُ إجراءاتها. . وهذه خطوةٌ جَيدة، خاصّةً وأن هناك إجراءات وتعليمَات حكومية بهذا الخصوص، وهناك مشاريعٌ قائمةٌ على هذا الأساس فعليًّا، وسوف يكون لتَأطير ومَأسسة هذا التعاونِ الأثرَ الملموس في الاقتصادِ التركيِّ مُستقبلًا.

٩- تكونُ للمنتجات التركية، وخدمات المؤسسات التركية، الأولويّةُ في مُناقَصات وعُقود المؤسسات العامّة الحكومية، وذلك لدعم وتَنشيط حركة الإنتاج والخدمات المحليّة.. وهذه خطوةٌ ضَرورية ستُحرّك الركودَ في الأسواق، وستَنشّطُ حركةَ التجارة، وترفعُ مستوى الإنتاج.

١٠- تحويلُ النّظام الضريبي إلى نظامٍ إلكتروني متكامل.. وهذا إصلاح جيد وضروري في النظام الضريبي، وذلك لتسهيل استحصال الضرائب، وتقليل التَّهرُّب منها، وتعزيز السيطرة عليها.

١١- الإعفاء الضريبيّ للقطاعات الاقتصادية الصغيرة لمدة معينة.. وهذه الخطوةُ ستوفّرُ مواردَ ماليةً تساعدُ هذه القطّاعات على تَخطّي أزمةَ الركود، وتساهمُ - في الوقت نفسه - في تنشيط حركة التجارة الداخلية.

١٢- ترشيدُ الإنفاق الحكومي في المصاريف، وعقود الشّراء، والإجارة.. وهذه الخطوةُ ستُساهمُ في تقليل العجز في الميزانية العامّة، إذا ما استطاعَت الحكومةُ من تنفيذها بشكلٍ كَفوء.

١٣- يتمُّ تأسيسُ رئاستَين جديدَتَين: رئاسةُ الصّناعات الصّحية، ورئاسةُ صناعات البرمجيّات وأجهزتها، وتكونان مرتبطَتين برئاسة الجمهورية، ومهمّتُهما: إنتاجُ وتطويرُ الأجهزة الصّحية الإلكترونية، وتوظيفُ الشباب، ومنافسةُ الأسواق التقنية العالمية.. وهذه خطوةٌ إصلاحيّةٌ حقيقيةٌ، فالتكنولوجيا هي محورُ الاقتصاد المستقبليّ، ومؤشّرُ تقدم الشعوب.

١٤- إعادةُ تفعيل) بنك إكزيم(Exim Bank Turk /، وهو بنك مُختصّ بدعم الصّادرات التركية، وكان له دورٌ فاعلٌ في زيادة وَتيرة التّصدير في حينه.. وهذه خطوةٌ فعّالةٌ في زيادة الصّادرات التركيّة، والتخفيف من وطأة العَجز في الميزان التجاريّ، وفي توفير العُملة الصّعبة.

١٥- تأسيسُ مراكزَ دعمٍ لوجستيٍّ في كثيرٍ من الدول، وذلك لدعم الصّادرات التركيّة، وتوصيل المُنتجين الأتراك بالأسواق العالمية، وتقديم الخدمات لهم، وإمدادهم بالمعلومات اللّازمة.. وهذه خطوةٌ جيدةٌ بالاتّجاه الصحيح، وستخدمُ المنتجين، إذا ما تمَّ تفعيلُها بكفاءة ونَزاهة.

١٦- تقديمُ الدّعم اللّازم للاستخدام الأمثل للطّاقة، وتَرشيد استهلاكها، وذلك بهدف تقليل العجز في الميزانية، وتوفير الموارد الماليّة.. بحسب الإحصاءات الحكومة، فإنّ ٤٥% من مُشتركي الغاز والكهرباء هم أصحابُ الأبنية التجارية والسكنية، وأنّ ٨٥% من هذه

الأبنية تُعاني من هَدْرٍ في الطاقة، وسيكونُ لتقديمِ الدّعمِ لهذه الأبنيةِ الأثرَ الكبيرَ في مُعالجةِ مشكلةِ الهدرِ هذه.

١٧- يقومُ صندوقُ ضمانِ القرضِ بالدّعمِ الانْتقائي، وذلك بتَحديدِ المَجالاتِ المُحتاجَةِ للدعمِ، وتصميمِ الوسائلِ الدّاعمَةِ لها، حسبَ حاجتِها، وأولوياتِ تنشيطِها.. هذه الخطوةُ ستُؤتي ثمارَها إذا ما تمَّ توجيهُها لدعمِ الأنشطةِ التكنولوجيةِ، وتوفيرِ فُرصِ العملِ فيها، وكذلك التصديرِ. أما إذا ما تمَّ توجيهُها في الصناعاتِ الكلاسيكية، فستكونُ مضيعةً للجُهود، ولا تنفعُ الحكومةَ إلا في جلبِ أصواتٍ إضافية للانتخابات. علماً بأنه يجب على تركيا أنْ تُواكبَ التقدمَ التكنولوجي خلالَ السنواتِ الثلاثِ القادمةِ، وإلّا فإنّها ستجدُ نفسها في ركابِ الدولِ المُتأخّرة.

١٨- دعمُ عمليةِ توفيرِ فُرصِ العملِ للشباب، ومعالجةُ مشكلةِ البطالة، إذ يَبدو أن الحكومةَ تشعرُ بخطورةِ البطالةِ، لذلك وضعتْ جهدها في مشروعِ الإصلاحِ هذا لمعالجةِ مشكلةِ البطالةِ لدى الشباب.. وهي خطوةٌ جيدةٌ جدًّا لو صَبّتِ الحكومةُ جهدَها في دعمِ الصناعاتِ التكنولوجيةِ المُتقدِّمة، وتوفيرِ فُرصِ العملِ فيها.

١٩- تشكيلُ لجنةِ (الاستقرارِ المالي)، وتعملُ جنبًا إلى جنبٍ مع (مؤسسة إدارة الاقتصاد)، بهدفِ تنظيمِ السياسةِ المالية والنقدية للدولة.. ويبدو أن أزمةَ الليرةِ التركية، والتضخّمَ، وسعرَ الفائدة، دفَعتِ الحكومةُ إلى تشكيلِ لجانٍ، وتفعيلِ مؤسساتٍ متعدّدة، بشكلٍ متوازٍ، وذلك للوصولِ إلى معالجةٍ جماعيةٍ مشتركة، والخروجِ الآمنِ من أزمةِ الاقتصادِ الحالية.

٢٠- تحويلُ مؤسسةِ الإحصاءِ التركية، من مؤسسةٍ حكوميةٍ تابعةٍ إلى مجلسِ الوزراء، إلى مؤسسةٍ مرتبطةٍ بها، وبمعنى آخر: مؤسسةٌ مستقلةٌ مرتبطةٌ بالحكومة، وغيرُ تابعةٍ لها، حالُها حالُ البنكِ المركزي التركي.. هذه الخطوةُ تُعتبَرُ خطوةً إصلاحيةً بِجِدٍّ، لأن البيانات والإحصاءات التركية ستكونُ بعيدةً عن سلطةِ الدولة، وهذا يعني إضفاءَ طابعِ الشّفافيّةِ على بياناتها، وتَلَقّي هذه البيانات من قبلِ المؤسساتِ العالمية بالقَبول.

٢١- إعطاءُ الأولويةِ للمشاريعِ الاستثمارية المُموَّلةِ بالرأسمالِ الذّاتيِّ، والابتعادُ قدرَ الإمكانِ عن المشاريعِ المُموَّلة من البنوك وبضمانةِ الدولة.. وهذا يعني التوقُّفُ عن تنفيذِ المشاريعِ العملاقةِ المُموَّلةِ من قبلِ البنوك، والمَضمونةِ حكوميًا، ويَبدو أن الانتقاداتِ اللاذعةَ من المعارضةِ بهذا الخصوص، وعدمَ وجودِ مردودٍ سياسيٍ ملموسٍ فيها للحكومة، جعلتْها تَصرِفُ النّظرَ عنها في مشاريعِها المستقبلية.

٢٢- توسيعُ قاعدة الدعمِ للمشاريع الزراعية والحيوانية، وذلك لتخفيضِ أسعارِ السّلع الغذائية.. لو استطاعَت الحكومةُ تقديم هذا الدعم بكفاءة، وحسبَ حاجة العاملين والمُستثمرين في هذا المجال، فإن أسعارَ السّلع الغذائية ستَنخفِضُ بشكلٍ مَلموسٍ، بل ولَنْ تتذبذبَ مُستقبلًا.

٢٣- سيكونُ التوجُّهُ الحكوميَّ نحو الاقتراض باللّيرة التركية، ومن خلال أذونات الخزانة، بفوائدَ مُحدّدة، ولمُدَد محدّدة، مدروسة وواقعية، وتوسيع قاعدة المشاركة الشعبية في المؤسسات الاقتصادية الحكومية، من خلال عرضِ بعضِ أسهمها للاكتتابِ العامِّ، وتوفيرِ السّيولة للحكومة.. هذه خطوةٌ إصلاحيةٌ جيّدةٌ، لأنها تُعزِّزُ دورَ الليرة التركية في الاقتصاد، وتُحافظُ على قيمتها بشكلٍ متّزن.

٢٤- وضعُ اللّمسات الأولية، للبُنيّة القانونية والاقتصادية التّحتيّة للعُمْلات المُشفَّرة.. يَبدو أن تركيا لا ترغبُ في أن تكون بعيدةً عن التوجّهات العالميّة (الصينية، الأوروبية، الأمريكية) نحو إصدارِ العملات المُشفّرة الرسميةِ الخاصّة بها، وأعتقدُ أن تركيا ستُصدرُ عملتَها المُشفّرةَ خلال السنوات القليلة القادمة.

٢٥- توسيعُ قاعدة نظامِ التقاعد الفرديِّ، بحيث يشملُ من هم دون ١٨ سنة، وسيتمّ إنشاءُ (مركز المخاطر) بمساهمة المؤسسات الحكومية، والخاصّة، والجمعيات، والأوقاف، والنقابات، وغيرها، وذلك بحلولِ سنة ٢٠٢٣م.. هذه الخطوةُ مهمّةٌ جدًّا لضمانِ مستقبلِ المواطن في سنِّ التقاعد.

٢٦- توسيعُ مصادرِ تمويلِ المشاريع الخاصّة بالبيئة، وذلك لمُواكبَة إجراءات رعاية البيئة والحفاظِ عليها.. هذه خطوةٌ جيدةٌ مُنسجمَةٌ مع التنميةِ المُستدامةِ المطلوبةِ للحفاظِ على مُستقبلِ الأجيالِ القادمة.

٢٧- تشكيلُ لجنة متابعة باسم (لجنة متابعة مشروع الإصلاح)، تجتمعُ كلَّ ثلاثةَ أشهرٍ لمتابعة تطورات تنفيذِ بنودِ هذه الحُزمة.. هذه اللجنةُ ضروريةٌ، فكلُّ قرارٍ يحتاج إلى متابعةٍ، وبقَدرِ كفاءةِ هذه اللجنةِ ستكونُ الحزمةُ كفوءةً وفعالةً ومُثمرةً.

وختامًا..

ولأن هذه الحُزمةُ ليستْ إصلاحًا جذريًّا، بل هي خطوةٌ صحيحةٌ في هذا الاتّجاه، فإنّ الأسواقَ الماليّةَ في تركيا لن تَتأثَّر بها على الفورِ، بل ستُتابِعُ هذه الأسواقُ عن كَثبٍ التطوراتِ التي ستَلي هذه الحُزمةَ مُستقبلًا❐

تفنيد قصّـــة
سحر النبيّ المزعومة

محمّـــد عبد الشافي القُوصي - مصر
عضو جمعية حُماة اللغة العربية

✍ زعم البعض بـأنَّ النبـيّ الكـريم - صـلوات الله عليـه - وقـع تحـت سُـلطان الجـن والشياطين، معتمدين عـلى روايـة منكـرة، مـن أحاديـث الآحـاد! مفادهـا أن أحـد اليهـود الساقطين سحر النبي، ومكث الرسول عدة شهور تحت تأثير هذا السحر، وأنـه كـان يفعـل الشيء ولا يدري فَعله أمْ لا؟

وقد ردَّ العلماء الأكابر على مثل هـذه الافـتراءات، بـالبراهين العقليـة، والأدلـة النقليـة الصحيحة ... لكن هؤلاء المساكين ألغوا عقـولهم، وعطَّلـوا مـداركهم، وجعلـوا أصـابعهم في آذانهم، واستغشوا ثيابهم، وأصرّوا واستكبروا استكباراً !

لو افترضنا -كذباً- صـحة هـذه الروايـة؛ فـما جـدوى تكرارهـا، والتكـريس لهـا في كـل الخطب والدروس والمحاضرات؟ وما الذي تسـتفيده الأمـة منهـا؟ ومـاذا يفيـد الـدِّين بـأنّ النبيّ وقع فريسةً لمشعوذ حقير، سوى خدمة أعداء الإسلام! وهي من مدسوسـات اليهـود، ومن الإسرائيليات التي تهدف للتشكيك في مصدر هذا الدين.

ألمْ يعلم هؤلاء بأنه لا صحة لما هو ظني الثبوت، وجاء من طريق واحد (حديث آحاد) وليس مُتواتراً، فيما يخص مسائل العقيدة، لأنهـا تقـدح في النبـوات والرسـالات، وأنَّ

العقائد لا تُبنى على الظن والتخيّل والشك؟! فلماذا نقبل هذه الرواية، وهي من (أحاديث الآحاد)؟!

أَلمْ يتفق العلماء على أنَّ ما ورد في كتب الأحاديث؛ يردُّه ما هو قطعي الثبوت -وهو كلامُ الله الخالد في (القرآن الكريم)، الذي زكى عقل النبي، وقلبه، ولسانه، بلْ زكَّاه كله، ونزّهه عن العيب والنقصان والزلل؟ !

فكيف يدَّعي هؤلاء -مهما كانت مكانتهم، ومهما كان عددهم- أنَّ الرسول اختلط في عقله وإدراكه وأصبح يتخيل، ولا يُدرك ما يفعل!! فهل الرسول يتخيّل أنه أُنزل عليه وحِي، وبلغه أمْ لم يُبلغه، خلال بضعة شهور، على أنه وحي من الله، وهو ليس بوحي! ويُخيل إليه أنه يفعل الشيء وما يفعله، ويُخَيَّلُ إِلَيْهِ أَنَّه صَنَعَ شَيْئًا وَلَمْ يَصنَعْه!؟

فهل كان يتخيل أنه صلَّى وهو لَمْ يُصلّ؟ وهل بلَّغ وحياً وهو ليس بوحي؟!

أليس هذا كله طعنٌ وهدم للنبوة والرسالة، ويمكن أن يفقد المصداقية في أيّ قول أو فعل يصدر منه - صلى اللهُ عليه وسلم-، وكفيل بأنْ يدخل الشك في الإسلام جملة وتفصيلاً، وهذا يعني أن الساحر قد هيمن وسيطر على الرسول نفسياً، وأفقده وعيه وشعوره، فأين الملاك جبريل الذي أيّد الله نبيه به، وأين العصمة؟ وأين كفاية الله لعبده أثناء عدة شهور مُتواصلة؟!

بلْ استمع إلى قوله سُبحانه وتعالى: {وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى. مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى. وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى. إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى} "النجم ١-٤."

فقد أقسم المولى -تعالى- بالنجم إذا هوى أنَّ هذا النبي الخاتم ما ضلَّ وما غوى أبداً.

ومن يقع تحت السحر، فهو قد وقع تحت غواية الشياطين!

ولا مُقارنة للتبريرات الواهية بالاستدلال بسحر موسى وفرعون، لأنَّ للفراعنة سحر خداعٌ بصري، وهو معروفٌ ولا يؤثر إلاَّ على التخييل للبصر، ويكون مؤقتاً لثوان، أو على الأكثر دقائق، وهو موجود الآن ويمتهنه الدجّالون والمشعوذون، وهذا يحدث لمن يشرب الخمر أو يتناول المُخدرات أو ما شابهها.

أمّا سحرهم الذي نسبوه لرسول الله، فهو سحرٌ - كما ادعوا - أثَّر في العقل والفكر والتصرفات والأفعال.. وتبريراتهم الواهية هي قولهم: بأن هذا السحر فقط مُسخّر نحو نساءه ومنعه عنهن، ولم يؤثر على الدين والعقيدة! وهو تبرير أقبح من الذنب! فهل كان (اليهود) يريدون – فقط – أن يجعلوا رسول الله يُخيل إليه أنه أتى نساءه وهو لم يأتهن؟ !

أيضاً: معروف أنَّ (السحر) لا يمكن أن يتم بدون القرين، وقرينُ الرسول أعانه اللهُ عليه وأسلم!

كما أنَّ الأنبياء والرُسل هُم الذين اختارهم الله واصطفاهم لحمل رسالته وتبليغها للناس، وقد نصرهم وأيّدهم بالمعجزات الباهرات، فكيف إذا كان مُرسَلاً للبشرية جمعاء، بلْ للعالمين؟ !

إنه من المفترض أن يكون بكامل عقله وفكره حتى يُبلِّغ رسالة ربه.. فكيف يقع النبيَّ تحت سيطرة أحد هؤلاء الذي أُرسلَ إليهم؟!

والسحر هو الوقوع تحت تأثير وسلطَان الجن والشياطين، والخضوع لِمَا أراده الساحر أو المُشعوذ.. فكيف إذا كا ن هذا الرسول هو (مُحمّد)، الذي تعهّد اللهُ أن يجعل كلامه في فمه، وأنه لا ينطقُ عن الهوى، وأن كُل ما يصدر عنه وحي يوحى، وتعهده بالعصمة، وكفاه شر خلقه، {أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ}الزمر٣٦؟

فهل من تكفّل اللهُ بكفايته، يُسحَرُ، ويقع فريسةً لشياطين الإنس والجن؟ ألمْ يتعهد الله بحفظ نبيه وعصمته، بقوله له: {يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ}المائدة٦٧؟

فهل من عصمه الله من الناس، وكفاه إياهم؛ يقع تحت سحرهم وشعوذاتهم؟

* * *

ثمّ نسأل المؤيدين لهذه الحادثة المزعومة:

أولاً: أليستْ (المعوذتان) سورتيْن مكيتيْن؛ أيْ: نزلتا في مكة، وما تمّ روايته عن قصة السحر أنها حدثت بالمدينة المُنورة، وكانت بعد صلح الحديبية!!

ثانياً: أليس دفاعكم عن هذه الرواية يؤكد مزاعم المشركين، الذي حكى القرآن افتراءاتهم:

{وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلاً مَّسْحُوراً }.

ألمْ يصف المولى -تعالى- الذين ألصقوا السحر بالرسول بأنهم (الظالمون)؟!

ثالثاً: إذا كان (عمر) يمشي في طريق، والشيطان في طريق آخر .. فما الظن بإمام الهُدى؟

رابعاً: لوْ أنّ الرسول الأكرم ابتُلِي بالسحر، فإنّ هذا الأمر ليس بمسألة بسيطة أوْ هينة، بلْ هو أمر جلل.. خاصة أن القصة تشير إلى أن السحر استمر لأكثر من شهرين! لذا كان من المتوقع أن يرويها كثير من كتيبة الرواة الذين لا يبرحون مجالس الرسول !

خامساً: لماذا لم ترِد أيّة إشارة من (صاحب الرسالة) إلى أنه قد سُحر ذات مرة، أو في يوم كذا ، أو أنَّ السبب كذا.. كعهدنا بالمرويات النبوية؟ أو أنَّ أحد الصحَابة – مثلاً – قال له أخبرنا عن واقعة سحرك.. وما شابه ذلك؟ !

سادساً: إذا كان النبيّ المُجتبَى قد سُحر بالفعل؛ فما معنى قوله تعالى: {والله يعصمك من الناس}! فمن أي شيء -إذن- عصمه؟ وهل هناك بلاء أكثر من السحر؟ !

سابعاً: المعلوم والمتواتر أنّ الناس كانوا يذهبون للنبيِ لعلاجهم مما يصيبهم من سحر وحسد، كالمرأة التي كانت تتكشّف، فدعا لها بالشفاء. ومأثور عنه أنه كان يُعوِذ (الحسنيْن) بالكلمات التامّات، وكان يعلِّم الناس ويُعوِذهم بسورتيْ: الفلقِ، والناس. بلْ أثِرَ عنه أدعية لا حصر لها في هذا الباب. فهل هو - حاشاه ربّه - نسي أن يُعوِذ نفسه؟!

ثامناً: إن الذي نجّى (موسى) من السحر، ونصره على السحرة .. كيف لا ينصر أخاه مُحمّداً؟!

تاسعا: أليستْ هذه القصة - لوْ صحّتْ - كفيلة بأن تفتح الباب واسعاً للتشكيك في أمور كثيرة فيما يتعلق بالوحي، وما تبعه من الهدي النبوي؟!

عاشراً: نريد من هؤلاء المساكين أن يجيبوا عن السؤال التالي: ما هو السر الخفي في أنّ (البطل) وراء قصص (سحر النبيّ، وسَم النبيّ، ورهن درع النبيّ، و..) يهودي؛ وليس وثنياً أو هندوكياً، أوْ روسياً-؟!!

الحقّ الحقَّ أقول: إنَّ المُصدّقين لتلك الافتراءات – المتسربلة في بعض كُتُب الحديث - ما قدروا (رسولَ الله) حق قدره، عندما قبلوا بأنه كان رجُلاً مسحوراً.. مع أنهم سينكرونها إذا نُسبتْ إلى أحدهم، أوْ إلى أحد شيوخهم!❐

بشرية الرسول محمد
- عليه الصلاة والسلام -

سعد سعيد الديوه‌چي

يقول المرحوم علي عزت بيجوفيتش، في كتابه الشهير (الإسلام بين الشرق والغرب)، بأن عظمة الرسول – صلى الله عليه وسلم - تكمن في بشريته، وهي بشرية خالصة، أحاطها الله بعصمة دينية مطلقة، لأنه حامل رسالة إلهية للبشرية جمعاء، بما يخصّ التوحيد الخالص لله، خالق كل شيء، الذي ليس كمثله شيء. وفي تعامله مع الناس (كان خلقه القرآن)، كما قالت السيدة عائشة (رض)، وكما وصفه الله تعالى {**وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ**} القلم.

وعليه، فللرسول أقوال وأفعال داخل دائرة العصمة الإلهية، وهي كلّ ما يتعلّق بتبليغ القرآن على وجه الخصوص، وباقي تفاصيل العبادات، كالصوم والصلاة والحج والزكاة، وهي عقيدة إسلاميّة عند كلّ الفرق، لا خلاف في ذلك إلا عند الغلاة، الذين من الصعب تعريفهم داخل الإسلام.

وأمّا ممارساته الدنيوية في الطعام والشراب واللباس، وكلّ ما يتعلّق بالأمور الأخرى؛ من نوم، ومرض، وزواج ... إلخ، فلا تخضع لمبدأ العصمة الدينية، لأنّها أشياء لا تتعلّق بحرام أو حلال، أو أيّ مخالفة شرعية، ويشترك فيها مع سائر البشر. وحادثة عبد الله بن أمّ مكتوم،

الذي قاطع الرسول أثناء حديثه مع زعماء قريش المعرضين عنه، فلم يلتفت إليه، فنزلت الآية {**عَبَسَ وَتَوَلَّى، أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى**}، فكان الرسول – صلى الله عليه وسلم - يقول له، عندما يراه: أهلاً بمن عاتبني فيه ربي.

وبشرية الرسول – صلى الله عليه وسلم - واضحة كوضوح الشمس، شأنها شأن بشرية كل الرسل والأنبياء، في قوله تعالى: {**وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا**}(٢٠) **الفرقان**)، وقوله تعالى: {**وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ** (٧) **وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ**} (٨) **الأنبياء**).

والحقيقة إن وراء طرح هذا المبدأ، ما رأيناه عند بعض الفرق الإسلامية من غلّو وتطرّف في شخصية الرسول – صلى الله عليه وسلم - تصل لحدّ الشرك، وكأنهم لم يقرأوا القرآن، ولم يمرّ على شفاههم، حتى إن بعضهم ادّعى أن أسماء الله الحسنى تنطبق كلّها على الرسول – صلى الله عليه وسلم -!.

والآيات صريحة، ولا تقبل التأويل مطلقاً في بشريته – صلى الله عليه وسلم - ، حيث يقول تعالى: {**قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ**}(١٨٨) **الأعراف**).

وهذه الآية الكريمة تلغي كلّ الأحاديث المنسوبة للرسول – صلى الله عليه وسلم - ، والتي يتكلّم فيها عن غيبيات آخر الأيام بتفاصيل مثيرة، وهي أمور لا يعلمها إلا الله.

فالرسول – صلى الله عليه وسلم - جاء من مجتمع يتكوّن من نفوس متشابكة، اختاره الله لهدايتها بقوله: {**لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ**} (١٢٨) **التوبة**)، أي إنه أحد تلك النفوس في طبيعته البشرية، وليس بشراً بصفات إلهية، بأيّ شكل من الأشكال.

والقرآن يؤكد على الجانب البشري للرسول – صلى الله عليه وسلم - بصورة لا تقبل الشك، ولا التأويل، بقوله تعالى: {**قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا**} (١١٠) **الكهف**.

وفي الآية الكريمة ربط واضح بين بشرية الرسول – صلى الله عليه وسلم - ورسالة التوحيد التي يحملها، بشكل لا يقبل الجدال، وأن في الأمر معجزة قرآنية لا مثيل لها.

وفي آية اخرى يقول تعالى: {وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ}(٣٤) الأنبياء، وقوله تعالى: {قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ} (٦) فصلت.

وسيرته – صلى الله عليه وسلم - قبل الدعوة، وبعدها، كانت سيرة بشرية بحتة، سواءاً في الدعوة بدون معجزات خارقة، حيث يقول تعالى: {وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا}(٥٩) الإسراء ، وقد تحمل كثيراً من الأذى من قومه، خصوصاً في الطور الأول للدعوة، وبقي مصراً على بشريته بإقناعهم بسلوك التوحيد، ونبذ الشرك، ومحاولة إقناعهم بالمنطق والعقل: {ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ}(١٢٥) النحل. وهناك أحاديث تصبّ في هذا المجال، مثل قوله (ص): (إنما أنا مثلكم، أنسى كما تنسون، فإذا نسيت فذكّروني)... (البخاري ومسلم)، وجاء الحديث في سياق سهوه – صلى الله عليه وسلم - في الصلاة، إن حدث.

والحقيقة أن مسألة إعطاء الرسول صفات فوق البشر هي فكرة جاهلية، حيث لم يستوعب المشركون أن أحداً من البشر قد ينقل رسالة إلهية: {وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا}(٧) الفرقان، والمسألة كانت قد تكررت مع معظم الأنبياء، فقد قال قوم نوح: {وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ}(٣٣) المؤمنون.

ولكن هذا الدافع اختلف فيما بعد عند بعض المسلمين، عندما أسبغوا صفات إلهية على الرسول – صلى الله عليه وسلم - ، إمّا عن جهل، أو بصورة متعمّدة، كما فعل الباطنية الغلاة عن عمد، وذلك لإسباغ الأمر فيما بعد على قادتهم، وأئمّتهم. ثمّ تسلّلت الفكرة إلى بعض الفرق الصوفية الغالية، حتى صاروا يقدّسون شيوخهم، وبعض رموزهم، تقديساً يصل بهم إلى العصمة. ولذلك خرجت أحاديث كثيرة، منسوبة للرسول – صلى الله عليه وسلم - ، تخالف مبدأ بشريته، مثل: (أنا نور الله، وكل شيء من نوري)، و(أول ما خلق الله نور محمد – صلى الله عليه وسلم - ، أو أنه مخلوق من نور العرش قبل آدم (ع)، ولذلك فهو لا ظلّ له..! إلى غير ذلك من الأمور، التي تقترب من خلط أفكار اللاهوت بالناسوت، كما في المسيحية (علماً أن هذين المصطلحين دخيلان على الفكر الإسلامي)، وهي كلّها مجتزأة من حديث آخر منسوب للرسول – صلى الله عليه وسلم - ، حيث جاء عن عبد

الرزاق والبيهقي عن جابر بن عبد الله، قال: (قلت يا رسول الله بأبي أنت وأمي أخبرني عن أوّل شيء خلقه الله قبل الأشياء؟، قال – صلى الله عليه وسلم -: يا جابر، إن الله تعالى قد خلق قبل الأشياء نور نبيك من نوره)!.

وهذه الأقوال والأحاديث هي تأويل قسري وشاذ للآية الكريمة: {**قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ**}(١٥) **المائدة**، وآيات أخرى تصبّ في هذا السياق، مثل: {**اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ**}(٣٥) **البقرة**، فلا يمكن أن يكون للنور مقصدين: تارة هو الله، وتارة هو الرسولَ (ص)، وفي كلتا الحالتين هو تعبير مجازي، واستعارة بلاغية، عن هدي الله ورسالته، فالله تعالى هو خالق كل شيء، ومن هذه الأشياء النور.

لقد رفع الغلاة، تحت غطاء التصوف، ولأسباب سياسية خفيّة، من صورة (محمد) فوق الصورة البشرية، لإسباغ الأمر على شخصيات أخرى تمّت بصلة النسب للرسول – صلى الله عليه وسلم - ، واتّخاذهم وسائل لمآرب بعيدة. ولذلك عندما شعر الإمام جعفر الصادق (رض) (ت١٤٨ هـ)، بتسلّل الغلاة لشخصيته، لعن زعيمهم أبو الخطاب، وقال: "لا تقاعدوهم، ولا تؤاكلوهم، ولا تشاربوهم، ولا تناكحوهم، ولا تصافحوهم، ولا توارثوهم". ففي أحد الشروح لكتاب (الطواسين) للحلّاج، يرد ما يلي: "اعلم، أيّدك الله بروح منه، أن الحقّ تعالى خلق محمداً – صلى الله عليه وسلم - من كماله، وجعله مظهراً لجماله، وجلاله. خلق كلّ حقيقة في محمد من حقائق أسمائه، وصفاته، وخلق نفس محمد – صلى الله عليه وسلم - من نفسه، وليست النفس إلا ذات الشيء ..."، وهو كلام مشتقّ تماماً من مبدأ المسيحية عن الألوهية في الخلط بين الناسوت واللاهوت بشكل مبهم ومتعمّد.

وفي كتاب (الطواسين) للحلاج أيضاً، وفي باب طاسين الأزل والالتباس، يقول: "ما صحّت الدعاوى لأحد إلا لإبليس، وأحمد. قيل لإبليس اسجد، ولأحمد انظر، هذا ما سجد، وأحمد ما نظر، ...، ما التفت يميناً ولا شمالاً، ما زاغ البصر وما طغى".

وهذا الكلام كلّه تدليس وافتراء، فعظمة إبليس عند الحلاجيّة تأتي من ادّعاء كاذب بأنه سيد الموحّدين، وليس لأنه عصى ربّه استكباراً، فلعنه الله. وهكذا يرسم صورة غالية مزيّفة للرسول – صلى الله عليه وسلم - ، بوضعه مع إبليس في مرتبة واحدة، على أنه لم ينظر لما حوله عند سدرة المنتهى في رحلة الإسراء والمعراج، وكلّها تصوّرات بأهداف ترمي لهدم الدين من داخله، بأساليب ماكرة.

لقد تأثّر كثير من كبار الصوفية بمثل هذه الآراء، وغيرها، حيث يقول ابن عربي في (الفتوحات المكيّة) (ت ٦٣٨هـ) بهذه المعتقدات، فيستشهد بالحديث المنسوب للرسول – صلى الله عليه وسلم - : (خلق الله آدم على صورته)، بإعادة الضمير على الله تعالى، علماً أن

هذه الجملة مجتزأة من (التوراة) بصورة كاملة. والمشهور عنه تأثّره الكبير بالإسرائيليات، وببعض الأفكار الإسماعيلية، حيث جاء في (التوراة): (فخلق الله الإنسان على صورته، على صورة الله خلق البشر، ذكراً وأنثى خلقهم)(٢٧، ١، التكوين).

وهذا الكلام يخالف القاعدة القرآنية عن الله تعالى بأنه: {**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ**}(**١١**) **الشورى**.

لقَد دخلت أفكار على المعتقد الإسلامي لم ترد في القرآن، مثل مصطلح (الإنسان الكامل)، الذي اشترك به ابن عربي مع جلال الدين الرومي (ت٦٧٢هـ)، وغيرهم من المتصوّفة الكبار، وهو في الحقيقة أعلى مراتب المتصوّفة، أي (القطب)، وفي نفس الوقت هو الرسول محمد – صلى الله عليه وسلم - ، الذي كان كاملاً في أخلاقه، ومعاملاته. وهي استعارة خفيّة لإلقاء نوع من ظلال الرسول، وخصوصيّته، على أقطابهم، والله أعلم❐

نحن والحياة

أ.م.د سامي محمود ابراهيم
كلية الآداب جامعة الموصل العراق

✍ بحكم الطبيعة، حيث نعيش نشعر بانتمائنا العميق والوثيق بأرضنا، فلا مكان للوطن.. ولا مكان كالوطن.. والأرض تتحدث لغة أبينا آدم.. وهذا ما يفسر فداء الإنسان لأرض وطنه.. فوجودنا – بأبعاده - متشبث بالأرض، متمسك بها.. مستمد منها.. منذ الطينة الأولى التي خلق منها أبونا آدم - عليه السلام – بجبلتها، وفطرتها.. هي كالأمّ، أتينا منها، وسنعود إليها لأحضانها.. إننا متمسكون بها، ونشعر بانتمائنا إليها، رغم ما فيها من ظلم، وما عليها من ظلام.. رغم ما فيها من مآسٍ وأحزان.. رغم ما فيها من قهر وعدوان.. رغم ما فيها من نفاق يجعلنا نشعر بالغثيان.. فالأرض تحكي قصة العدوان.. قصة ظلم الإنسان لأخيه الإنسان.. تحكي قصة شياطين السياسة المعاصرة، وكيف فتتوا وقسموا الأوطان.. تحكي قصة الخراب والدمار المتأصل في شهوانية الإنسان، وإشباع رغباته الحيوانية.. تحكي قصة الدماء التي سالت على ظهرها، لا لسبب إلّا لأنه إنسان.. أيعقل أن نكون من طينة واحدة؛ منها خلقنا، وعليها عشنا.. ومنها سوف ننتقل إلى العالم الآخر.. فمنها خلقناكم، وفيها نعيدكم، ومنها نخرجكم تارة أخرى.. بعد ذلك.. بعد نفخة يغيب الناس جميعاً عن مسرح الأحداث، ويسدل الستار على حيرة القوم، وعجزهم، ليرفع من جديد {لمن الملك اليوم..؟}، لله الواحد القهار.. الله أكبر.. إنها خاتمة تلخص رحلة الحياة

القصيرة، التي ما إن دخلناها من باب حتى خرجنا من الآخر.. نسأل الله حسن الخاتمة، فذاك مشهد عسير، متحرك، ناطق، ترسمه قصة الوجود.. ومهما أحببنا الأرض، فإننا لا بد من أن نتطلع إلى سمائها.. نطوف بأطرافها.. أحياناً بشيء من اللاوعي يأخذنا إلى أعماقها المخيفة، ثم يصدمنا الوعي، فنقع في النهاية على ترابها الطري الناعم الدافئ، فننعم بالأمن والأمان..

وهكذا يتكرر المشهد، إلى أن يطوينا الموت إلى غير رجعة.. لنعرج معاً إلى عالم النور والسماء. . عالم الحياة الخالدة، التي نتعطش جميعاً للوصول إليها.. فلنصنع لأنفسنا وسط هذا الجدب السياسي (الشيطاني) الأرضي المتدني الدنيوي.. فلنصنع لأنفسنا واحة نضيرة، نستظل بها كلما أحرقتنا شهب السياسة العالمية الظالمة، والتي هدفها إخفاء نور الحقيقة.. اللهم أنت الأول والآخر، ونحن منحة من منحك الكثيرة التي لا تحصيها الأقلام.. اجعلنا ومضة خير، لا نزعة شر، فوق تراب أمّنا الأرض.. فما أضيق الدنيا إذا أقفرت من المحبة والرحمة والعدل..

ألا يجب علينا أن نتصور أعماق وجودنا البشري والإنساني، كي تتلاشى الحدود والمسافات المصطنعة من حولنا.. وأرضنا واحدة.. فما أرخص الكلمة التي لا تقوّم سلوك صاحبها.. قد تحفى أقدامنا ونحن نبحث عن إنسان قلبه ولسانه سواء، وهذا شرط الإيمان.. فما أقل الأشياء التي يحتاجها الإنسان لكي يسعد، لكنه يأبى إلا أن يركض وراء أمجاد وهمية.. ترى هل أنا أطلب مستحيلاً.. وأن آمالي هذه لا تتعدى حدود مساحة هذا النص الذي أكتبه؟!

يقول توفيق الحكيم: لو بعث نبي من أنبياء الأرض اليوم، ونظر إلى هذه الحضارة الورقية الهشه المزيفة الفارغة المادية.. لو بعث، وسألنا: ماذا أعطتكم هذه الحضارة من روح، من قيم، من أخلاق، من مبادئ؟ فماذا نجيب؟! هل علمتنا القناعة، لا الطمع؟ هل عودتنا الزهد، لا الجشع؟. هل حببت إلينا الإيثار، لا الأنانية؟ بعد هذه الأسئلة سيقول لنا النبي المبعوث: إنكم بحاجة إلى أنبياء أكثر من عاد، وثمود، وقوم فرعون.

فالأمم والحضارات، كما الإنسان، بروحها لا بجسدها تقوم وتحيا.

ومستقبل اليوم ترسمه خصومات الأمس..

ومن ثم فهو كالأمس يتشكل من دون معالم..

وحياتنا فيه لا تحدد على نحو واضح..

فالصراع هو الحاكم.. ومن يخطب الحسناء، لم يغله المهر..

وترتبط الأشياء والأشخاص بشبكة خفية من القوانين والأنظمة المعقدة (سقوط ورقة التوت مثلاً)، سواء أدركنا ذلك أم لم ندركه {فلا أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون}، فالعالم الذي نعيش فيه يتحدث لنا بلغة الصمت، وينكشف لنا لكن بلعبة التخفي، كما أن مبدأ ترابط الموجودات لا يتحقق إلا وفق قاعدة لا ضرر ولا ضرار، بينما مبدأ ترابط البشرية الإنسانية يخضع لقاعدة الرحمة: «ارحموا من في الأرض، يرحمكم من في السماء»، الرحمة حتى في القول (الكلام)، خاصة أن الكلمات التي تصدر منا لا تختفي، بل تضل في الفضاء اللانهائي، وستعود إلينا يوماً ما لنسعد أو نحزن، فالكلمة الطيبة صدقة ، والجزاء من جنس العمل، فمعاناة إنسان واحد تؤذينا جميعاً، وسعادة إنسان آخر تجعلنا ننعم بالسعادة.

والإنسان مقامر كبير، يلعب على ورق المستحيل، يؤثر الوجود العابر على الوجود الباقي، بغية إرضاء الأنا الفارغة التي لم تسمع لحن الوجود، ولم تفهم لغة العالم.

ألم يحن إثبات وجوهنا (وجودنا) في التراب الزائل؟

فمنها خلقنا، وإليها نعود، ومنها سنخرج تارة أخرى.

فأساس كل خير أن نعلم أن ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن.. فلو عرف الإنسان الحقيقة، لعلم أن مصالح النفوس في مكروهاتها.. إنه القدر؛ معه تبدأ رحلة الحياة، ومعه تنتهي، في محيط من الأماني والأمنيات والآمال والطموح، والسعادة والحزن.. فهو يسير دونما رجعة، بصمت مخيف، يطرق زجاج أعيننا ليغسلها المطر.. ولو تركت قلوبنا تمزق حجبها، لبكت بلغة أفصح من لغة العيون.. فالرحلة طويلة، والمطلب عظيم جليل.

كل هذا في معادلة رائعة، ينتظم وفقها الوجود.

قال الشاعر:

كن عن همومك معرضا ... وَكِل الأمور إلى القضا

وانعم بطول سلامة ... تسَلِيك عما قد مضى

فلربما اتسع المضيق ... ولربما ضاق الفضا

ولرب أمر مسخط ... لك في عواقبه رضا

الله يفعل ما يشا ... فلا تكن معترضا❐

مصطلح (الإبراهيمية) بين سيرتين

د. سنان أحمد

في بدايات التسعينيات من القرن الماضي ظهر مصطلح (الإبراهيمية)، أو (الديانة الإبراهيمية)، بين الأوساط الثقافية والدينية في الغرب، وخصوصاً في (الولايات المتحدة الأمريكية)، تدعو لاستغلال القيم الروحية المشتركة بين اليهودية والمسيحية والإسلام لدعم السلام وحل الاختلافات التي تؤدي للصراع وتفاقم المشاكل، ضمن رؤى معينة، وذلك بالاستناد الى فكرة بسيطة، وهي كون إبراهيم (ع) هو أصل هذه الديانات، ورسولها الرئيسي!.

وتعتمد العملية - بالأساس - على إعادة تفسير النصوص الواردة في الكتاب المقدس (التوراة والإنجيل)، والقرآن الكريم. وهي عملية غامضة، وغير واضحة، فيما يتعلق بما تدل علية عملية (إعادة تفسير النصوص).

وقد سارت العملية بشكل منظم ورعاية جهات عليا، سواءَ على مستوى الدولة، ممثلة بوزارة الخارجية الأمريكية، ومستوى الجامعات الراقية، مثل (هارفارد)، و(بنسلفانيا)، من خلال مراكز أبحاث متخصصة، فتم استدعاء وجمع رجال دين من كل الطوائف، مع رجال سياسة بمختلف الاتجاهات، وكان العمل على وضع كتاب يحضى بالقدسية لدي الجميع،

وإهمال كل ما جاء في الكتب السابقة، وكل ما يثير الاختلافات - على حد زعمهم-. وتقول الباحثة هدى جمال الدين بأن رجال الطرق الصوفية، من كل الطوائف، كانوا المفضلين للدعوة في كل الاجتماعات واللقاءات والنقاشات الدائرة.

وقد تم إنشاء مراكز لتدريب الشباب - خصوصاً في أمريكا والمانيا، وبعض الدول الأوروبية- على بعض الشعائر الجديدة، وأهمها الصلاة المشتركة بين كل الطوائف، على أسس روحية جديدة. وكما عبر عن ذلك المفكر الأمريكي الشهير (فوكوياما)، عام (٢٠١٠م)، وسمى العملية بـ(صهر الأديان)، في حين صرح الرئيس الأمريكي الأسبق (أوباما)، عام (٢٠١٣م)، عند زيارته لبعض الدول في الشرق الأوسط، فقال "بأن الدين الإبراهيمي دين عالمي واحد"، في حين صرح الرئيس السابق (ترامب) بأن عملية التطبيع بين إسرائيل والدول العربية تدخل ضمن المفاهيم الإبراهيمية!.

إن التركيز على منطقتنا هذه يكمن وراءه هدف سياسي، ألا وهو تدويل المناطق الواقعة ضمن حدود إسرائيل الكبرى، ثم ربطها باتحاد فيدرالي واحد، تكون إسرائيل أهم قطب فيه، ذلك أن إبراهيم (ع) يلعب دوراً أساسياً في المعتقد الإسرائيلي – اليهودي، كونه أول من بشّر بحدود إسرائيل الكبرى، كما سنرى!، (علماً أن لا حدود لإسرائيل الحالية، في الدستور الإسرائيلي).

وتقوم العملية على إعادة كتابة التاريخ بما يضمن قبول إسرائيل، خصوصاً عند الشعوب العربية، ولهذا يركز العاملون في المشروع على أنه صراع هوية بين طوائف مختلفة، على حد زعمهم، وليس صراعاً سياسياً، كما عبر عن ذلك السيد (كوشنر)، مستشار الرئيس الأمريكي السابق (ترامب)، وصهره، وأن الموارد الأساسية، وهي: الأرض، والماء، والثروات المعدنية، ستكون تحت أيدي الجميع، ومتاحة لهم!.

والآن لنرجع إلى سيرة إبراهيم (ع) في كل من الكتاب المقدس والقرآن الكريم، لنرى أن كل هذه الأفكار تصب في ما روته التوراة عن إبراهيم (ع)، وإهمال الرواية القرآنية بصورة شبه كاملة، وأن الاستناد إلى فكرة (التوحيد) المشتركة مجرد سراب تستتر خلفه مجمل العملية، إما عن سوء فهم، وهو احتمال ضعيف، والاحتمال الأقوى، هو خدمه الغرض السياسي، الذي نوهنا إليه آنفاً.

ولا يعتقد القارئ أننا بتوجهنا هذا نرمي إلى زرع الخلاف والضغينة بين أتباع الديانات الثلاث، فالدعوة الإسلامية بعد اكتمالها تقوم على أسس متينة، مثل {لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ}(الكافرون)، وقوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى

وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ}(١٧/ الحج).

فالنهج العقائدي المعادي للآخر ليس له وجود في القرآن {وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ}(١٩٠/ البقرة)، وأما ما جاء عن الاختلافات العقائدية، فهو أمر حتمي لبيان الفكر التوحيدي ضمن التصور الإسلامي، بعيداً عن العنصرية، أو اللغة والانتماء القومي.

والآن لنرجع إلى تباين سيرة إبراهيم في الكتاب المقدس عما هي عليه في القرآن الكريم، لنرى أن مصطلح الإبراهيمية غير واقعي، ولا يمكن الخلط بين السيرتين. ولن نخوض في مصداقية النصوص التوراتية، فذلك شأن آخر.

تبدأ سيرة إبراهيم (ع) في (سفر التكوين)، وقد كان اسمه (أبرام) في رحلة مع أبيه تارح، وزوجته ساراي، وابن أخيه لوطاً، تجاه (حران) (جنوب تركيا الحالية)، ثم إلى أرض كنعان (فلسطين)، "وأخذ تارح أبرام ابنه، ولوطاً بن هاران، من أور الكلدانية (جنوب العراق) حفيده، وساراي كنته امراة أبرام ابنه، فخرج معهم من أور الكلدانيين ليذهبوا إلى أرض كنعان، فجاؤوا إلى حران، وأقاموا هناك"(١١/٣١، التكوين)، ولا تقدم التوراة أي تبرير لهذه الرحلة، عقائدياً أم مادياً، أو لهذا المسار المتعرج!، ويبدو أن تارح إما توفي في (حران)، أو بقي هناك.

وبعدها يقول الرب لأبرام: "ارحل من أرضك وعشيرتك وبيت أبيك إلى الأرض التي أريك، فأجعلك أمة عظيمة، وأباركك، وأعظم اسمك، وتكون بركة، وأبارك مباركيك وألعن لاعنيك، ويتبارك بك جميع عشائر الأرض"(٢١-٣، ٢ التكوين)، أي إنه مكث في (حران)، ثم اتجه بعدها إلى أرض كنعان، وبعد الوصول "تراءى الرب لأبرام وقال: لنسلك أهَبُ هذه الأرض"(١٢/ ٧، التكوين).

وإ لى هذه المرحلة تبقى العلاقة ثنائية بين أبرام والرب، حيث يبني أبرام مذبحاً (رمزاً لترضية الرب)، ولا توجد أدنى إشارة لدعوة أهل كنعان للتوحيد، وترك عبادة الأصنام، وعبادة الله الواحد.

ثم تتركز فكرة الأرض الموعودة، وتختفي فكرة دعوة التوحيد بالكامل، أو نبذ الأصنام، حتى تصل العلاقة إلى قول الرب "لنسلك أهب هذه الأرض، من نهر مصر إلى النهر الكبير، نهر الفرات"(١٥/ ١٨، التكوين)، وهي أرض يسكنها عشرة أقوام، تعددهم التوراة.

ثم يتحول اسم أبرام إلى إبراهيم، ويفرض الرب عهداً بينه وبين إبراهيم ونسله، فيقول الرب: "احفظ عهدي أنت ونسلك من بعدك جيلاً بعد جيل، وهذا هو عهدي الذي

تحفظونه بيني وبينكم، وبين نسلك من بعدك: أن يُختن كل ذكر منكم"(٩-١٠، ١٧، التكوين)!.

ولم نذكر كل تفاصيل قصة إبراهيم (ع) كما وردت في (سفر التكوين)، وركزنا على الجانب المتعلق بالمسألة مدار البحث (الإبراهيمية)، وعن العلاقة الثنائية بين الرب وإبراهيم، ووعد بأرض الغير يتكفله عهد ختان الرجال ولا غير!.

والمسيحية التي تؤمن بالتوراة، لا تروي في الأناجيل شيئاً عن إبراهيم (ع)، سوى أن "يوسف رجل مريم التي ولد منها يسوع الذي يدعى المسيح"(١٦، متى)، يتصل نسبه بإبراهيم، أي أنها تقر بالقصة التوراتية مع بعض التحويرات بشأن الربوبية.

وأما سيرة إبراهيم (ع) في القرآن، فتختلف عن سيرته في التوراة، في الهدف، ومعظم التفاصيل. فقد ورد ذكر إبراهيم (ع) موزعاً على أربع وعشرين سورة، وفي خمسة وثلاثين موضعاً، وشأنها شأن كل قصص الأنبياء في القران، لا تعير أهمية للظرفين الزماني والمكاني، حيث المغزى من قصص الأنبياء هو نشر التوحيد، ومحاربة الشر والفساد، والتفكير بقدرة الله وعزته وجلاله الذي ليس كمثله شيء.

فأساساً كانت دعوته بين قومه لمحاربة الوثنية {وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ}(٧٤/ الانعام)، وتصل الحالة إلى التبرؤ من قومه، لأنهم لم يتبعوا رسالته في التوحيد، ومن ضمنهم أبيه، وهنا تتبلور فكرة الهجرة نحو أمكنة أخرى لنشر رسالة التوحيد {قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّـهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّـهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّـهِ مِن شَيْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ}(٤/ الممتحنة).

بعدها ينتقل إبراهيم (ع) إلى مرحلة تحطيم الأصنام: {وَتَاللَّـهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ}(٥٨/ الأنبياء)، مما يعرضه لعقوبة الحرق بالنار، التي أنجاه الله منها.

وعلى ما يبدو فهذه الأحداث كانت في موطنه الأصلي، ثم نجاه الله إلى أرض كنعان، وهو ما لا تشير إليه التوراة. وبعدها اتجه إلى أرض فلسطين، كما جاء في قوله تعالى: {فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ}(٥٨/ الأنبياء)، وقبلها تبدأ دعوته لأحد ملوك المنطقة الذي يطلق عليه معظم أهل التفسير اسم (النمرود)، وقد حاججه إبراهيم (ع) في القصة المعروضة في القرآن. (وهذا الاسم (نمرود)، هو خطأ تاريخي لا أساس له من الصحة). ثم يذهب إلى أرض أجداده في الحجاز (مكة)، مع ابنه البكر إسماعيل (ع)، حيث

يعمل على إسكانه هناك، مع والدته (هاجر)، وهو ما جاء في قوله تعالى: {رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ}(٣٧/ إبراهيم)، أي إن الإسكان كان مقصوداً، وليس تركهما هناك إرضاءً لزوجته سارة. فكانت الرسالة هناك نشر التوحيد، وبناء الكعبة، {وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ}(١٢٧/البقرة). ولا توجد أدنى إشارة إلى ذهابه إلى (مصر)، ومقابلته لفرعون، الذي يعجب بجمال زوجته (سارة)، وعندما يخبره إبراهيم (ع) - حسب ادعاء التوراة - أنها أخته، يتركهما ليرجعا إلى أرض كنعان (١٢/١٢، التكوين)، حيث تحدث نفس القصة مع ملك الفلسطينيين (٢٠/١٢، التكوين)، الذي يؤكد له أن (سارة) أخته من أبيه. كما لا توجد أدنى إشارة توراتية إلى ذهابه إلى أرض أجداده، وبناء البيت الحرام.

من هذا المختصر القرآني، لا نلحظ أي دعوة لامتلاك أرض محددة بين النيل والفرات، أو أي مكان آخر، له ولذريته. وإنما هي دعوة عقائدية بالتسليم لرب العالمين، ونشر التوحيد، بقوله: {رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ}(١٢٨/البقرة).

وعليه، فإن الخلط بين السيرتين، والخروج بسيرة جديدة، تمثل إبراهيم (ع) وفكره، مجرد خطل فكري، وخلط غير متجانس عقائدياً، يكمن خلفه هدف سياسي، أو التمهيد لقبول بعض الأفكار السياسية بغطاء عقائدي.

وكما ذكرنا، فإن الاختلاف في السيرتين لا يدعو إلى تعميق الخلافات الاجتماعية بين أتباع الديانات الثلاث، ولا علاقة له بإثارة المشاكل السياسية، كما يدعي البعض، ولا يمنع من أن يحيا كل على دينه. فسيدنا عمر (رض)، سمح لليهود بالسكن في (أورشليم = القدس) بعد فتحها (١٦هـ)، كما رحب النصارى به. وكذلك، فإن (صلاح الدين الأيوبي)، عندما فتح بيت المقدس (٥٨٣هـ)، سمح لليهود بالإقامة بها مع سكانها الأصليين من المسلمين والنصارى، ولم يتعرض لهم بسوء. والأمثلة كثيرة جداً.

إن الدعوة الإبراهيمية - بصورتها المطروحة - لن تعمل على التقريب بين أصحاب الأديان الثلاث، لأنها دعوة غير متجانسة. وإلغاء موروث فكري كامل، عملية فاشلة تماماً، لأنها ستؤدي إلى نقاشات، وإحياء خصومات، ستزيد من تفاقم الخلافات السياسية، ولا تؤدي إلى حلها❐

من الوحي إلى العصر

عمار وجيه

✍ بهدف الانتفاع من آيات القرآن، وتوظيف النصوص، لفهم واقعنا المعاصر، سنقدم سلسلة تندرج تحت عنوان التدبر لكتاب الله، نعرضها بما يلائم عصرنا، راجين أن ننتفع بما نقول.

أولاً: من سورة الملك:

﴿وَقالوا لَو كُنّا نَسمَعُ أو نَعقِلُ ما كُنّا في أصحابِ السَّعيرِ﴾ [الملك: ١٠]

من منطلقات يصفونها (إنسانَية)، يُشفق بعض المسلمين على غيرهم، ويتساءلون: لماذا سيكون مصيرهم النار؟. وفي كل مرة يقال: هل يعقل أن يكون مكتشف الكهرباء، ومحركات السيارات، والطائرات، والسليكون، الذين قلبوا العالم رأساً على عقب، هل يُعقل أن يكونوا في النار، بعد كل تلك الخدمات الجليلة؟

الجواب:

١ .لا نحن يحق لنا أن ندعي أنهم في النار، ولا غيرنا يمكنه أن يدخلهم الجنة: ﴿... وَإِنّا أو إِيّاكُم لَعَلى هُدًى أو فِي ضَلالٍ مُبينٍ. قُل لا تُسأَلونَ عَمّا أَجرَمنا وَلا نُسأَلُ عَمّا تَعمَلونَ. قُل يَجمَعُ بَينَنا رَبُّنا ثُمَّ يَفتَحُ بَينَنا بِالحَقِّ وَهُوَ الفَتّاحُ العَليمُ﴾ [سبأ: ٢٤-٢٦]

٢ .إنما الأعمال بالنيات. فمن خدم أهل الدنيا للدنيا كوفيء فيها. وما دام لم يؤمن بالآخرة، فلماذا يستغرب إن حرم من خيرها، وعوقب على كفره بمن خلقه؟

من لا يصغي لتحذير الخبراء من التماس الكهربائي، ويصرّ على أن يحمّل أجهزته فوق طاقتها، لا يحق له أن يلوم غيره إن احترقت غرفته وهو يلعب ألعاب الكومبيوتر.

٣ .المطلوب من كل إنسان أن يسمع ويعقل. فما دام هناك من يحذرك في كل حين، ويقول لك حذارِ من السقوط في الهاوية،

-فلماذا لا تسمع؟ ﴿... وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبكُم بَعضُ الَّذي يَعِدُكُم إِنَّ اللَّهَ لا يَهدي مَن هُوَ مُسرِفٌ كَذَّابٌ﴾ [غافر: ٢٨]

ما الذي يضرك إن أصغيت واستمعت؟

-وإن لم تقتنع بالاستماع للدعاة، ففي الأقل استخدم عقلك وتفكر.

وإلا فما معنى أن تنتفع من كيمياء التصوير، والعدسات، وتقنيات الكاميرة، وتجوب أعماق الغابات، وقعور البحور، لتصور تلك الكائنات العجيبة، وتنتج برامج عظيمة، مثل:(Planet Earth ، Life ، The blue Planet ، Life on Earth، National Geographic ، Deep Sea ، Life of Birds) ، ثم تتغافل عمن يسر لك كل ذلك، لتشكره وتعبده، لكنك في نهاية المطاف تعبد هواك ومصالحك الذاتية؟

كان ينبغي لكل غربي وشرقي ينتج تلك البرامج الرائعة، أو يشاهدها، أن يسجد لخالق الكون والكائنات، والأفلام والعدسات.. لا أن يكتفي بالقول: Amazing ... Wow ، ثم يأوي الى فراشه كالدواب، أعزكم الله، بلا سجود.

(سورة الملك) تجسد قدرة القدير، ورحمته..

أولها: ينبوع لا نفاد له، تبارك من فجّره في كل حين: ﴿تَبارَكَ الَّذي بِيَدِهِ المُلكُ وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيءٍ قَديرٌ﴾ [الملك: ١]

وآخرها: تهديد بتجفيف ذلك النبع: ﴿قُل أَرَأَيتُم إِن أَصبَحَ ماؤُكُم غَورًا فَمَن يَأتيكُم بِماءٍ مَعينٍ﴾ [الملك: ٣٠]

وما بين الحياة والموت.. وما بين الريّ والجفاف، مسيرة نسيرها لهدف معلوم: ﴿هُوَ الَّذي جَعَلَ لَكُمُ الأَرضَ ذَلولًا فَامشوا في مَناكِبِها وَكُلوا مِن رِزقِهِ وَإِلَيهِ النُّشورُ﴾ [الملك: ١٥]

فهل سمعنا وعقلنا؟

ثانياً: من سورة القلم :

{وّدوا لو تدهن فيدهنون}!

في الحلقة الأولى أردنا أن نوصل رسالة مختصرة أن من أهم مقاصد (سورة الملك) الاهتمام بمخرجات السمع؛ الإصغاء للوحي، والنصح والإرشاد، ومخرجات العقل؛ التفكر والتدبر والتأمل في نواميس الكون وسنن الحياة.

وإذا كانت (سورة الملك) تتحدث عن الذات الإلهية، فتنقلنا من دلائل الربوبية؛ الملك الذي لا حدود له، والقدرة المطلقة، إلى الإنقياد لله تعالى، والالتزام بأوامره ونواهيه، التي فيها خيرنا وصلاحنا ﴿قل هو الرحمن آمنا به وعليه توكلنا فستعلمون من هو في ضلال مبين﴾ [الملك: ٢٩]،

فإن (سورة القلم) تسلط الضوء على الذات المحمدية، الموصوفة بكمال الأخلاق: ﴿وإنك لعلى خلق عظيم﴾ [القلم: ٤]

فسيدنا محمد - عليه الصلاة والسلام - المتربع على عرش القيم، بعث ليتمم مكارم الأخلاق. وأقصى ما يتمنى أعداؤه، وخصومه السياسيون، أن يقدم التنازلات، لينزل من القمة إلى السفح، فيستدرجوه إلى مراتع عبثهم! لكن هيهات، فهو الذي يدعو الناس لارتقاء ربوة الخلق، لا العكس، فمن شاء ارتقى، ومن شاء مكث في أسفل وادي المجون يرتع ويلعب.

وخصوم سيدنا محمد صنفان؛

الأول: أصحاب الفكر العبثي المفتقر للدليل، المنكرون للوحي، وهؤلاء سياسيون مداهنون، يسعون لاستمالة الدعاة، وتوريطهم، ليصلوا - في بادئ الأمر - إلى بقعة السراب في منتصف الطريق بين الحق والباطل، ثم ينزلقون إلى الباطل، بعد أن يتنازلوا عن مكارم الأخلاق: ﴿فلا تطع المكذبين. ودوا لو تدهن فيدهنون﴾ [القلم: ٨-٩]

وحقيقة هؤلاء الملأ أنهم لا يريدون التعايش السلمي، واحترام خصوصية كل فريق، بل الخضوع التام، ولسان حالهم يقول باطناً: إن لم تكن معي، فأنت ضدي.

والثاني: أصحاب السلوك الرديء الغليظ الجافي الفاحش:

﴿ولا تطع كل:

١ .حلاف،

٢ .مهين،

٣ .هماز،

٤ .مشاء بنميم.

٥ .مناع للخير،

٦ .معتد،

٧ .أثيم.

٨ .عتل،

٩ .بعد ذلك زنيم. أن كان ذا مال وبنين.
١٠ . إذا تتلى عليه آياتنا، قال أساطير الأولين﴾ [القلم: ١٠-١٥]

-وإذا كان الصنف الأول هم النخبة؛ أصحاب الفكر المناوئ، الذين يخططون لإجهاض مشروع الإصلاح، فإن الصنف الثاني - في الغالب - هم الأدوات التي تستخدم للضغط على دعاة الإصلاح.

- وإذا كان الصنف الأول مكذّبين أو ملحدين، فإن الصنف الثاني هو البوق المروج للإشاعات، باستخدام الحرب النفسية ﴿إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين﴾ [القلم: ١٥].

وبذا يتكامل جيش الظالمين؛ قائد خبيث مأزوم يخطط، وجندي غليظ ينفذ.

وكي لا تختلط الأمور على المواطنين في بلاد الإسلام، فإن (سورة القلم) تعلن الفرز الواضح بين أتباع صاحب الخلق العظيم، وبين أعدائه المجرمين: ﴿أفنجعل المسلمين كالمجرمين. ما لكم كيف تحكمون﴾ [القلم: ٣٥-٣٦]

ذلك لنفهم جيداً أن الغاية لا تبرر الوسيلة، وأن السياسة التي تجند كل عتل معتد أثيم، لتنفيذ جرائمها ضد حركات التحرر والاصلاح، سياسة مجرمة آثمة، ليست من الإسلام في شيء.

وكي تكتمل الصورة، فإن خاتمة السورة ترسم صورة ذهنية تعبر عن عمق الأزمة النفسية التي يعاني منها هؤلاء: ﴿وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم لما سمعوا الذكر ويقولون إنه لمجنون. وما هو إلا ذكر للعالمين﴾ [القلم: ٥١-٥٢].

لنفهم مدى ضحالة عقول التيارات السياسية التي تعادي نهج الإسلام، ورسول الإسلام، القائم على الإيمان والقيم والأخلاق العظيمة.

ثالثاً: من سورة الحاقة:

{ولا يحض على طعام المسكين}

مفردة (طعام)، في القرآن، وردت ٢٦ مرة بهذه الصيغة، وبمثل ذلك العدد بصيغ الفعل، أو المصدر، أو اسم الفاعل، ونحو ذلك. وفي اثنتي عشرة مرة يأتي الأمر بالإطعام، أو الحضّ عليه.

ومن المعلوم أن الطعام والشراب من الحاجات الضرورية، التي هي أساس في حفظ النفس، وهي الضرورة الثانية من الضروريات الخمسة؛ حفظ الدين، والنفس، والعقل، والنسل، والمال .

وفي هرم ماسلو تأتي الضروريات في قاعدة الهرم؛ التنفس والماء والطعام (الغذاء) والنوم والإخراج والجنس..

ولأننا نسلط الضوء على السورة الثالثة من جزء تبارك، وهي (الحاقة)، التي نصّت على سبب أو علة تعذيب الظالم أشد العذاب،إذ جاء فيها: ﴿إنه كان لا يؤمن بالله العظيم. ولا يحض على طعام المسكين﴾ [الحاقة: ٣٣-٣٤] أي إن هذا التنكيل نتيجة حتمية للكفر والجحود من جهة، والظلم والطبقية، من جهة أخرى.

نقول ذلك كي يفهم الشباب والناشئة أن الإسلام حرص، أشد الحرص، على العدالة الاجتماعية والتكافل الاجتماعي، ورتب كل ذلك العذاب على من يعبث بأقوات الشعوب.

وليدرك زعماء الشرق والغرب ما ينتظرهم من عذاب محتوم، حين يتخذ ساستهم، ورؤساء الشركات الكبرى فيهم، موضوع التلاعب بالقوت والضروريات مادة أساسية لتوسيع نفوذهم، وإدامته، وهم يحاكون تلك المقولة الآثمة لأحد القساة من ملوك حمير في اليمن: (جوّع كلبك يتبعْك).

والحقيقة أني ربما لم أجد سورة فيها مشاهد ذعر ورعب مثل (سورة الحاقة). وإذا كانت (سورة الملك) (تبارك) تجسّد اسم الله القدير، فإن (سورة الحاقة) تجسد اسم (الجبار).

تأملوا الآيات الثمانية الأولى:

﴿الحاقة، ما الحاقة. وما أدراك ما الحاقة. كذبت ثمود وعاد بالقارعة. فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية. وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية. سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية. فهل ترى لهم من باقية﴾ [الحاقة: ١-٨]

واسألوا أهل البلاغة عن دلالة كل مفردة فيها. أي هول! وأي ذعر، ترتجف له القلوب؟ الحاقة، القارعة، الهلاك، الطاغية، الريح الصرصر العاتية، القوم الصرعى، أيام العذاب ولياليها، أعجاز النخل الخاوية، الإفناء..

بل إن الآيات تترى وتتوالى، وإلى الآية ٣٧، وتستمر في إيقاعها المدوي، فيما عدا الآيات التي تتحدث عن نعيم أصحاب اليمين.

حتى إن الشهيد سيد قطب يصفها في (الظلال) بقوله: "هذه سورة هائلة رهيبة، قلَّ أن يتلقاها الحس إلا بهزة عميقة، وهي منذ افتتاحها إلى ختامها تقرع هذا الحس، وتطالعه بالهول القاصم، والجد الصارم، والمشهد تلو المشهد، كله إيقاع ملحّ على الحس، بالهول آناً، وبالجلال آناً، وبالعذاب آناً، وبالحركة القوية في كل آن!".

ومقصد تلك السورة المرعبة هو ما ذكرنا في أول المقال.. إنه جزاء من لا يـأمر، ولا يـدعو إلى إطعام المسكين.

ترى كم سيتحمل الاتحاد الأوروبي، والولايات المتحدة الأمريكية، وغيرهما، مـن مسـؤولية عن كل نفس جاعت في أفريقيا، وغيرها، نتيجة الجهل، والمرض، أو الحروب المفتعلة، وكـان بإمكانهم أن يحولوا دون ذلك؟

للأسف.. ذلك هو الوجه الآخر القبيح للحضـارة (العـوراء)، الـذي يسـميه أحـد الأسـاتذة العرب في (كاليفورنيا): ديمقراطية الترفيه.. على حساب ملايين الخلق، ممن كان قـدرهم أن يخلقوا في بيئات ظلمها الإنسان ذاته❐

أهلاً وسهلاً..!

بكر أبو بكر - فلسطين

✍ من الممكن أن نفتتح الدورة التنظيمية، أو الإدارية، أو السياسية.. أو الورشة، في عملنا بالتدريب والتعبئة، بعملية التعارف بين المشاركين في الدورة، وهي العملية المسماة أجنبياً (كسر الجليد)، وليس لدينا جليد! أو كسر الجمود. وهو مصطلح، كعشرات مثله، قد لا يتلاءم - صيغةً - مع البيئة العربية. فعلى سبيل المثال، يقول العربي: أثلجت أو بردت قلبي، أو صدري، أو حرتي، أو كبدي، بينما يقابله بالأجنبية (الإنجليزية أساساً): أدفأت صدري، وهما مصطلحان مقبولان في الثقافتين، وذلك لاختلاف البيئة الجغرافية، مما ينعكس على المصطلحات واستخدامها.

وفي عادات التعارف والترحيب عالمياً، يكتب د.محمد الجويلي، في (صحيفة العرب): أن عادة أهل **اليابان** – مثلًا- عندما يحيون أحداً، أن ينزعوا أحذيتهم من أرجلهم، بينما يرتمي **الهندوسي** على الأرض، أمام من هم أرفع منزلة منه، تحية لهم. ومن عادات بعض أهالي **الهند** أن يقبضوا بأيديهم على لحى بعضهم. ويقوم الناس في **الموزمبيق** بالتحية من خلال التصفيق بالأيدي ثلاث مرات، قبل قول كلمة (مرحباً). أما **الأوروبيون**، فيرفعون القبعات عن رؤوسهم، عند التحية. وفي بعض **جزر المحيط الجنوبية**، يرمي الصديق صديقه بجرة مملوءة بالماء، تحية له. وأغرب أنواع التحية عند **بعض جزر الفلبين**، عندما يرفعون قدم من يحيونه إلى وجوههم، ويمرغونها بها. وأمّا التحية التي يعتبرها الآخرون سلوكاً سيئاً،

فهي عند **قبائل التبت** - في آسيا، شمال جبال الهيمالايا -، وهي عبارة عن إخراج اللسان للضيف، تعبيراً عن الترحيب به، وهو تقليد يتبعونه منذ القرن التاسع في عهد الملك التبتي المعروف باسم (دراما لانغ)، الذي كان له لسان أسود.

وفي التأصيل العربي للبرودة في المقولة، أو المثل العربي الدارج (أبردت قلبي، كبدي...) التي تعني الراحة والاطمئنان، يقول الشاعر **بشار بن برد:**

إنْ بردت عن كبدي لوعةٌ طالت على القلب فلم تبرد

ويقول **جمال الدين بن مطروح**، من شعراء العصر العباسي:

بردت حرارة قلبك المشتاق لما دعوك وأسعفوا بتلاقِ

سكنَ الهوى بعد الخفوقِ وأخفقتْ سبلُ الأسى من قلبك الخفاق

ويقول د.غازي قهوجي، في مقاله (ثلج ونار)، مؤكداً ما ذهبنا إليه بالتحية برداً أم جليداً أم دِفئاً: يتداول الناس في شمال أوروبا، وسيبيريا، عبارات توهم السامع والقائل بالحرارة الساخنة؛ فيقال: (لقد أدفأ مجيئك صدري)، و(**أدفأت أخبارك صدري**)، بدل (أثلج وأثلجت)! والبلاد التي يندر فيها سطوع الشمس، بفعل الضباب والغيوم، كما في أوروبا بشكل عام، وخصوصاً بريطانيا، و(لندن) بالذات، فإننا نلحظ أن العديد من الأغاني الرومانسية الإنكليزية تقول: You are my sunshine، أي أنتِ وهج شمسي! وذلك مقابل أثلجت صدري عند العرب.

ومن هنا نقول: إن التعارف المرحاب هي الفكرة الأوضح للتعبير عن التخلص من حالة التوجس أو الخوف أو الترقب أو التردد أو القلق حين التقاء الأغراب، أو غير المتعارفين. وعليه، فإن العرب استخدمت البشاشة والترحيب والضيافة قولًا وفعلًا، ولم يكنِ هناك جليد ليكسروه! بمعنى أن الضيافة لدى العرب هي ما كانت بديل ما يسمونه غربياً كسر الجليد عندهم.

الضيافة العربية، أو الترحاب: (أهلا وسهلًا)، هي مدخل العربي الأصيل للتخلص من توتر اللقاء مع الأغراب (ولنا أن نفعل ذلك في دوراتنا، ولقاءاتنا)، وعبر إظهار الكرم، وحُسن الضيافة (كرم البشاشة، والضيافة بالطعام والشراب، والإقامة والقهوة...)، فظهر مصطلح عربي قصير للترحيب والتقدير معًا هو: أهلاً ومرحبًا، أو أهلًا وسهلًا، المأخوذ من عبارة: حللتَ أهلًا ووطئت سهلًا.

أهلاً: أي صادفتَ أهلاً، لا غُرباء.. فهم أهلك، وتعرفهم ويعرفونك، وهم سعداء برؤيتك.

وسهلاً: أي وطئتَ موطئاً سهلاً ؛ كنايةً عن الترحاب، أي دخلت مكاناً مُرحبٌ بك فيه.

ومرحباً: أي صادفتَ سَعةً؛ لأن معنى الرحب: السعة.

ومن **عبارات الترحيب بالضيوف، السائدة عند العرب** اليوم، خاصة في الجزيرة العربية: قولهم: (يا هلا بكم، من ممشاكم إلى ملقاكم)، و(حياكم الله، وحيا من حضر، حياكم عداد الشجر والحجر)، و(أسفرت وأنورت، واستهلت وأمطرت)، و(بالسنة عيدين، وهذا الثالث)، و(يا هلا، ويا غلا، عداد ما بين الأرض والسما)... إلخ.

وفي النموذج الثقافي الإسلامي الحضاري، ولغرض التقريب بين القلوب، وتحسين التواصل والتعارف والترحاب، كان السلام، أو الترحيب، هو بعبارة: السلام عليكم، أو: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، لما للعبارة من تأثير نفسي بردم هوة التوجس، وبالمحبة والقرب. والسلام أصل التحية، وما أصبحت تسمى به.

وللتحية أحكام وآداب في الثقافة العربية والإسلامية، إذ يكون الأفضل في الابتداء بالسلام أن يسلم الصغير على الكبير، والماشي على الجالس، والراكب على الماشي، والقليل على الكثير.

ونحن (في دوراتنا) كنموذج للتعارف وحسن الاستقبال، وبعث شعور التقارب والمودة، ولنقل الدفء؛ اقتباساً من معنى الدفء ضد البرد هنا (وليس السخونة أو الحر)، نقول: أهلًا بكم وسهلًا، فالافتراض هو ذلك، لا الافتراض بوجود جمود، أو جليد، أو صعوبة!

وقد تكون لنا آلية بسيطة (والآليات كثيرة) مثل: اذكر اسمك وعملك (دراستك)، وهدف إلى ثلاثة ستحققها حتى آخر العام هذا، ولونك المفضل، وأفضل صفة فيك، وآخر كتاب قرأته، وأجمل بيت شعر تحبه.. مثلاً، ونجعل المشاركين يقومون بالحوارات والنقاشات وبعض التمارين النفسية، أو الذهنية، أو حتى الجسدية، كل هذا لغاية إحداث التقارب والتواصل.

الفكرة التي نود تكريسها، من كل ما سبق، هي أن الكثير مما نتلقاه من أفكار وقيم ثقافية مختلفة، قد لا تكون دقيقة في التعبير عن البيئة الجغرافية التي نعيشها، ناهيك عن البيئة الحضارية في سياقات أخرى، مضافًا لذلك أهمية الارتباط الثقافي الحضاري، والاعتزاز بلغتنا وبموروثنا وحضارتنا، مع الاحترام للحضارات الأخرى، وأهلًا وسهلًا بكم دومًا❐

صفات مرتكبي
الجريمة الإلكترونية وخصائصهم

المحامية والمستشارة/ مريم عبد الرحمن

✍ نتحدث في هذه المقالة عن صفات مرتكب الجرائم الإلكترونية، التي تنوعت الدراسات حول تحديد المجرم، وشخصيته، ومدى جسامة جرمه، كأساس لتقدير العقوبة. ويكمن السؤال في حالتنا: كيف يمكن تقدير العقوبة، في حالة مجرم الكمبيوتر والإنترنت؟ وهل هناك أنموذج محدد للمجرم المعلوماتي؟ بالتأكيد لا يمكن أن يكون هناك أنموذج محدد للمجرم المعلوماتي، وإنما هناك سمات مشتركة بين هؤلاء المجرمين. ويمكن إجمال تلك السمات فيما يأتي:

١. مجرم متخصص، له قدرة فائقة في المهارة التقنية، ويستغل مداركه ومهاراته في اختراق الشبكات، وكسر كلمات المرور، أو الشفرات، ويسبح في عالم الشبكات، ليحصل على البيانات والمعلومات الموجودة في أجهزة الحواسب، ومن خلال الشبكات.

٢. مجرم يعود إلى الإجرام. فما يميز المجرم المعلوماتي أنه يعود للجريمة دائمًا، فهو يوظف مهاراته في كيفية عمل الحواسيب، وكيفية تخزين البيانات والمعلومات، والتحكم في أنظمة

الشبكات في الدخول غير المصرح به مرات عدة. فهو قد لا يحقق جريمة الاختراق بهدف الإيذاء، وإنما نتيجة شعوره بقدرته ومهارته في الاختراق.

٣. مجرم محترف، له من القدرات والمهارات التقنية ما يؤهله لأن يوظف مهاراته في الاختراق والسرقة والنصب والاعتداء على حقوق الملكية الفكرية، وغيرها من الجرائم، مقابل المال.

٤. مجرم ذكي، حيث يمتلك من المهارات ما يؤهله للقيام بتعديل الأنظمة الأمنية وتطويرها، حتى لا تستطيع أن تلاحقه وتتبع أعماله الإجرامية من خلال الشبكات، أو داخل أجهزة الحواسيب. فالإجرام المعلوماتي هو إجرام الذكاء، ودونما حاجة إلى استخدام القوة والعنف، وهذا الذكاء هو مفتاح المجرم المعلوماتي لاكتشاف الثغرات واختراق البرامج المحصنة.

ويمكن إجمال القواسم المشتركة بين هؤلاء المجرمين في عدة صفات، ولا يزال الخلاف حول مفاهيم الجريمة المعلوماتية، والجرائم المستحدثة بصفة عامة قائماً، وذلك فيما يأتي:

١. عادة ما تتراوح أعمار تلك الفئة من المجرمين ما بين ١٨ - ٤٥ عاماً.

٢. المهارة والإلمام الكامل، والقدرة الفنية الهائلة في مجال نظم المعلومات. فمجرمي تلك الفئة ينتمون إلى طبقة المتعلمين والمثقفين، ومن لديهم تخصصية التعامل مع أجهزة الحاسب الآلي، والقدرة على اختراق التحصينات والدفاعات التي تعدها شركات البرمجة.

٣. الثقة الزائدة بالنفس، والإحساس بإمكانية ارتكابهم لجرائمهم دون افتضاح أمرهم.

٤. الإلمام التام بمسرح الجريمة، وبأدواته، وبما يجنبهم فجائية المواقف التي قد تؤدي إلى إفشال مخططهم، وافتضاح أمرهم.

وتتعدد أنماط الجناة في الجريمة المعلوماتية، فهناك (الهاكرز)، وهم عادةً مجرمون محترفون، يستغلون خبراتهم وإمكانياتهم في مجال تقنية المعلومات، للتسلل إلى مواقع معينة؛ للحصول على معلومات سرية، أو تخريب وإتلاف نظام معين، وإلحاق الخسائر به، بقصد الانتقام أو الابتزاز، سواء كان من الهواة أو المحترفين. وهناك (الكراكرز) وعادةً ما يستخدم مجرمو هذا النمط قدراتهم الفنية في اختراق الأنظمة والأجهزة تحقيقاً لأهداف غير شرعية، كالحصول على معلومات سرية، أو للقيام بأعمال تخريبية. وهناك العابثون بالشفرات، ومؤلفو الفيروسات.

وقد يهدف المجرم المعلوماتي من جريمته إلى تحقيق مكاسب مادية معينة، أو إثبات مهارته الفنية، وقدرته على اختراق أجهزة الحاسب، وقد يرتكب مجرمو هذه الفئة

جرائمهم بهدف التسلية أو الترفيه، أو لمجرد الرغبة في الإضرار بالغير؛ كالموظف الذي يتم فصله من وظيفته، ويلجأ إلى الانتقام.

وهناك عدة خصائص للجريمة الإلكترونية؛ وهي:

١. جرائم ترتكب عبر شبكة الإنترنت، أو عليها.

٢. أداة ارتكابها هو الحاسوب.

٣. الجريمة الإلكترونية لا تعرف الحدود الجغرافية، فهي كثيراً ما تكون ذات بعد دولي.

٤. صعوبة اكتشاف الجرائم الإلكترونية وإثباتها (الاسم المستعار، مقاهي الإنترنت، لا تترك أثراً مادياً، بسبب الحذف خلال ثوان).

٥. مرتكبها ذو معرفة فنية.

وللجريمة الإلكترونية مسميات؛ وهي:

١. جرائم الحاسوب والإنترنت.

٢. جرائم التقنية العالية.

٣. الجريمة الإلكترونية.

إذن، الهدف من الجرائم الإلكترونية؛ هي التمكن من الوصول إلى المعلومات بشكل غير شرعي، كسرقة المعلومات، أو الاطلاع عليها، أو حذفها، أو تغييرها، بما يحقق هدف المجرم❐

مرافئ

حين تعيش السياسة في غير بيئتها

د.يحيى عمر ريشاوي

لعل ما يعيق تحقق الوظيفة الحقيقية للعمل السياسي في بلداننا المتخلفة، ليس مرتبطاً بماهية السياسة وحدها، بقدر ما هو مرتبط بالدرجة الأولى بالبيئة المحيطة بالعمل السياسي، وذلك كوسيلة مهمة لخدمة البلاد والعباد، فمحتوى وتقنيات العمل السياسي هي هي، سواء مارسنا العمل السياسي في (ستوكهولم) و(برلين)، أم مارسناه في (القاهرة)، أو (عفرين)!، فالذي يسهل قيام العمل السياسي بوظيفته الواقعية والحقيقية، تتمثل في وجود بيئة مهيئة ومساندة لها، الأمر الذي نفتقده نحن الساكنون في الكوكب الآخر! ضمن كوكبنا الصغير، المسمى بالكرة الأرضية.

فالسياسة تحتاج أول ما تحتاج، إلى بيئة دستورية وقانونية، تكون بمثابة حصن حصين في وجه من أراد استغلالها والتلاعب بها، أو أراد أن يستغلها لأغراضه الشخصية.. في البلدان التي تتمتع بسمعة طيبة في دساتيرها المدونة القوية، وقوانينها المطبقة والسوية، نادراً ما تستغل السياسة لتحقيق الأغراض الشخصية والفئوية والحزبية، فحين يكون الحكام والقضاة في المؤسسات العليا بعيدين عن الأجندة السياسية، وحين يشعر المواطن أن القانون يحميه ولا (يرميه!)، فإن العمل السياسي سيصب في خانة خدمة الجميع، لا فئة أو جماعة معينة.

إلى جانب ذلك، فإن العمل السياسي ينتعش وينمو في بيئة واعية ومدركة لأهمية العمل السياسي. فالبلدان التي عملت من أجل رفع مستوى التوعية لدى مواطنيها، في المفاهيم الديمقراطية وغيرها، تتقبل الفوز والخسارة، والرأي والرأي الآخر، ويوم لك ويوم عليك.. التداول السلمي للسلطة، ثقافة وسلوك حكم، ينتقل من الفئة الحاكمة، مروراً بالأحزاب ومؤسسات الدولة، حتى يصل إلى المواطنين والناخبين، بمعنى أنه كلما زاد المستوى التعليمي والثقافي للمواطنين، فإن درجة تفهمهم لطبيعة العمل السياسي تنمو وترتفع.. ونظرة إلى البيئات السياسية من حولنا خير شاهد ودليل.

وإلى جانب هذا وذاك، فإن البيئة السياسية السوية مرتبطة أشد الارتباط بفلسفة فصل السلطات التشريعية والتنفيذية والقضائية، صحيح أن الذين يتسنمون مقاليد الحكم في السلطتين التشريعية والقضائية سياسيون، أو ممثلون للتيارات والأحزاب السياسية، ولكن السياسي المقلد لمنصب برلماني، عليه أن يقوم بعمله كمراقب للسلطة والحكومة، لا كبوق لحزبه والسلطة الحاكمة، وكذلك شأن السياسي المقلد لمنصب وزاري أو حكومي.

ولا يفوتني أن أنوّه إلى أن السياسة السليمة ربما بإمكانها أن تخلق بيئة مساندة ومساعدة لها، ولكن الغالب دائماً، أن البيئات القانونية والدستورية والتوعوية السليمة تدفع بالعمل السياسي إلى الأمام، وتحفظه من الانحراف عن مساره الحقيقي والصحيح❐

لقـاء

- الأستاذ الدكتور صباح محمد نجيب البرزنجي	أجرى اللقاء: صلاح سعيد أمين

الأستاذ الدكتور صباح محمد البرزنجي:

الأمة الكوردية أمة عريقة في هذه المنطقة، لها دورها الحضاري والتاريخي في خدمة الإسلام وقضاياه

أجرى اللقاء: صلاح سعيد أمين

✍ أجرت مجلة (الحوار) هذا اللقاء مع الأستاذ الدكتور صباح محمد نجيب البرزنجي، وهو قامة علمية معروفة، وسلط الدكتور الضوء على دور الأمة الكوردية في الحضارة الإسلامية، وأشار إلى الأسباب التى أدت إلى ظهور العلوم الإسلامية في العالم الإسلامي. كما أجاب سيادته عن أسئلة أخرى متعلقة بالعلوم الإسلامية.

- **الحوار: كيف نعرف العلوم الإسلامية عموماً؟**

- الدكتور صباح البرزنجي: مع وضوح المصطلح إلا أن فيه إشكالية كبيرة، كيف يوصف علم بأنه إسلامي، مع أن العلم بماهيته لا ينحاز لدين معين، أو دعوة معينة؟! فالعلم كشف للواقع، والصفة الدينية، أو الإيدولوجية أمر اعتباري ذاتي، إلا إذا افترضنا أن النسبة بين العلم والإسلام هي نسبة عارضة، باعتبار الإسلام هو المُلابس الأول لذلك العلم، أي العلوم التي لابست الإسلام في ظهورها، ونشأتها، وتطورها، وهذه الإشكالية الأولى. أما الإشكالية الثانية، فهي أن كل علم من العلوم بالإمكان نسبته إلى الإسلام، لأن العلوم - في غاياتها، ومقاصدها، وفي كونها مرايا للواقع التكويني والتشريعي والقيمي - كلها إسلامية، بمعنى أنها تنطلق من مبادئ إسلامية، وتتغيى غايات إسلامية، فبأي معيار نصنفها إلى إسلامية وغير إسلامية؟ وحلّ الإشكالية إنما يكون بملاحظة أن العلوم الإسلامية هي التي أبدعها المسلمون لخدمة دينهم، والدعوة إليه، وهي - بهذا المعنى - تنسب إلى الإسلام، باعتبار أن المجتمع الإسلامي هو الحاضن المباشر لها، و هو المعني - أولاً وآخراً- بتطويرها، والتجديد والإبداع فيها. وبعد حل الإشكاليتين، نستطيع القول:

إن العلوم الإسلامية هي العلوم التي نشأت وتطورت وتنوعت في إطار الحضارة الإسلامية؛ كالفقه، والأصول، والتفسير، والحديث، والأخلاق، والحكمة، أصولاً وفروعاً، منقولةً ومعقولةً، آليةً وغائيةً، سواء في ذلك العلوم التي هي صرفاً من منجزات هذه الحضارة، والأخرى التي تلقاها المسلمون من غيرهم، فأجالوا النظر فيها، وانتقوا منها، وطوروها، ونقلوها إلى غيرهم.

- **الحوار: كيف ظهرت العلوم الإسلامية في بداياتها؟ وما هي أسباب ولادتها في العالم الإسلامي؟**

- الدكتور صباح البرزنجي: العلوم الإسلامية، في بداياتها، كانت بذوراً، فجذوراً، ثم سيقاناً وجذوعاً وأشجاراً وثماراً يانعة. شأنها في ذلك شأن كل العلوم في كافة الحضارات، ظهورها خاضع لمتطلبات الحياة الاجتماعية، وتلبية لحاجات حيوية تزامنت مع نشر هذا الدين، والتفاعل مع نصوصه وأحداثه ووقائعه، وامتثالاً للأمر الإلهي والنبوي بالعلم والتعلم والتعليم، وكونها لازمة من لوازم قراءة الكون والحياة، وقراءة الوحي، والتدبر في آياته الأنفسية والآفاقية. في البداية كان الفقه في الكتاب، والعلم بالسنة، والآثار، والسيرة، وما يتصل بها من أخبار الجاهلية، والفترة الانتقالية، فظهرت العلوم ظهورا طبيعياً، وبدافع

ذاتي إيماني وعقدي، وضرورة اجتماعية، وبتوجيه مباشر من النبي - صلى الله عليه وسلم ، مثلما حصل مع تأويل الآيات، وتفسيرها، وحفظها، وتدبرها، واستنباط الحكم منها (بذور الفقه الإسلامي)، ومن الخلفاء الراشدين؛ الذين تولوا نشر هذا الدين بوسائله المتاحة، ومن أهمها الفقه في الدين. وبعد ذلك انتقل الإرث الحضاري من الصحابة إلى التابعين، ومنهم إلى من بعدهم، إلى أن حان عصر التدوين، ودخلت الأمم المتحضرة الأخرى في رحاب الدعوة الإسلامية، وحملت معها معارفها ومواريثها الفكرية واللغوية، فحصل تلاقح معرفي مع الموضوعات والحقائق الشرعية، وظهرت العلوم الإسلامية، فنشأت الأصول في أحضان الفروع، كما نشأت الفروع في كنف السنة النبوية والراشدة.

أما الأسباب، فكثيرة، نوجزها كالآتي:

١. الدعوة الإسلامية دعوة قائمة على العقل والتفكير، وهما أمران مرتبطان بالعلم، ولا فكاك بينهما، فلا يمكن أن تكون مسلماً وجاهلاً في الوقت نفسه، فالإسلام يفرض على كل مسلم أن يتعلم ثم يعلم، يتعقل ثم يفكر، ليكون المسلم له الريادة في ميدان الحياة، ومتفاعلاً مع الحق الثابت والتكليف الحي.

٢. حفظ الدين كامن في حفظ نصوص القرآن والسنة والسيرة، وتلك أمور لا مناص من وضع ضوابط علمية، وقواعد أساسية، لها. وهذه الضوابط، والقواعد، هي اللبنات الأولى لوضع العلوم، وتأسيسها.

٣. الحياة السياسية، والاجتماعية، في أي مجتمع، بحاجة إلى مؤسسات، وتنظيمات، وتدبيرات. وكل منها بحاجة إلى علوم من جنسها، ومن سنخها. من هنا ظهرت علوم الإدارة، والمالية، واحتاج المسلمون إلى معرفة الحساب، والأوزان، والمقادير.

٤. الاجتهاد في الدين دعاهم إلى إبداع الفقه، والأصول، والقواعد والضوابط الفقهية.

٥. الجدل مع الخصوم أعوزهم إلى معرفة قوانين الجدل، والمنطق، وآداب الحوار.

٦. فهم الأمم، والأفكار، والملل والنحل، دفعهم إلى معرفة التاريخ، وفلسفته، وعلم الأديان، والفرق، والفلسفات الوافدة .

٧. الترويح عن النفس، وتنشيط الذهن والقريحة، وشحذ المواهب، كل ذلك دعاهم إلى ابتكار فنون الأدب، والمسامرة، والإيقاعات، والمقامات، والزخارف، والمعماريات الراقية.

٨. مجاراة الأمم، والسعي إلى الريادة الحضارية، شجعهم على معرفة علوم الملاحة البحرية، وصناعة السفن، والموانئ.

٩. بناء المدن والأمصار، كان سبباً للخوض في دقائق الفلسفة، والمناخ، والطبيعيات، والاهتمام بعلم الفلك، والمساحة.

١٠. الزراعة والصناعة والتجارة، وضرورة ضبطها بموازين الشريعة، وربطها بالمصالح والمقاصد الشرعية، فتحت آفاقاً واسعة للتعامل الواعي مع العلوم الخادمة لهذه الأمور.

- **الحوار: في هذا المضمار، ما هو حجم مشاركة علماء الكورد في العلوم الإسلامية، على وجه خاص؟**

- الدكتور صباح البرزنجي: الأمة الكوردية أمة عريقة في هذه المنطقة، لها دورها الحضاري والتاريخي في خدمة الإسلام وقضاياه، إلى جانب سائر الأمم والأقوام، ولها قصب السبق في كثير من المجالات العلمية، والإدارية، والسياسية، والعسكرية. ولا مجال هنا - في هذه العجالة - للتطرق والبحث في جزئيات الإسهامات الكوردية، فالمجال أوسع بكثير مما نتصور، فقد قدم الكورد نماذج ومنارات وقامات في كل مجال حيوي يتصل بالحياة والحضارة والعلوم والمعارف. لكنني آتي ببعض الأمثلة الحية في إسهامات علماء الكورد في حقول المعارف الإسلا مية، قديماً وحديثاً، فمن علماء الحديث (ابن الصلاح الشهرزوري)، الذي يعد أحد الأساطين والمنظرين الأوائل، وفي الفقه، وأصوله: (ابن كج الدينوري). وفي الكلام وأصول الفقه: سيف الدين الآمدي، وفي اللغة والأدب، تكفي الإشارة إلى ابن الحاجب الكوردي، وابن الأثير، وابن خلكان، والبيتوشي، والعوائل الحيدرية، والبرزنجية، والمردوخية، والبيرخضرية، والزهاوية، وما أكثرهم، وأشدّ تأثيرهم في رفد الجوانب العلمية بالمؤلفات القيمة؛ تصنيفاً وتأليفاً، وشرحاً وتحشية وتعليقاً. وفي مجال التصوف الإسلامي، يعد مولانا خالد الشهرزوري أحد المجددين للطريقة النقشبندية، في القرنين المنصرمين، بما توفر لديه من علم وعرفان ومقام ومكانة سامية بين أقطابها. وكذلك الشيخ معروف النودهي؛ بمساهماته العلمية، والأدبية، والروحية. ونجله البار (كاك أحمد الشيخ)، وإرشاده، وخدماته الجليلة، في مدينة السليمانية. ولا ننسى دور مدرسة بيارة الشريفة، في نشر العلوم والمعارف والأدبيات الراقية، والتي كانت محط الآمال لكل المسلمين، وفي الشام علينا الإشارة إلى مدرسة الشيخ (أحمد كفتارو) المتأصلة والمتدفقة بالعلم والعمل. والأمثلة كثيرة، لا يمكن الإحاطة بها جميعاً. ومن أراد التوسع في الموضوع، فعليه بمطالعة كتب الشيخ العلامة عبد الكريم المدرس، والشيخ العلامة بابا مردوخ الروحاني، والعلامة الشيخ طاهر البحركي، فقد أجادوا في تخليد أسمائهم ومآثرهم. وهذا الذي أوردته غيض من فيض.

- **الحوار: كيف تقيمون هذه المشاركة، أقصد مشاركة علماء الكورد في العلوم الإسلامية؟**

- الدكتور صباح البرزنجي: مشاركة علماء الكورد صفحات ناصعة، خالدة، نعتز بها، كماً وكيفاً. فقد أبدع العلماء الكورد في تطوير العلوم الإسلامية، وتأسيسها، وحفظها من يد الضياع والنسيان. وفي القرون الأخيرة من حياة الأمة، كان علماء الكورد هم أئمة العلوم الإسلامية في العراق، والشام، والحجاز، مثلما تشهد لهم آثارهم العلمية، ونتاجاتهم الأدبية، والروحية، فقد كان (الحيادرة) و(الزهاويون) أساتذة لعلماء العراق، ومن بعدهم حمل لواء الإفتاء كل من الشيخ القزلجي، والشيخ المدرس، والشيخ الباليساني، وهم من أعلام الكورد.

وفي الشام كان للشيخ الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي، وقبله والده الملا رمضان، الأثر الكبير في تربية العلماء، وإرشاد الناس. ولا ننسى ما لـ(مجمع النور)، الذي أسسه الشيخ أحمد كفتارو، من متانة، وأصالة، وقوة علمية، وتأثير.

وفي الحجاز، كان للسيد محمد ابن بابا رسول البرزنجي المدني، فضل لا يدانى في مجالات العقيدة، والتصوف، والذب عن الإسلام والمسلمين، ما يشهد له القاصي والداني.

فالمساهمات الكوردية كبيرة، وكثيرة، ولا بد من الفحص والبحث والتحقيق المتزايد للوقوف عليها، في تأثيراتها، وتجلياتها العميقة.

- **الحوار: كلمة أخيرة تريدون التفضل بها؟**

- الدكتور صباح البرزنجي: لا بد لهذه الحركة العلمية، بكل بأبعادها المختلفة، من إحياء وتجديد، وإنقاذ لنصوصها وأسنادها من الضياع والتلف. لأن هذه الحركة شاهد عدل على حيوية الأمة الكوردية، وانتمائها العميق إلى الإسلام، وإلى الأمة الإسلامية الكبرى؛ الأمر الذي يزعج كثيراً من الناس المتربصين بهذه الأمة، فالواجب علينا - في هذه المرحلة - هو التعريف بهذه الإسهامات واحدة فواحدة، وعبر العصور المتلاحقة.

وشكراً لمجلتكم الزاهرة، والراقية، لاهتمامها بالأمر، وتسليط الضوء عليه، عسى أن تكونوا قدوة خير لغيركم، والله المستعان.

- **الحوار: شكراً جزيلاً، لإتاحة هذه الفرصة، ودمتم بخير.**

السيرة الذاتية

الأستاذ الدكتور صباح محمد نجيب حسن البرزنجي.

من مواليد ١٩٦٨/٨/١، قرية (نەوێ)، التابعة لمحافظة حلبجة. وهو من أسرة علمية، دينية، معروفة.

حامل شهادة الدكتوراه في الفقه وأصول التشريع الإسلامي، من جامعة طهران، عام ٢٠٠١م، وكانت أطروحته بعنوان: (حركة الفقه الإسلامي في مسيرة التاريخ).

أشرف على العديد من رسائل الماجستير وأطاريح الدكتوراه في الفلسفة الإسلامية، والشريعة، والقانون، والتاريخ.

كتب الكثير من البحوث العلمية، والفكرية.

شارك في عدة ندوات علمية، داخل وخارج إقليم كوردستان.

وهو عضو لعدة مراكز علمية، وهيئات تحريرية لمجلات علمية محكمة.

له مؤلفات باللغات الكوردية والعربية والفارسية، وله عدد من الترجمات❐

تأملات في سورة

- ذم التفاخر في سورة التكاثر	صالح شيخو الهسنياني

ذم التفاخر
في
سورة التكاثر

صالح شيخو الهسنياني

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ (١) حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ (٢) كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣) ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (٤) كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ (٥) لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ (٦) ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ (٧) ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ (٨)﴾.

تسميتها وعدد كلماتها:

سمّيت سورة التكاثر لمفتتحها.

عدد آياتها: ثماني آيات..

عدد كلماتها: ثمان وعشرون كلمة..

عدد حروفها: مائة وعشرون حرفاً..

مقدمة:

يقول سيد: "هذه السورة ذات إيقاع جليل رهيب عميق، وكأنما هي صوت نذير، قائم على شرف عال. يمد بصوته، ويدوي بنبرته. يصيح بنوّم غافلين مخمورين سادرين، أشرفوا على الهاوية وعيونهم مغمضة، وحسهم مسحور. فهو يمد بصوته إلى أعلى وأبعد ما يبلغ: ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ. حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾.

أيها السادرون المخمورون، أيها اللاهون المتكاثرون بالأموال، والأولاد، وأعراض الحياة، وأنتم مفارقون. أيها المخدوعون بما أنتم فيه، عما يليه. أيها التاركون ما تتكاثرون فيه، وتتفاخرون، إلى حفرة ضيقة لا تكاثر فيها ولا تفاخر.. استيقظوا وانظروا.. فقد ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ . حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾.

ثم يقرع قلوبهم بهول ما ينتظرهم هناك، بعد زيارة المقابر، في إيقاع عميق رزين:

﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾.

ويكرر هذا الإيقاع بألفاظه وجرسه الرهيب الرصين:

﴿ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ .

ثم يزيد التوكيد عمقاً ورهبة، وتلويحاً بما وراءه من أمر ثقيل، لا يتبينون حقيقته الهائلة في غمرة الخمار والاستكثار: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ﴾.

ثم يكشف عن هذه الحقيقة المطوية الرهيبة:

﴿لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ﴾.

ثم يؤكد هذه الحقيقة، ويعمق وقعها الرهيب في القلوب: ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ﴾[1]".

ترتيب السورة في المصحف:

(سورة القارعة- ١٠١، **سورة التكاثر - ١٠٢**، سورة العصر - ١٠٣).

مناسبتها لما قبلها (سورة القارعة):

الحديث في هذه السورة، متصل بما قبلها من الحديث عن القيامة، وعما يذهل الناس عنها، ويشغلهم عن الإعداد لها.. وهو المال، والتكاثر منه[2].

[1] - في ظلال القرآن: (٣٩٦٢/٦).

[2] - الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: (١٦٦٤/١٦).

هذه السورة واقعة موقع العلة لخاتمة ما قبلها؛ كأنه لما قال هناك: ﴿فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ﴾ [القارعة: ٩] قيل: لِمَ ذلك؟ فقال: لأنكم ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ﴾، فاشتغلتم بدنياكم عن دينكم، وملأتم موازينكم بالحطام، فخفت موازينكم بالآثام؛ ولهذا عقَّبها بسورة (والعصر)، المشتملة على أن الإنسان في خسر، بيان لخسارة تجارة الدنيا، وربح تجارة الآخرة؛ ولهذا عقَّبها بسورة (الهمزة)، المتوعَّد فيها مَن ﴿جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ، يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ﴾ [الهمزة: ٢- ٣][٣].

يقول البقاعي: "ولما أثبت في القارعة أمر الساعة، وقسم الناس فيها إلى شقي وسعيد، وختم بالشقي، افتتح هذه بعلة الشقاوة، ومبدأ الحشر، لينزجر السامع عن هذا السبب، ليكون من القسم الأول، فقال ما حاصله: انقسمتم؛ فكان قسم منكم هالكاً، لأنه (ألهكم) أي أغفلكم، إلا النادر منكم، غفلة عظيمة عن الموت، الذي هو وحده كاف في البعث على الزهد، فكيف بما بعده (التكاثر)، وهو المباهاة والمفاخرة بكثرة الأعراض الفانية من متاع الدنيا: المال والجاه والبنين ونحوها مما هو شاغل عن الله، فكان ذلك موجباً لصرف الهمة كلها إلى الجمع، فصرفكم ذلك إلى اللهو، فأغفلكم عما أمامكم من الآخرة، والدين الحق، وعن ذكر ربكم، وعن كل ما ينجيكم من سخطه، أو عن المنافسة في الأعمال الموصلة إلى أعلى الدرجات بكثرة الطاعات. وذلك كله لأنكم لا تسلمون بما غلب عليكم من الجهل الذي سببه شهوة النفس، وحب الراحة، فخفت موازينكم"[٤].

ترتيب النزول:

(سورة الكوثر- ١٥، **سورة التكاثر - ١٦**، سورة الماعون - ١٧).

أسباب النزول:

وفي سبب نزولها أقوال[٥]:

١. قال الواحدي، والبغوي، عن مقاتل والكلبي والقرطبي، عنهما وعن ابن عباس: أن بني عبد مناف، وبني سهم، من قريش، تفاخروا، فتعادوا السادة والأشراف من أيهم أكثر عدداً، فكثر بنو عبد مناف بني سهم. ثم قالوا: نعد موتانا، حتى زاروا القبور، فعدوا القبور، فكثرهم بنو سهم بثلاثة أبيات، لأنهم كانوا أكثر عدداً في الجاهلية.

---

[٣] - السيوطي، أسرار الترتيب: (ص١٦٧).
[٤] - نظم الدر: (٢٢٥/٢٢).
[٥] - التحرير والتنوير: (٥١٨/٣٠)؛ زاد المسير: (٤٨٥/٤)؛ السيوطي، لباب النقول في أسباب النزول: (ص٢٣٤).

٢. وأخرج ابن أبي حاتم، عن أبي بريدة الجرمي، قال: نزلت في قبيلين من الأنصار (بني حارثة، وبني الحارث)، تفاخروا وتكاثروا بالأحياء، ثم قالوا: انطلقوا بنا إلى القبور، فجعلت إحدى الطائفتين تقول: فيكم مثل فلان، تشير إلى القبر، ومثل فلان، وفعل الآخرون مثل ذلك، فأنزل الله: ألهاكم التكاثر.

٣. اليهود قالوا: نحن أكثر من بني فلان، وبنو فلان أكثر من بني فلان، فألهاهم ذلك حتى ماتوا ضلّالاً، فنزلت هذه فيهم. قاله قتادة.

الغرض منها[٦]:

١. ذمّ المُقْبِلين على الدّنيا، والمفتخرين بالمال، وبيان أنَّ عاقبة الكلّ الموت والزَّوال، وأن نصيب الغافلين العقوبة والنكال.

٢. وأعدّ للمتمولين المذلَّة والسّؤال، والحساب والوبال، في قوله: ﴿لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ . تحريم التفاخر بالأموال والأولاد، وبيان أنّ هذا التفاخر هو الذي ألهى قُرَيشاً عن قبول الدعوة، وبهذا تكون هذه السورة في سياق الترهيب، وهو من سياق السورة السابقة، وهذا هو وجه المناسبة في ذكر هذه السورة بعدها.

٣. اشتملت على التوبيخ على اللهو، عن النظر في دلائل القرآن ودعوة الإسلام، بإيثار المال والتكاثر به والتفاخر بالأسلاف، وعدم الإقلاع عن ذلك، إلى أن يصيروا في القبور، كما صار من كان قبلهم، وعلى الوعيد على ذلك. وحثهم على التدبر فيما ينجيهم من الجحيم.

٤. ذم الانشغال بمظاهر الحياة، وأن عمرها قصير، ما طالت الحياة وعمر الإنسان.

٥. التذكير بالموت، والقبر، والحساب.

٦. زجر الغافلين والعابثين، وتذكيرهم بيوم الدين.

٧. لن ينقذهم من النار جاه ولا سلطان، لن ينفعهم سوى العمل الصالح.

٨. الحساب على النعيم حق، فيجب أن يكون النعيم حلالاً طيباً.

المتشابهات:

قوله: ﴿كَلَّا﴾ في المواضع الثلاثة، فيه قولان:

أحدهما أنَّ معناه: الرّدع والزجر عن التكاثر.

والثاني أنه يجري مجرى القَسَم. ومعناه: حقّاً.

---

[٦] - الفيروزآبادي، بصائر ذوي التمييز: (ص٥٤٠)؛ جعفر شرف الدين، الموسوعة القرآنية، خصائص السور: (١٤٧/١٢)؛ التحرير والتنوير: (٥١٨/٣٠)؛ الموسوعة القرآنية، خصائص السور: (١٤٥/١٢).

قوله: ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ وبعده: ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ تكرار للتأكيد عند بعضهم. وعند بعضهم: هما في وقتين: في القبر والقيامة، فلا يكون تكراراً. وكذلك قول من قال: الأول للكفَّار، والثاني للمؤمنين.

قوله: ﴿لَتَرَوُنَّ الجحيم ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا﴾ تأكيد أيضاً. وقيل: الأوّل قبل الدّخول، والثاني بعد الدّخول. ولهذا قال بعده: ﴿عَيْنَ اليقين﴾ أي عِيانًا، لستم عنها بغائبين. وقيل: الأوّل من رؤية العَيْن، والثاني من رؤية القلب[٧].

مناسبتها لما قبلها (سورة الكوثر)، حسب ترتيب النزول:

بعد (سورة الكوثر)، حيث الخير الجزيل المصحوب بالشكر والصلاة والنحر والتقرب إلى الله تعالى بالخير غير المنقطع، جاءت (سورة التكاثر) لتبين حال المتكاثرين والمتفاخرين والمتباهين بحطام الدنيا. "هذه السورة الكريمة تعالج ظاهرة إنسانية تستبد بالإنسان عندما يغفل وينسى مصيره، وهي ظاهرة التكاثر، وهذا التفاخر من الأمور التي تقف عقبة في طريق إسلام الناس، واتباعهم للهدى. وقال ابن عباس في بيان معنى التكاثر: قرأ النبي: ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ﴾، قال: "تكاثر الأموال، جمعها من غير حقها، ومنعها من حقها، وشدّها في الأوعية".

وذكر المقابر مع ظاهرة التكاثر سبيل قوي من سبل معالجة هذه الظاهرة، وما تحدثه في القلب من فتن لا ينزعها من القلب إلا بذكر الموت، وما يتبعه من قبر.

وأمام الناس السؤال عن النعيم الذي عاشوا فيه بدنياهم، قبل أن يزوروا المقابر بالموت، فهل قاموا بشكره، وأدّوا حقه، ولم يستعينوا به على معصية المنعم سبحانه، فيجزيهم بهذا نعيماً أفضل منه، أم اغتروا به، ولم يقوموا بشكره، واستعانوا به على معصية المنعم سبحانه، فيعاقبون على ذلك؟

إن عقيدة عذاب القبر، ونعيمه، وما يكون بعده من رؤية الحقائق المرتبطة بالنعيم والعذاب في الجنة والنار، تغرس في نفوس الناس، ويذكّرون بهذه الحقائق، حتى يتخلصوا من القيم الفاسدة التي عاشوا عليها، ومنها هذا التكاثر الذي عالجته هذه السورة الكريمة علاجاً شاملاً، حيث ذكر التكاثر الملهي، ولم يذكر المتكاثرون به، ليشمل كلّ ما يتكاثر به المتكاثرون، ويفتخر به المفتخرون، في غمرة وغفلة ونسيان لربهم.

[٧] - الفيروزآبادي، بصائر ذوي التمييز: (ص٥٤١).

مناسبتها لما بعدها (سورة الماعون)، حسب ترتيب النزول:

تكاثر أموال الذين لا يؤمنون بالله تعالى، والسهو عن الصلوات، من ثمرات إلهاء [التكاثر]، والشغل بالأموال والأولاد، أدى إلى افتعال أزمات وحروب لمنع [الماعون]، أو التحكم بالحقوق والمستحقات الواجبة للمستحقين، مما أدى إلى دخولهم دائرة الكفر بصراعاتهم على الماعون، فأحلوا دماء بعضهم بعضاً.

معاني الكلمات:

قوله تعالى: ﴿أَلْهَاكُمُ﴾[٨]: يعني: شغلكم.

ومعنى ألهاكم: شغلكم عن طاعة الله وعبادته.

اللَّهْوُ: ما يشغل الإنسان عمّا يعنيه ويهمّه.

ألهاه عن الشيء يلهيه: شغله أو صرفه عنه.

الإلهاء الصرف إلى اللهو، واللهو الانصراف إلى ما يدعو إليه الهوى. ومعلوم أن الانصراف إلى الشيء يقتضي الإعراض عن غيره.

معناه: شغل بلذاته، ومنه لهو الحديث والأصوات، واللهو بالنساء. وهذا خبر، فيه تقريع وتوبيخ وتحسر.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ [محمد: ٣٦].

قال تعالى: ﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ﴾ [العنكبوت: ٦٤]، ويعبّر عن كلّ ما به استمتاع باللهو.

قال تعالى: ﴿لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا﴾ [الأنبياء: ١٧] ومن قال: أراد باللهو المرأة والولد، فتخصيص لبعض ما هو من زينة الحياة الدّنيا، التي جعلت لهواً ولعباً.

ويقال: أَلْهاهُ كذا، أي: شغله عمّا هو أهمّ إليه.

قوله: ﴿التَّكَاثُرُ﴾ وتعني[٩]:

١. والْمُكَاثَرَةُ والتّكَاثُرُ: التّباري في كثرة المال والعزّ.
٢. تباهيكم بالأولاد والأنصار، وتفاخركم بالأموال والأحساب.

---

[٨] - زاد المسير: (٤٨٥/٤)؛ مفاتيح الغيب: (٢٦٩/٣٢)؛ ابن عطية، المحرر الوجيز: (٥١٨/٥)؛ الراغب الأصفهاني، مفردات القرآن: (ص٧٤٨)؛ حسن عز الدين بن حسين بن عبد الفتاح أحمد الجمل، معجم وتفسير لغوي لكلمات القرآن: (١٩٥/٤)؛ إبراهيم بن إسماعيل الأبياري، الموسوعة القرآنية: (٤٩٤/١١).

[٩] - الراغب الأصفهاني، مفردات القرآن: (ص٧٠٣)؛ مفاتيح الغيب: (٢٦٩/٣٢)؛ الجامع لأحكام القرآن: (١٦٨/٢٠)؛ الموسوعة القرآنية، خصائص السور: (١٤٣/١٢).

٣. التكاثر بالأموال والأولاد.
٤. التباهي والتفاخر بالقبائل والعشائر والأهل.
٥. التشاغل بالمعاش والتجارة.
٦. وتعني التكاثر بالأنصار والأقرباء والجيش.
٧. التباهي بكثرة المال والجاه والمناقب.
٨. التكاثر والمباهاة بالقصور والسيارات والعقارات والفلل والعمارات والمولات...
٩. التكاثر واحتكار المناصب والثروات واقتصاد البلد.
١٠. التكاثر على حساب أموال الفقراء والجياع والمظلومين والمقهورين والضعفاء.
١١. التكاثر بالرواتب والوظائف والمشاريع الوهمية.
١٢. التفاخر والتباهي بكثرة الأتباع والمعجبين والمشاهدين في منصات وسائل التواصل الاجتماعي.

قوله تعالى: ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ﴾، والخطاب للمشركين، بقرينة غلظة الوعيد بقوله: كلا سوف تعلمون، ثم كلا سوف تعلمون، وقوله: ﴿لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ﴾[التكاثر: ٦] إلى آخر السورة، ولأن هذا ليس من خلق المسلمين يومئذ.

والمراد بالخطاب: سادتهم، وأهل الثراء منهم، لقوله: ﴿ثُمَّ لَتُسْئَلُنَّ يَوْمَئِذ عَنِ النَّعِيمِ﴾ [التكاثر: ٨]، ولأن سادة المشركين هم الذين آثروا ما هم فيه من النعمة، على تلقي دعوة النبي - صلى الله عليه وسلم-، فتصدوا لتكذيبه، وأغروا الدهماء بعدم الإصغاء له. فلم يذكر الملهى عنه، لظهور أنه القرآن، والتدبر فيه، والإنصاف بتصديقه. وهذا الإلهاء حصل منهم، وتحقق، كما دل عليه حكايته بالفعل الماضي.

وإذا كان الخطاب للمشركين، فلأن المسلمين يعلمون أن التلبس بشيء من هذا الخلق مذموم عند الله، وأنه من خصال أهل الشرك، فيعلمون أنهم محذرون من التلبس بشيء من ذلك، فيحذرون من أن يلهيهم حب المال عن شيء من فعل الخير، ويتوقعون أن يفاجئهم الموت وهم لاهون عن الخير[١٠].

أنه تعالى لم يقل: ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ عن كذا، وإنما لم يذكره، لأن المطلق أبلغ في الذم، لأنه يذهب الوهم فيه كل مذهب، فيدخل فيه جميع ما يحتمله الموضع، أي: ألهاكم التكاثر عن ذكر الله، وعن الواجبات، والمندوبات، في المعرفة والطاعة والتفكر والتدبر. أو نقول: إن نظرنا إلى ما قبل هذه الآية فالمعنى: ألهاكم التكاثر عن التدبر في أمر القارعة،

[١٠] - التحرير والتنوير: (٥١٩/٣٠).

والاستعداد لها، قبل الموت. وإن نظرنا إلى الأسفل، فالمعنى ألهاكم التكاثر، فنسيتم القبر حتى زرتموه[١١].

يقول الرازي: "التفاخر إنما يكون بإثبات الإنسان نوعاً من أنواع السعادة لنفسه، وأجناس السعادة ثلاثة:

فأحدها: في النفس. والثانية: في البدن. والثالثة: فيما يطيف بالبدن من خارج.

أما التي في النفس، فهي العلوم والأخلاق الفاضلة.

وأما التي في البدن، فهي الصحة والجمال، وهي المرتبة الثانية.

وأما التي تطيف بالبدن من خارج، فقسمان:

أحدهما: ضروري، وهو المال والجاه، والآخر غير ضروري، وهو الأقرباء والأصدقاء، وهذا الذي عددناه في المرتبة الثالثة إنما يراد كله للبدن، بدليل أنه إذا تألم عضو من أعضائه، فإنه يجعل المال والجاه فداء له"[١٢].

وقوله تعالى: ﴿حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾ يعني:

١. حتى صرتم إلى المقابر، فدفنتم فيها؛ وفي هذا دليل على صحة القول بعذاب القبر، لأن الله تعالى ذكره، فأخبر عن هؤلاء القوم الذين ألهاهم التكاثر، أنهم سيعلمون ما يلقون إذا هم زاروا القبور، وعيداً منه لهم، وتهدّداً. عن عليّ، قال: كنا نشكّ في عذاب القبر، حتى نزلت هذه الآية: ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ ... إلى: ﴿كَلا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ في عذاب القبر[١٣].

٢. قال ابن الجوزي: فيها قولان؛ أحدهما: حتى أدرككم الموت على تلك الحال، فصرتم في المقابر زُوّاراً، ترجعون منها إلى منازلكم من الجنة أو النار، كرجوع الزائر إلى منزله.

والثاني: حتى زرتم المقابر، فَعَدَدْتم من فيها من موتاكم[١٤].

٣. عن ميمون بن مهران قال: كنت جالساً عند عمر بن عبد العزيز، فقرأ ألهاكم التكاثر، حتى زرتم المقابر، فلبث هنيهة، فقال: يا ميمون، ما أرى المقابر إلا زيارة، وما للزائر بد من أن يرجع إلى منزله[١٥].

---

١١ - مفاتيح الغيب: (٢٧١/٣٢).
١٢ - مفاتيح الغيب: (٢٦٩/٣٢-٢٧٠).
١٣ - جامع البيان: (٥٨٠/٢٤).
١٤ - زاد المسير: (٤٨٥/٤).
١٥ - تفسير ابن أبي حاتم: (٣٤٥٩/١٠).

٤. وقال: المعنى: حتى متم، وزرتم بأجسادكم مقابرها، أي قطعتم بالتكاثر أعماركم. وعلى هذا التأويل، روي أن أعرابياً سمع هذه الآية، فقال: بعث القوم للقيامة ورب الكعبة، فإن الزائر منصرف لا مقيم[١٦].

٥. قال الرازي: "ألهاكم حرصكم على تكثير أموالكم عن طاعة ربكم، حتى أتاكم الموت، وأنتم على ذلك. يقال: حمله على هذا الوجه مشكل من وجهين: الأول: أن الزائر هو الذي يزور ساعة، ثم ينصرف، والميت يبقى في قبره، فكيف يقال: إنه زار القبر؟ والثاني: أن قوله: حتى زرتم المقابر، إخبار عن الماضي، فكيف يحمل على المستقبل؟

والجواب عن السؤال الأول: أنه قد يمكث الزائر، لكن لا بد له من الرحيل، وكذا أهل القبور يرحلون عنها إلى مكان الحساب.

والجواب عن السؤال الثاني من وجوه:

أحدها: يحتمل أن يكون المراد من كان مشرفاً على الموت بسبب الكبر، ولذلك يقال فيه: إنه على شفير القبر.

وثانيها: أن الخبر عمن تقدمهم وعظاً لهم، فهو كالخبر عنهم، لأنهم كانوا على طريقتهم.

وثالثها: قيل: إن الله تعالى يتكلم بهذه السورة يوم القيامة تعييراً للكفار، وهم في ذلك الوقت قد تقدمت منهم زيارة القبور.

القول الثالث: ألهاكم الحرص على المال، وطلب تكثيره، حتى منعتم الحقوق المالية، إلى حين الموت، ثم تقول في تلك الحالة: أوصيت لأجل الزكاة بكذا، ولأجل الحج بكذا.

القول الرابع: ألهاكم التكاثر فلا تلتفتون إلى الدين، بل قلوبكم كأنها أحجار لا تنكسر البتة، إلا إذا زرتم المقابر، هكذا ينبغي أن تكون حالكم، وهو أن يكون حظكم من دينكم ذلك القدر القليل من الانكسار"[١٧].

والتعبير بالفعل الماضي في ﴿زُرْتُمُ﴾ لتنزيل المستقبل منزلة الماضي، لأنه محقق وقوعه[١٨].

قوله تعالى: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾: ﴿كَلَّا﴾ حقاً.

سَوْفَ تَعْلَمُونَ عاقبة سفهكم وتفريطكم.

يقول ابن عاشور: "فأفاد كلا زجراً وإبطالاً، لإنهاء التكاثر. وسوف تعلمون سوء مغبة لهوكم بالتكاثر عن قبول دعوة الإسلام"[١٩].

---

١٦ - ابن عطية، المحرر الوجيز: (٥١٨/٥).
١٧ - مفاتيح الغيب: (٢٧١/٣٢).
١٨ - التحرير والتنوير: (٥٢٠/٣٠).
١٩ - التحرير والتنوير: (٥٢١/٣٠).

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾: ﴿ثُمَّ كَلَّا﴾ ثم حقّاً.
سَوْفَ تَعْلَمُونَ حتماً تلك العاقبة.
وكرّر قوله: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ مرتين، لأن العرب إذا أرادت التغليظ في التخويف والتهديد كرّروا الكلمة مرتين[٢٠].
يقول ابن عاشور: "وأكد الزجر والوعيد بقوله: ﴿ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ فعطف عطفاً لفظياً بحرف التراخي أيضاً، للإشارة إلى تراخي رتبة هذا الزجر والوعيد عن رتبة الزجر والوعيد الذي قبله، فهذا زجر ووعيد مماثل للأول، لكن عطفه بحرف ﴿ثُمَّ﴾ اقتضى كونه أقوى من الأول، لأنه أفاد تحقيق الأول وتهويله.
فجملة: ﴿ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ توكيد لفظي لجملة: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾، وعن ابن عباس: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ ما ينزل بكم من عذاب في القبر: ﴿ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ عند البعث، أن ما وعدتم به صدق"[٢١].
قوله تعالى: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ﴾: حقّاً لو تعلمون يقيناً سوء مصيركم، لفزعتم من تكاثركم، وتزودتم لآخرتكم.
اليَقينُ: من صفة العلم فوق المعرفة والدّراية[٢٢].
يقنَ الأمر يقناً: ثبت ووضح، والوصف يقين. ويقال اليقين للعلم الذي انتفت عنه الشكوك والشبه. ويقال: خبر يقين: لا شك فيه. ويقال: اليقين للموت، لأنه لا يمتري فيه أحد[٢٣].
وقيل: اليقين ها هنا: الموت، قاله قتادة. وعنه أيضاً: البعث، لأنه إذا جاء، زال الشك، أي لو تعلمون علم البعث، وجواب لو محذوف، أي لو تعلمون اليوم من البعث ما تعلمونه إذا جاءتكم نفخة الصور، وانشقت اللحود عن جثثكم، كيف يكون حشركم، لشغلكم ذاك عن التكاثر بالدنيا[٢٤].
قوله تعالى: ﴿عِلْمَ الْيَقِينِ﴾: وهو ما ظَهَرَ من الحَقِّ، وقَبول ما غابَ للحَقّ، والوُقُوف على ما قام بالحَقّ. وأركانه:
الأوّل: هو ما ظهر من الحقّ تعالى، والّذى ظهر منه سبحانه أوامرُه ونَواهيه، وشَرْعُه ودِينُه، الّذي ظهر لنا منه على ألْسنَة رُسُله، فيتلقّاه بالقَبول والانْقياد والإذعانَ والتّسْليم للرّبوبيّة، والدّخول تحت رقّ العبوديّة.

---

٢٠ - جامع البيان: (٥٨١/٢٤).
٢١ - التحرير والتنوير: (٥٢١/٣٠).
٢٢ - مفردات الراغب: (ص٨٩٢)؛ بصائر ذوي التمييز: (٣٩٥/٥).
٢٣ - معجم وتفسير لغوي لكلمات القرآن: (٣٠٧/٥).
٢٤ - الجامع لأحكام القرآن: (١٧٣/٢٠).

الثاني: قَبولُ ما غابَ للحقِّ، وهو الإيمانُ بالغيب الَّذى أخبر به الحقُّ سبحانه على لسان رُسله؛ من أمورِ المَعاد وتَفاصيله، والجنَّة والنَّار، وما قبل ذلك من الصِّراط والميزان والحساب، وما قبل ذلك من تَشَقُّق السَّماء وانفطارها، وانتثار الكواكب، ونَسْف الجبال، وطَيّ العالم، وما قبل ذلك من أمور البَرْزَخ، ونَعيمه وعَذابه. فقبولُ هذا كلِّه، تصديقاً وإيماناً، هو اليقين، بحيث لا يُخالج القَلْبَ فيه شُبَهٌ ولا شكٌّ ولا رَيْب، ولا تَناس، ولا غَفْلَة عنه، فإنَّه إن لم يستملك يَقينَه، أفْسَدَه وأضْعَفَه.

الثالث: الوقوف على ما قام بالحقّ سبحانه من أسمائه وصفاته وأفعاله، وهو عِلْمُ التَّوحيد الَّذي أساسهُ إثبات الأسماء والصِّفات.

الثانية: **عين اليقين**، وهو المَعْني بالاسْتِدْراك عن الاسْتِدْلال، وعن الخَبَرِ بالعَيان، وخَرْق الشُّهود حجابَ العِلْم.

والفَرْقُ بين عِلْم اليَقين وعَيْن اليقين، كالفَرْقِ بين الخَبَر الصادق والعَيان، وحَقُّ اليَقين فَوْقَ هذا. وقد مُثِّلَت المراتب الثلاثة بمن أخبرك أنَّ عنده عَسَلاً، وأنت لا تَشُكُّ في صدْقه، ثمَّ أراك إيّاه، فازددت يقيناً، ثم ذُقْت منه، **فالأوّل علْمُ يَقين، والثاني عَيْنُ يَقين؛ والثالث حَقُّ يَقين**. فعلْمُنا الآن بالجنَّة والنَّار علْمُ يَقين، فإذا أزْلفَت الجنَّة في المَوْقف وشاهَدَها الخلائقُ، وبُرزت الجحيم وعاينها الخلائق، فذلك عَيْنُ اليَقين. فإذا دخل أهلُ الجنَّة الجنَّة، وأهلُ النَّار النَّار، فذلك هو حَق اليقين[٢٥].

قوله تعالى: ﴿لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ﴾: ﴿لَتَرَوُنَّ﴾ على القسم، أي أقسم لكم أنكم ستشاهدون الجحيم، وأنتم في القبر. فيه دلالة على إثبات عذاب القبر[٢٦].

والجَحْمة: شدَّة تأجّج النَّار. ومنه الجحيم، وهو النَّار الشديدة التأجُّج. وكل نار بعضُها فوق بعض جحيم؛ والجمر بعضه على بعض جحيم، وهي نار جاحمة. والجاحم: الجمر الشَّديد الاشتعال؛ وقيل: هو، والمكانُ الشَّديد الحر[٢٧].

والجحيم: اسم من أسماء جهنم[٢٨].

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّها عَيْنَ الْيَقِينِ﴾: ﴿عَيْنَ الْيَقِينِ﴾ عياناً ويقيناً، يعني معايشة النار يوم القيامة[٢٩].

---

[٢٥] - بصائر ذوي التمييز: (٤٠٣/٥).
[٢٦] - د. زغلول النجار، تفسير سورة التكاثر (يوتيوب).
[٢٧] - تهذيب اللغة: (١٠٢/٤)؛ بصائر ذوي التمييز: (٣٦٩/٢)؛ تاج العروس: (٣٧١/٣١-٣٧٢).
[٢٨] - معجم وتفسير لغوي لكلمات القرآن: (٣٠٩/١).
[٢٩] - د. زغلول النجار، تفسير سورة التكاثر (يوتيوب).

يقول سيد قطب: "ثم يلقي بالإيقاع الأخير، الذي يدع المخمور يفيق، والغافل يتنبه، والسادر يتلفت، والناعم يرتعش ويرتجف مما في يديه من نعيم: ﴿ثُمَّ لَتُسْئَلُنَّ يَوْمَئذ عَنِ النَّعِيمِ﴾! لتسألن عنه من أين نلتموه؟ وفيم أنفقتموه؟ أمن طاعة، وفي طاعة؟ أمَ من معصية، وفي معصية؟ أمن حلال، وفي حلال؟ أم من حرام، وفي حرام؟ هل شكرتم؟ هل أديتم؟ هل شاركتم؟ هل استأثرتم؟

﴿لَتُسْئَلُنَّ﴾ عما تتكاثرون به، وتتفاخرون.. فهو عبء تستخفونه في غمرتكم ولهوكم، ولكن وراءه ما وراءه من همّ ثقيل! إنها سورة تعبّر بذاتها عن ذاتها، وتلقي في الحس ما تلقي، بمعناها وإيقاعها، وتدع القلب مثقلاً مشغولاً بهمّ الآخرة عن سفساف الحياة الدنيا، وصغائر اهتماماتها، التي يهش لها الفارغون! إنها تصور الحياة الدنيا كالومضة الخاطفة في الشريط الطويل.. ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾..

وتنتهي ومضة الحياة الدنيا، وتنطوي صفحتها الصغيرة.. ثم يمتد الزمن بعد ذلك، وتمتد الأثقال، ويقوم الأداء التعبيري ذاته بهذا الإيحاء، فتتسق الحقيقة مع النسق التعبيري الفريد..

وما يقرأ الإنسان هذه السورة الجليلة الرهيبة العميقة، بإيقاعاتها الصاعدة الذاهبة في الفضاء إلى بعيد في مطلعها، الرصينة الذاهبة إلى القرار العميق في نهايتها.. حتى يشعر بثقل ما على عاتقه من أعقاب هذه الحياة الوامضة التي يحياها على الأرض، ثم يحمل ما يحمل منها، ويمضي به مثقلاً في الطريق! ثم ينشئ يحاسب نفسه على الصغير والزهيد"[٣٠].

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَتُسْئَلُنَّ﴾: ثم لتحاسبن.

أعقب التوبيخ والوعيد على لهوهم بالتكاثر، عن النظر في دعوة الإسلام، من حيث إن التكاثر صدهم عن قبول ما ينجيهم، بتهديد وتخويف من مؤاخذتهم على ما في التكاثر من نعيم تمتعوا به في الدنيا، ولم يشكروا الله عليه، بقوله تعالى: ثم لتسئلن يومئذ عن النعيم، أي عن النعيم الذي خولتموه في الدنيا، فلم تشكروا الله عليه، وكان به بطركم[٣١].

والنعيم: اسم لما يلذ لإنسان، كشرب الماء، وأكل الطعام، والتلذذ بالمسموعات، وبما فيه فخر، وبرؤية المحاسن، فكلها تعد من النعيم[٣٢].

قوله تعالى: ﴿عَنِ النَّعِيمِ﴾، جاء في تفسيرها[٣٣]:

---

٣٠ - في ظلال القرآن: (٣٩٦٢/٦).
٣١ - التحرير والتنوير: (٥٢٤/٣٠).
٣٢ - التحرير والتنوير: (٥٢٤/٣٠).

١. ألوان النعيم الذي أسـرفتم فيه، واستمتعتم به.
٢. إن النعيم: الماء الحار في الشتاء.
٣. الأَمْنُ والصحةُ.
٤. وأجلّها العقل، والرسول، والقرآن.
٥. الصحة والفراغ.
٦. صحة الأبدان، والأسماع، والأبصار.
٧. خبزِ البُرّ .
٨. الماءَ العَذْبَ.
٩. الماء البارد.
١٠. الإدراك بحواس السمع والبصر.
١١. ملاذّ المأكول والمشروب.
١٢. الغداء والعشاء.
١٣. إنعام الله على الخلق بإرسال محمد (صلى الله عليه وسلم).
١٤. تخفيف الشرائع وتيسير القرآن.
١٥. شبع البطون، وظلال المساكن، واعتدال الخلق، ولذة النوم.
١٦. كل شيء من ملذات الدنيا.
١٧. صنوف النعم.

قال ابن الجوزي: والصحيح أنه عام في كل نعيم، وعام في جميع الخلق، فالكافر يسأل توبيخاً، إذا لم يشكر المنعم، ولم يوحِّده. والمؤمن يسأل عن شكرها[٣٤].

قال الماوردي: "وهذا السؤال يعم المؤمن والكافر، إلا أن سؤال المؤمن تبشير بأن جمع له بين نعيم الدنيا ونعيم الآخرة، وسؤال الكافر تقريع، لأنه قابل نعيم الدنيا بالكفر والمعصية، ويحتمل أن يكون ذلك تذكيراً بما أوتوه، ليكون جزاء على ما قدموه"[٣٥].

وقال **الخازن** : "قيل إن هذا السّؤال يعم الكافر، والمؤمن، وهو الأولى، لكن سؤال الكافر توبيخ، وتقريع، لأنه ترك شكر ما أنعم الله به عليه. والمؤمن يسأل سؤال تشريف وتكريم،

---

[٣٣] - ابن قتيبة، غريب القرآن: (ص١١، ٤٦٨)، تحقيق: سعيد اللحام؛ التفسير القرآني للقرآن: (١٦٦٧/١٦)؛ الماوردي، النكت والعيون: (٣٣٢/٦)؛ زاد المسير: (٤٨٦/٤)؛ لباب التأويل في معاني التنزيل: (٤٦٥/٤).
[٣٤] - زاد المسير: (٤٨٦/٤).
[٣٥] - الماوردي، النكت والعيون: (٣٣٢/٦).

لأنه شكر ما أنعم الله به عليه، وأطاع ربه، فيكون السّؤال في حقه تذكرة بنعم الله عليه[٣٦].

يدل على ذلك ما روي عن الزّبير، قال لما نزلت: ﴿ثُمَّ لَتُسْئَلُنَّ يَوْمَئِذ عَنِ النَّعِيمِ﴾ قال الزبير: يا رسول الله، وأي نعيم نسأل عنه، وإنما هما الأسودان: التّمر والماء؟ قال: (**أَمَا إِنَّهُ سَيَكُونُ**)[٣٧].

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: خَرَجَ رَسُولُ الله (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) ذَاتَ يَوْمٍ - أَوْ لَيْلَة - فَإِذَا هُوَ بِأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ، فَقَالَ: (**مَا أَخْرَجَكُمَا مِنْ بُيُوتِكُمَا هَذِه السَّاعَةَ؟**) قَالَا: الْجُوعُ، يَا رَسُولَ الله، قَالَ: (**وَأَنَا، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِه، لَأَخْرَجَنِي الَّذِي أَخْرَجَكُمَا، قُومُوا**)، فَقَامُوا مَعَهُ، فَأَتَى رَجُلًا منَ الْأَنْصَارِ، فَإِذَا هُوَ لَيْسَ فِي بَيْتِه، فَلَمَّا رَأَتْهُ الْمَرْأَةُ، قَالَتْ: مَرْحَبًا وَأَهْلًا، فَقَالَ لَهَا رَسُولُ الله (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (**أَيْنَ فُلَانٌ؟**)[٣٨]، قَالَتْ: ذَهَبَ يَسْتَعْذِبُ لَنَا منَ الْمَاءِ، إِذْ جَاءَ الْأَنْصَارِيُّ، فَنَظَرَ إِلَى رَسُولِ الله (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) وَصَاحِبَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: الْحَمْدُ للهِ، مَا أَحَدٌ الْيَوْمَ أَكْرَمَ أَضْيَافًا منِّي، قَالَ: فَانْطَلَقَ، فَجَاءَهُمْ بِعِذْقٍ فِيهِ بُسْرٌ وَتَمْرٌ وَرُطَبٌ، فَقَالَ: كُلُوا منْ هَذِه، وَأَخَذَ الْمُدْيَةَ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ الله (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (**إِيَّاكَ، وَالْحَلُوبَ**)، فَذَبَحَ لَهُمْ، فَأَكَلُوا منَ الشَّاةِ، وَمنْ ذَلِكَ الْعِذْقِ، وَشَرِبُوا، فَلَمَّا أَنْ شَبِعُوا وَرَوُوا، قَالَ رَسُولُ الله (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) لِأَبِي بَكْرٍ، وَعُمَرَ: (**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِه، لَتُسْأَلُنَّ عَنْ هَذَا النَّعِيمِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، أَخْرَجَكُمْ منْ بُيُوتِكُمُ الْجُوعُ، ثُمَّ لَمْ تَرْجِعُوا حَتَّى أَصَابَكُمْ هَذَا النَّعِيمُ**)[٣٩].

فهذا سؤال عن النعيم، ثبت بالسنة، وهو غير الذي جاء في هذه الآية.

ومعنى الحديث: لتسألن عن شكر تلك النعمة. أراد تذكيرهم بالشكر في كل نعمة.

وسؤال المؤمنين سؤال لترتيب الثواب على الشكر، أو لأجل المؤاخذة بالنعيم الحرام[٤٠].

فقه الاستنباط[٤١]:

١. يحذر الله تعالى من ترك العمل الصالح والاستعداد للآخرة، ويوبخ الذين تشغلهم المباهاة بكثرة المال والعدد عن طاعة الله، حتى يموتوا، ويدفنوا في المقابر.

---

٣٦ - لباب التأويل في معاني التنزيل: (٤٦٥/٤).

٣٧ - مسند الحميدي: (رقم: ٦١)؛ سنن الترمذي: (رقم: ٣٣٥٦)، وقال حديث حسن، وقال الألباني: حسن الإسناد.

٣٨ - الأنصاري هو أبو الهيثم بن التيهان، واسمه مالك.

٣٩ - صحيح مسلم: (رقم: ٢٠٣٨).

٤٠ - التحرير والتنوير: (٥٢٤/٣٠).

٤١ - مفاتيح الغيب: (٢٧٠/٣٢)؛ الزحيلي، التفسير المنير: (٣٨٨/٣٠)؛ محمد عزة دروزة، التفسير الحديث: (١٥/٢)؛ نظم الدر: (٢٢٣/٢٢).

والتوبيخ عام يشمل التفاخر بكل شيء؛ من الأموال والأولاد، والقبائل والعشائر، والسلطة والجاه، والرجال والأعوان، فهو يتضمن التفاخر بالنفس، وهي العلوم والأخلاق الفاضلة، والتفاخر بالبدن، وهو الصحة والجمال، والتفاخر بالأمور الخارجية، وهي المال والجاه والأعوان والأقرباء والأصدقاء.

٢. لم يأت في التنزيل ذكر المقابر إلا في هذه السورة، وزيارتها من أعظم الدواء للقلب القاسي، لأنها تذكّر الموت والآخرة. وذلك يحمل على قصر الأمل، والزهد في الدنيا، وترك الرغبة فيها.

٣. كرر الله تعالى في هذه السورة الوعيد بعد الوعيد، للتأكيد والتغليظ على ثبوت عذاب القبر، وعذاب الآخرة، وأن ما وعدنا به من البعث، وتوابعه، حق وصدق. ثم أعاد تعالى الزجر والتنبيه على أنه إن لم يفعل الناس العمل الصالح، وترك التفاخر بالأموال والأولاد والرجال، يندمون، ويستوجبون العقاب.

٤. يسأل الناس يوم القيامة عن ألوان النعيم في الدنيا، من ظلال المساكن والأشجار، وطيب الحياة والرفاهية، والصحة والفراغ، والأمن والستر ونحو ذلك. والكل يسألون، ولكن سؤال الكافر توبيخ، لأنه قد ترك الشكر، وسؤال المؤمن سؤال تشريف، لأنه شكر، وهذا النعيم في كل نعمة. ويكون السؤال في موقف الحساب، وقيل: بعد الدخول في النار، توبيخاً لهم، والأول هو الظاهر.

٥. تنديد موجه إلى السامعين، بما هم فيه من المباراة في الاستكثار من الأموال والأولاد، والتفاخر بذلك، واستغراقهم بسبب ذلك استغراقاً يمنعهم من التفكير في الموت وما بعده، بحيث لا ينتهون مما هم فيه إلّا حين يموتون.

٦. وتنبيه وتبصير لهم. فإنهم سوف يعلمون علماً يقينياً بأنهم مخطئون، وأنهم سوف يرون الجحيم الموعودة، ويرون بعين اليقين ما أوعدوا به، وأنهم سوف يسألون عن أعمالهم، وما قضوه في الدنيا من حياة النعيم التي ألهتهم عن الآخرة والتفكير فيها.

٧. ولما كانوا ينكرون البعث، ويعتقدون دوام الإقامة في القبور، عبّر بالزيارة، إشارة إلى أن البعث لا بد منه، ولا مرية فيه، وأن اللبث في البرزخ - وإن طال - فإنما هو كلبث الزائر عند مزوره، في جنب الإقامة بعد البعث في دار النعيم، أو غار الجحيم. وأن الإقامة فيه محبوبة، للعلم بما بعده من الأهوال والشدائد والأوجال، فقال: ﴿حَتَّى﴾ أي استمرت مباهاتكم ومفاخرتكم إلى أن ﴿زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾، أي بالموت والدفن، فكنتم فيها عرضة للبعث، لا تتمكنون من عمل ما ينجيكم، لأن دار العمل فاتت، كما أن الزائر ليس بصدد العلم عند المزور، لا يمكثون بها إلّا ريثما يكتمل المجموعون بالموت، كما أن الزائر معرض

للرجوع إلى داره، وحل قراره. فلو لم يكن لكم وازع عن الإقبال على الدنيا إلا الموت، لكان كافياً، فكيف والأمر أعظم من ذلك؟ فإن الموت مقدمة من مقدمات العرض.

٨. أنه يجوز للإنسان أن يفتخر بطاعاته، ومحاسن أخلاقه، إذا كان يظن أن غيره يقتدي به. فثبت أن مطلق التكاثر ليس بمذموم، بل التكاثر في العلم والطاعة والأخلاق الحميدة هو المحمود، وهو أصل الخيرات. أما التكاثر في الدنيا ولذاتها وعلائقها، فإنه هو الذي يمنع عن طاعة الله تعالى وعبوديته، فهو المذموم.

إعجاز علمي:

قوله تعالى: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ (٥) لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ﴾

علم اليقين نوعان:

١. النوع الأول إخباري، وهو ما جاء به الوحي على رسول الله (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)، فأخبره عن الغيبيات، سواء في القرآن الكريم، أو في الحديث النبوي، فآمنا به، وصدقناه، وهو من أركان الإيمان الذي لا يكتمل الإيمان إلا به.

النوع الثاني تجريبي تطبيقي، وهو ما يقوم بـه العلـماء في المختـبرات، والمفـاعلات النوويـة، للوصول إلى حقيقة نشوء الكون، وكيفية بدء الخلق. واستنباطاً من الآيتين الكريمتين أعلاه، نتوقـع أن يتوصـل العلـماء يومـاً مـا بتجـاربهم إلى إخبارنـا عـن وجـود جهـنم بعلـومهم، ونظرياتهم التطبيقية، من دون إمكانية النظر بالعين الإنسانية، لأن ذلـك محـال في الـدنيا. والله أعلم ❐

بصراحة

الشارع الواعي

صلاح سعيد أمين
Selah1434@gmail.com

✍ ما يحصل الآن في العراق؛ من انعدام الخدمات الأساسية؛ كالمياه الصالحة للشرب، والكهرباء، إلى الفساد المستشري في كل مفاصل الدولة، ومن عدم إيفاء الكتل البرلمانية بوعودها الانتخابية، إلى إطلاق الرصاص الحي باتجاه الصدور العارية للمتظاهرين، ومن الاغتيال المنظم للنشطاء والصحفيين، إلى عدم تأمين فرص العمل، وتعطيل الشباب عن العمل.. لا يعني نهاية الدنيا، ولا أن الحابل اختلط بالنابل، بل يبقى باب الأمل والنهوض مفتوحاً على كل جديد.

لكن.. شريطة أن يكون ثمة وعي جماهيري، وشارع يدرك اللعبة، ويحلل المعادلات؛ شارع لا ينسى الماضي القريب لكل هذه المحن، ولا تثار حماسته الحزبية والطائفية والقومية، بمجرد إطلاق الحملات الانتخابية!

باختصار شديد، ماذا يعني الحزب، وماذا تعني الكتل البرلمانية، والنعرة القومية، إذا كان المواطنون - بهوياتهم المختلفة- يعيشون في المآسي والويلات نفسها؟

الشارع الواعي يتجاوز الهويات الفرعية، ويعرج إلى الهوية الإنسانية، ويتجاوز الخطب الرنانة، ويهتم بالذي يجري في الواقع أكثر مما يسمعه على شاشات التلفزة، ولا يسمح أن يلدغ مرتين من مكان واحد.

الشارع الواعي، يعلم جيداً، أن الطريق الأقصر لحدوث التغيير نحو الأحسن هو صناديق الاقتراع، التي تصنع المعجزات في التغيير والتقدم نحو حياة كريمة لائقة، كما هو في بعض دول العالم.

إن لم يكن الخلل في وعي الشارع، فلن يستطيعوا أبداً - هؤلاء الذين نراهم يومياً على كراسي السلطة - أن يلعبوا بمقدرات الشعب، وأن يفعلوا ما نراه بأعيننا، ويظلوا في السلطة بهذه البساطة!

النقطة الجوهرية والأخيرة، هنا هي: صناديق الاقتراع أمامنا، وآن الآوان أن نثبت للجميع أننا شعب واع، نحسم الملفات العالقة في يوم التصويت، وعبر أوراقنا الانتخابية، ونعلم كيف نصوت، و(من) ننتخب؟❐

- نظرية ما بعد الاستعمار: إرهاصات اليقظة الإنسانية في الفكر والأدب	عبد الله خوراني
- صبا؛ رواية المرأة الكوردية	سالم الحاج
- قصة قصيرة: أنا لست كافراً.. بل الجوع كافر	عبد الخالق البرزنجي

نظرية ما بعد الاستعمار
إرهاصات اليقظة الإنسانية في الفكر والأدب

الجزء الأول

عبد الله خوراني

تمهيد:

تركز الدراسات المتزايدة حول القراءات الاستعمارية، في السنوات الماضيةّ، بشكل خاص، على واحدة من أكثر نظريات النقد الأدبي إثارة للجدل، وهي نظرية ما بعد الاستعمار، التي تحمل معاني مختلفة؛ من السياسة إلى الاقتصاد، وإلى جميع جوانب الحياة الأخرى. ويهدف هذا النهج النقدي إلى تفكيك الخطاب الاستعماري، ويحاول مراجعة تاريخ البلدان المستعمَرة، وثقافة وأدب هذه البلدان، بمختلف المنهجيات، من وجهة نظر المستعَمرين. وهناك مصادفة غريبة - بعض الشيء - فيما يتصل بالتوقيت: فقد تصاعد الاهتمام الأكاديمي الغربي بالاستعمار، في الوقت الذي فقدت فيه القوى العظمى بالفعل مصداقيتها وثقتها لدى المفكرين والمثقفين والباحثين على مستوى العالم. في الماضي، وفي بدايات الغزو الاستعماري للبلدان خاصة، كان هؤلاء الأكاديميون متحمسين، يهللون للتحركات الاستعمارية، على أساس أن القوى الاستعمارية تستهدف نشر الحضارة والمدنية والديمقراطية والحرية للشعوب المتخلفة، وتستهدف التطور والرقي بكل أشكاله؛ ولكنهم

الآن لم يعودوا متفائلين بأهداف تلك الحملات الاستعمارية، وبدأوا بالتشكيك فيها، كما نرى ذلك في كتاباتهم ورواياتهم الأدبية والنقدية.

تسلط هذه الدراسة الضوء على بعض المفاهيم المتعلقة بنظرية ما بعد الاستعمار، بشرح مختصر، ونشير فيها إلى مساهمات بعض الكتاب في مسارات الأدب العربي المعاصر، حيث خصصنا جزءاً خاصاً حول مساهمات الدكتور نجيب الكيلاني، وركزنا على اثنتين من رواياته الشهيرة: (ليالي تركستان)، و(نابليون في الأزهر)، اللتان تمثلان أسلوبه الكتابي البارز، وتعكسان ما تصبوا إليه نظرية أدب ما بعد الاستعمار، وانعكاسها في نظر أدباء العالم العربي والدول الآسيوية والأفريقية.

تعريف النظرية:

إن نظرية أدب ما بعد الاستعمار تنطوي على قضايا ثقافية واجتماعية وسياسية في عالم يعاني من مشاكل حقيقية. فهي تحاول؛ سياسياً واقتصادياً وثقافياً، تحليل خطاب الاستعمار، ومن ثم استعراض الشرق والغرب في ظل الصراعات العسكرية والاقتصادية والثقافية والعلمية. كما تعمل هذه النظرية الأدبية على استكشاف نقاط الاختلاف بين الشرق والغرب، وتحديد أنماط التفكير التي يتبناها المؤلفون والمفكرون. وهي تتناول حالة الشعوب المستعمَرة، ولا سيما الشعوب الأفريقية والآسيوية، خلال فترة الاحتلال، وما بعدها.

وهذا يعني أن نظرية ما بعد الاستعمار تقدم - على نطاق واسع - المعالجة التكوينية، والتفكيكية، وباعتبارها الأنا الجدلية والغير، وثنائية الشرق والغرب، وتصنيفاً للخطاب الاستعماري، وتجلية له، وتمييزاً لبعض المستشرقين المنصفين، عن الآخرين الذين كانوا في خدمة الاستعمار.

إن النظرية تحاول أن تجد دور الشعوب المستعمرة في المركزية الغربية، في مجال صرف القوة الموجودة، أو في مجال التنمية، مشيرة إلى تطور التفاعل الفكري والوجداني للشعوب، بعد كل الصراعات التي حدثت.

ولا يعني هذا، بالضرورة، الكفاح ضد جميع ما أنتجته الحقبة الاستعمارية في مختلف جوانب الحياة، وأشياءها السلبية والإيجابية، رغم أن إيجابياتها أقل بكثير من سلبياتها.

وكذلك، فإن خطاب ما بعد الاستعمار يعني الوعي بالثقافات الأخرى الموجودة في المستعمرات، وبالهويات، والمواقف، والتاريخ، والوثائق المعرضة للخطر. وكذلك الاحتفال بالإبداعات والكتابات المختلفة لأبناء المستعمرات، أو غيرها، كرد مباشر على خطاب

المحتل الأجنبي، ومواقفه، وترسيخ هوية الثقافات التي عانت من النفي والتهميش. وهنا تكمن المشكلة في استعادة دور الهامش، في إطار الخطاب الاستعماري المركزي المهيمن.

إن الاستعمار - كمصطلح - مفهوم واسع يشير إلى مشروع الهيمنة السياسية الأوروبية، من القرن السادس عشر إلى القرن العشرين، الذي انتهى بحركات التحرر الوطني في الستينيات. وسيتم استخدام مفهوم ما بعد الاستعمار لوصف الصراعات السياسية والنظرية للمجتمعات التي عانت من الانتقال من التبعية السياسية إلى السيادة الوطنية.[٤٢](محمد بن أحمد، خطاب ما بعد الاستعمار في الأدب، ٢٠١٦: ٥).

يعتمد خطاب ما بعد الاستعمار على نظرية ثقافية جديدة، مع امتدادات وفروع تتعلق بعلم النفس وعلم الاجتماع واللغة والنقد الأدبي والدراسات العرقية والسياسة والاقتصاد. سيتم فهم هذا الخطاب، فقط، في ضوء التحليل الثقافي المتكامل، ولا يتم جره إلى التوجه الأحادي والأيديولوجي، أو التركيز على مجال معين. ولا شك في أنها تنضم إلى حركة ما بعد الحداثة في جوهرها، وأن ما بعد الحداثة بنيت على مراجعات الفلاسفة والمؤرخين الجدد، والنقد الثقافي للخطاب المركزي الغربي، الذي ينظر بازدراء إلى ثقافات الشعوب الأخرى، ويتعامل معها من وجهة نظر فوقية.

كيف أثرت التجربة الاستعمارية على أولئك الذين استعمروا، من ناحية، والذين ذاقوا ويلات الاستعمار، من ناحية أخرى؟ كيف تمكنت القوى الاستعمارية من السيطرة في هذا الفضاء الواسع من العالم غير الغربي؟ ماذا تبقى من التعليم الاستعماري، والعلوم، والتكنولوجيا؟ أيضاً: كيف أثر الاستعمار على المجتمعات المستعمرة بعد فترة الاحتلال، وكيف أثر التعليم الاستعماري، واللغة المرتبطة به، على ثقافة المستعمرات، وهويتها؟ وكيف أدت العلوم والتكنولوجيا الغربية، والطب الغربي، إلى السيطرة على نظم المعرفة السائدة؟ وما هي أشكال الهوية التي ظهرت بعد رحيل المستعمرين؟ هل يجب عليك دائمًا اتخاذ إجراءات ضد الاستعمار، من خلال العودة إلى طريق الشكل السابق لفترة ما قبل الاستعمار؟

تحتاج هذه الأسئلة إلى الكثير من الدراسات، وإعادة البحث، للوصول إلى بعض الإجابات.

[٤٢]بن أحمد، محمد، خطاب ما بعد الاستعمار في الأدب، ٢٠١٦، الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا للنشر IIUM Press.

ولشرح المزيد حول هذه النظرية، في الممارسة العملية، وكيف عبّر الكتُاب عن ذلك من خلال نتاجهم الأدبي، قدّمنا مثالاً إفريقياً عربياً، واثنتين من رواياته المعروفة، وهو – كما نوهنا - الدكتور نجيب الكيلاني، وروايتيه: (ليالي تركستان) و(نابليون في الأزهر).

عبّر المفكرون والكتاب المستغربون، خصوصاً في العالم الغربي، عن تغيرات في واقع مجتمعاتهم الأصلية؛ من حيث اعتقاداتهم الدينية، وحالتهم الثقافية، والاجتماعية، وفي كافة نواحي الحياة. وتجدر الإشارة إلى أن هؤلاء ساهموا في المجال الفكري، والنقد، وأوصلوا رسالتهم - بشكل أو بآخر - إلى المجتمعات الغربية، للتعريف بشعوب الشرق.

لقد بدأ ظهور المشروع الاستعماري الأوروبي عندما أصبح من الممكن التحرك العسكري بشكل أسهل في البحار، ونقل أعداد كبيرة من الناس في جميع أنحاء المحيطات، والسيطرة على السيادة السياسية للبلدان الأخرى، على الرغم من التشتت الجغرافي الواسع.

إن استخدام مصطلح الاستعمار يهدف إلى وصف عملية التوطين الأوروبية، والسيطرة السياسية على بقية العالم؛ بما في ذلك الأمريكيتين، وأستراليا، وأجزاء من أفريقيا وآسيا.

ومن الصعوبة تحديد تعريف دقيق للاستعمار، بناءً على حقيقة أن المصطلح يستخدم -غالباً - كمرادف للإمبريالية. لأن الاستعمار، والإمبريالية، ما هي إلا شكل من أشكال الاحتلال التي جرت لتفيد مصالح أوروبا؛ اقتصادياً واستراتيجياً. وكثيراً ما يستخدم مصطلح الاستعمار لوصف المستوطنة الأوروبية في أمريكا الشمالية وأستراليا ونيوزيلندا والجزائر والبرازيل، والأماكن التي سيطر عليها مواطنون كثر من السكان الأوروبيين الدائمين.

ويميز بعض العلماء بين المستعمرات المقامة للاستيطان، والمستعمرات المقامة للاستغلال الاقتصادي. ويستخدم آخرون من الباحثين مصطلح الاستعمار لوصف الدول التابعة التي تحكمها أمة أجنبية بشكل غير مباشر، وهذا هو الفرق والتباين مع الإمبريالية، التي تعني الهيمنة وحكم البلدان بشكل مباشـر. والمسألة هي حكومة أجنبية تدير إقليماً دون تسوية أو اتفاق واضح مع شعوب هذه المناطق؛ ومن الأمثلة النموذجية: احتلال أفريقيا في أواخر القرن التاسع عشر، والسيطرة الأمريكية على الفلبين، وبورتوريكو. ومع ذلك، ليس هناك كبير تمييز بين الاثنين، وهو غير مميز تماماً في المجال الأدبي.

قام (دوغلاس روبنسون) بتحديد **ثلاثة تعريفات لمصطلح (ما بعد الاستعمار)**، والتي تختلف بشكل كبير بحسب السياقات التاريخية، وهي كما يلي: [٤٣](روبنسون، ٢٠١٤: ١٢)

[43] Robinson, D. (2014). Translation and Empire: Postcolonial Approaches Explained. . Rutledge.

التعريف الأول: أن نظرية ما بعد الاستعمار هي دراسة للمستعمرات الأوروبية السابقة منذ استقلالها؛ والطريقة التي استجابت بها للإرث الثقافي الاستعماري؛ سواءَ باتباعه وتطبيقه، أو بالتكيف معه، أو بالتصدي له ومقاومته، أو بالتغلب عليه، من خلال الاستقلال. ومن هنا تشير بعض خصائصها إلى ثقافات ما بعد نهاية الاستعمار، مغطاة بفترة تاريخية، هي النصف الثاني تقريباً من القرن العشرين.

التعريف الثاني: أن نظرية ما بعد الاستعمار هي دراسة للمستعمرات الأوروبية السابقة منذ استعمار ها؛ وطريقة استجابتها للإرث الثقافي الاستعماري، سواءَ باتباعه وتطبيقه، أو بالتكيف معه، أو بالتصدي له ومقاومته، أو بالتغلب عليه من خلال الاستقلال. ومن هنا تشير بعض خصائصها إلى ثقافات ما بعد نهاية الاستعمار مغطاة بفترة تاريخية، هي – تقريباً - بداية القرن السادس عشر.

التعريف الثالث: ما بعد الاستعمار هو دراسة لجميع الثقافات والمجتمعات والأمم والبلدان، من حيث علاقات القوة التي ترتبط بالثقافات الأخرى والمجتمعات والبلدان والأمم، أي كيف أخضعت الثقافات المفتوحة الثقافات الأقل انفتاحاً لإرادتها، وكيف تأثرت القطاعات المختلفة للمجتمع; وكيف استجابت الثقافات المفتوحة لهذا الإكراه، وتكيفت معه، أو قاومته، أو تغلبت عليه؟. هنا إطلاق صفة (ما بعد) تشير - حسب نظرتنا في أواخر القرن العشرين - إلى علاقات القوة السياسية والثقافية، والفترة التاريخية التي تغطيها هو التاريخ كله.

يتطابق التعريف الأول مع مفهوم ما بعد الاستقلال، حيث يركز العلماء على التداعيات السياسية والثقافية واللغوية والدينية والأدبية على المجتمعات المستعمرة سابقاً، والمستقلة حديثاً، وينتصر النقاد لهذا التعريف، لأن هذا المجال له وقت محدود، وإشكالية معرفية محددة واضحة إلى حد كبير، كما هو الحال في كثير من الأحيان فيما يتعلق باللغة والهوية والمكان والانتماءات. إذا أخذنا الجزائر كمثال على المستعمرة السابقة للدول الأوروبية، فإن المجال النظري لما بعد الاستعمار، وفقاً للفترة التاريخية، والمشكلات السابقة، بشكل خاص، يتمحور حول قضية الفرنكوفونية في المجتمع الجزائري فيما بعد الاستقلال.

أما التعريف الثاني، فيشمل المرحلة الثانية من الاستعمار، وما تلاه، ويركز على المستعمَرين، كما يركز – أيضاً - على المستعمرين. كما يلقي الضوء على مناطق الظلام في تاريخ أوروبا الاستعمارية، ويطرح أسئلة محرجة حول مدى دوافع وآفاق طموحاتها الاستعمارية. كما يحلل خطاباتها التي تحيط بالحضارة والتنمية والدعاوى التبشيرية، والمبطنة بالنوايا والطموحات الاقتصادية والثقافية. كما يبحث عن المواد الخام، والأسواق

الخارجية، وينشـر الثقافة الأوروبية في البلدان الأخرى. وإذا عدنا إلى المثال الجزائري -كمجال لدراسة ما بعد الاستعمار، ولتحليل العلاقات الاستعمارية بين الجزائر وفرنسا - فيجب أن نقف على العملية الاستعمارية، وردود فعل المستعمَرين.

التعريف الثالث هو الأكثر شمولاً والأوسع طموحاً، لأنه يشمل العلاقات الاستعمارية، على الصعيد العالمي على مدى تاريخ طويل. ومن هنا، وعلى هذا المستوى، تبدو النظرية وسيلة للنظر في علاقات القوة بين التحولات الثقافية والنفسية والاجتماعية التي تنتجها ديناميات الهيمنة والإكراه المنسق، والتوسع الجغرافي واللغوي. علاوة على ذلك، فهي لا تحاول تفسير كل شيء في هذا العالم، ولكنها تقتصر على هذه الظاهرة المهملة الوحيدة، التي تسيطر على ثقافة معينة بثقافة أخرى. [٤٤](روبنسون، ٢٠١٤: ١٣)

لذلك يمكننا أن نقول باختصار: إن ما بعد الاستعمار هو خطاب نقدي يهدف إلى تفكيك الخطاب الاستعماري، ومحاولة مراجعة تاريخ الأدب في البلدان المستعمَرة أولاً، عن طريق إعادة كتابة تاريخ حضارة البلدان المستعمرة من وجهات نظر البلدان المستعمَرة.

ما بعد الاستعمار هو مصطلح تأسس أَساساً في المجال السياسي منذ عام ١٩٧٠، لوصف حالة الدول المستقلة حديثاً، ثم دخل في مجال نظرية النقد الأدبي لوصف حالة كل دولة أو ثقافة تأثرت بعملية الاستعمار، منذ لحظة الاستعمار حتى يومنا هذا.

وقد ظهر المصطلح لأول مرة على صفحات المجلة الأكاديمية في منتصف الثمانينيات، حيث تقوم بعمل الترجمات في المؤسسة، كما هو معروف في الكتاب الشهير (الإمبراطورية ترد بالكتابة: النظرية والممارسة في أدب ما بعد الاستعمار)، من قبل (آشكروفت)، و(غريفيث) و(تيفين)، حيث حدّد هؤلاء في مجال الأدب جغرافياً، ويشمل أدب جميع البلدان الأفريقية وأستراليا وبنغلاديش وكندا ودول البحر الكاريبي والهند وماليزيا ومالطا ونيوزيلندا والباكستان وسنغافورة وجنوب المحيط الهادئ وسريلانكا. اعترف الكتاب أنفسهم بأنهم ركّزوا عمداً على أدب المستعمرات البريطانية السابقة، دون إمبراطوريات أوروبية مستعمرة أخرى، وهذا لا يعني أن أدب ما بعد الاستعمار هو حصريٌ على الأدب الأنكلوفوني، بل يمتد حتى الأدب الفرنكوفوني، وغيره، وتمت مناقشته ومعالجته حسب الاستشهادات الأوروبية الفرنكوفونية. إذن، القيود الجغرافية لا تكفي للتعرف على أدبيات

[44] Robinson, D. (2014). Translation and Empire: Postcolonial Approaches Explained. . Rutledge.

ما بعد الاستعمار، ولكن يجب أن تقف على الحدود وشواغلها.[٤٥](Bill Ashcroft، ١٩٨٩: ٢٥)

حددت (ويكيبيديا) نظرية ما بعد الاستعمار على النحو التالي: ما بعد الاستعمارية هي الدراسة الأكاديمية للإرث الثقافي للاستعمار والإمبريالية، وهي تركز على التبعات البشرية لاستغلال السكان الأصليين، في الأراضي المستعمرة، والسيطرة عليهم وعلى أراضيهم. تعتبر ما بعد الاستعمارية تحليلًا نظريًا نقديًا لتاريخ وثقافة وأدب وواقع القوى الاستعمارية الأوروبية.[٤٦] (موقع ويكيبيديا)

فأدب ما بعد الاستعمار هو أدب البلدان المستعمرة من قبل الدول الأوروبية - في الغالب-، والتي تتوزع على جميع القارات، ما عدا (أنتاركتيكا). غالباً ما يتناول هذا الأدب مشاكل وعواقب الاستعمار في بلد ما، ولا سيما الأسئلة المتعلقة بالاستقلال السياسي والثقافي للشعوب المستعمرة سابقاً، والموضوعات المهمة، مثل العنصرية والاستعمار.[٤٧](مابعد الكولونيالية، ٢٠١٧: ١)

تطورت مجموعة من النظريات الأدبية حول هذا الموضوع، لأن أدب ما بعد الاستعمار يعمل على إعادة الكتابة، أو إعادة القراءة، وهذا ما أدى إلى تعديل التفسيرات الأدبية الشهيرة من وجهات نظر كُتاب دول المستعمرات السابقة، مثل رواية (بحر سارجاسو الواسع)، التي تعتبر إعادة كتابة لـ(جين إير)، رواية (شارلوت برونتي)، حيث يعيد تشكيل مناهضة السرد الاستعماري للشعوب المحلية كضحايا وليس كأعداء للمستعمرين، وهذا ما يسهل تصوير الشعوب المستعمَرة بشكل كبير على أنهم شعوب إنسانية مظلومة، وأيضاً بإعفائهم من مسؤوليتهم. وبعبارة أخرى: اعتبر أدب ما بعد الاستعمار - في الغالب - بمثابة تفكيك للنصوص الاستعمارية من أجل الكشف عن أيديولوجياتها الاستعمارية، بقصد أم دون قصد، ولفضح حجم التناقض بين مزاعم الحضارات التي يتفاخر بها الخطاب الأوروبي. لعل أهم النصوص الأدبية لما بعد الاستعمار، على سبيل الذكر وليس الحصر، هي

---

[45] Bill Ashcroft, G. G. (1989). The Empire Writes Back: Theory and Practice in Post-colonial Literature. London and New York: Rutledge

[٤٦] انظر موقع ويكيبديا،على الرابط :
https://ar.wikipedia.org/wiki/%D9%85%D8%A7_%D8%A8%D8%B9%D8%AF_%D8%A7%D9%84%D8%A7%D8%B3%D8%AA%D8%B9%D9%85%D8%A7%D8%B1%D9%8A%D8%A9.

[٤٧] عتيق، الدكتورة مديحة، ما بعد الكولونيالية: مفهومها، أعلامها، أطروحاتها، جامعة سوق أهراس.

رواية (الأشياء تتداعى)، لـ (تشينوا أتشيبي)، و(موسم الهجرة إلى الشمال)، لـ(الطيب صالح)، التي تعتبر بمثابة إعادة قراءة لرواية (قلب الظلام) لـ(جوزيف كونراد).

اعتبر معظم مفكري ما بعد الاستعمار أن قواعد المعرفة للفكر الاستعماري لا تزال موجودة حتى اليوم، لذا فهم يسعون إلى تقديم خطاب جديد يعيد صياغة إطار المعرفة الغربية حول الشرق. كما يبحث مثقفو ما بعد الاستعمار عن طرق للتغلب على آثار الاستعمار على الشعوب التي عانت بشكل خاص على المستوى الثقافي، وذلك من خلال إبراز صوت الفئات المهمشة في المجتمعات التي مرت بالاستعمار. في هذا الإطار، ومن خلال العقدين الأخيرين من الدراسات، ظهر عدد من التخصصات في مجال دراسات ما بعد الاستعمار ، وأبرزها دراسات حول التابع.

لقد ترك خطاب ما بعد الاستعمار تأثيراً كبيراً في أعمال عدد لا يحصى من الروائيين، مثل (تشينوا أتشيبي)، و(سوينكا)، الحائزَين على جائزة نوبل للآداب، و(ديريك والكوت)، و(أميتاف غوش)، وغيرهم.[٤٨](ما بعد الكولونيالية ، ٢٠١٧: ٢)

١.١. مفاهيم ما بعد الاستعمار:

١.١.١. الاستشراق:

يعد الكاتب الأمريكي من أصل فلسطيني (إدوارد سعيد) من أشهر الشخصيات التي تحدثت عن مصطلح ما بعد الاستعمار، وطورته، ووسعت النقاش فيه، خاصة في كتابه (الاستشراق)، الصادر عام ١٩٧٨. وهذا الكتاب تحليل جذاب ومتين لما تمثله النظرة الغربية للشرق والعالم الإسلامي وجنوب شرق آسيا، والذي أتبعه بكتاب آخر، هو (الثقافة والإمبريالية)، وربما هو المؤسس الحقيقي لهذا الموضوع، حيث كان من أوائل من لفت الانتباه إلى المصطلح.

لقد حاول تفسير هيمنة الإمبراطورية الأوروبية، وتحديد طبيعة دور أوروبا نفسها، وقال إن الاستشراق عمل كنظام إنتاج معرفي، وأنتج سلسلة من اللقاءات الهرمية بين الغرب والشرق؛ حاول الغرب فيها أن يؤكد تفوقه وسيطرته على المجتمعات الشرقية. والأهم من ذلك، أن (إدوارد) قدم مجموعة مهمة من الأدوات الفكرية لأفراد المجتمعات الثانوية، ولم يقتصر عمله على القراءات الصعبة للمفكرين الآخرين، بل كان له - أيضاً - تأثير عميق على الأبحاث في العلوم الإنسانية بشكل عام.

[٤٨] عتيق، الدكتورة مديحة، ما بعد الكولونيالية: مفهومها، أعلامها، أطروحاتها، جامعة سوق أهراس.

انطلق (سعيد)، في كتابه (الاستشراق)، من مبدأ أساسي، وهو أن هناك هيمنة خطاب يفرض مفهومه أو تمثيله على الآخر، الذي ليس لديه خطاب يمكن أن يمثل نفسه. ومن هنا جرب (سعيد) وألقى بالمسؤولية على عاتق العديد من الكتابات الغربية، والخطابات الأيديولوجية، التي جعلت من الشرق موضوعًا في مجالات مختلفة من المعرفة، مثل: فقه اللغة، والأنثروبولوجيا، والمسرح، والأدب.

القاسم المشترك لهذه الرسائل - وفقاً لـ(إدوارد) - كانت دونية الشرق، والنظر فيه ككيان ثقافي وحضاري مختلف، مما أدى إلى نهج الأيديولوجية الاستعمارية، التي ترى أن من واجب المثقفين الغيورين أن يحملوا الشعلة والحضارة والتقدم والحرية لتلك البلدان المتخلفة الشرقية، في جميع المجالات. إنه مجرد خطاب أيديولوجي فج، يكون هدفه الأول والأخير هو الهيمنة الاستعمارية على هذا العالم الآخر، وبصورة أدق: مناورة خفية تدعم وتساهم في تشكيل صورة الغرب كحضارة وقوة متفوقة.

حاول (إدوارد سعيد) استكشاف أبعاد هذا النهج الغربي في كتابه (الاستشراق)، وأوضح أن الاستشراق مرآة تعكس قوة الغرب، وشهوته الإمبريالية، وهو أسلوب لكيفية تكوين الأمم بالمعرفة بطرق مختلفة، ومن خلال السرديات الكبرى على وجه الخصوص. معرفة تطورت مع توسع الاستعمار الأوروبي الفرنسي والإنجليزي، وتعبير للمجتمعات والشعوب الأخرى الخاضعة للفعل الاستبدادي، وتصويرها كمجتمعات وشعوب يجب أن تُحكم ويسيطر عليها، لا ككيانات يجب فهمها والحكم عليها بطريقة عادلة وموضوعية. لذا، فإن الاستشراق هو الخيط الأول لبدء الحديث عن الخطاب الاستعماري.

ومن هنا، فإن كتاب (الاستشراق) هو الأقرب إلى النقد المضاد، أو ما يمكن وصفه بالخطاب المعاكس للمهاجرين، يشمل كل ميل أساسي في فهم الثقافة والأدب والنقد. ولقد اختار (إدوارد) في هجومه هذا أحد أكثر الخطابات تعقيداً في الفكر الغربي عن الشعوب الأخرى ، وهي الدراسات الاستشراقية. لذلك يعتقد أن البحث عن المعرفة في المجال الاستعماري لا يمكن أن يكون عادلاً، أولاً لأ ن العلاقة بين الثقافات غير متكافئة، وثانيا تلك المعرفة، سواء كانت اللغة، أو العادات، أو ديانات هذه الشعوب، استخدمت دائمًا لمصلحة الإدارة الاستعمارية.[٤٩](حمادي ، ٢٠١٤: ٢)

الفكرة الأساسية التي يدافع عنها ويركز عليها (إدوارد سعيد) هي أن الشرق - كما يدركه الغربيون - ما هو إلا اختراع أو تلفيق لغوي وأيديولوجي لا علاقة له بالشرق

[49,8] Hammadi, L. (2014, June). Edward Said ; The postcolonial Theory and The literature of Decolonization,. European Scientific Journal, 12, 202

الجغرافي، الموجود موضوعيًا في الواقع. الهدف من هذا هو تحقيق الهيمنة، وممارسة الهيمنة الثقافية والإمبريالية على الشعوب الأخرى، وهنا تلتقي المعرفة بالقوة، وفقًا لـ(ميشيل فوكو)، وهذا يعني أن قوة الغرب قد أعطت لنفسها الفرصة لأخذ الشرق كموضوع لها في الدراسات والبحوث المعرفية، ولكن تم استغلال هذه المعرفة نفسها كغطاء أيديولوجي لممارسة الهيمنة والقوة الاستعمارية على الشرق. لذا، فإن الرؤية السائدة في كتاب (الاستشراق) هي أن العلاقات بين الغرب والدول الأخرى ستستمر في أن تكون موصوفة بالانقسامات والصراعات كنتيجة حتمية، وكردود فعل على العنف الذي خلقه التاريخ الاستعماري. [٥٠](حمادي ، ٢٠١٤: ٣)

١.١.٢. الهيمنة:

استخدم الفيلسوف الإيطالي (أنطونيو غرامشي) هذا المصطلح أولاً فلسفيًا، وفسّره على أنه محاولة فعالة لتفسير قوة السلطة الدائمة لتشكيل مفهوم الذات والقيم والأنظمة السياسية وشخصية الشعب ككل، حتى بعد فترة طويلة من زوال المصدر الخارجي لتلك القوة. الهيمنة مبنية (في العالم الغربي) على القوة الثقافية والعلمية والأخلاقية والاجتماعية والاقتصادية، ولا يحتاج الناس من دول الجنوب للتحدث مع الغرب لفهم ذلك، فهم يشعرون من تعابير الناس وحركاتهم وتعاملهم معهم، أنهم أمام شخص آخر مختلف، وحتى أمام كتلة بشرية أخرى؛ في بنيتها ونظامها، وفكرها وثقافتها. ومما لا شك فيه أن المستعمر الغربي مارس - وما زال يمارس- الازدواجية في التعامل، بين ادعاءاته بالقيم والأخلاق والفلسفات، وبين سلوكياته وأفعاله، سواء في العصر الاستعماري، أو ما بعده، وحتى يومنا هذا، وهو أصبح معروفًا في الوقت الحاضر بسياسة ازدواجية المعايير، التي تظهر في الشعارات الغربية وإعلامها. المستعمر الغربي الذي يدعي الإنسانية، ينخرط في ممارسة التمييز والاستبداد وإلغاء الآخر، وقد يستنكر أعمال العنف من قبل الطرف المقاوم، في الوقت الذي يقوم هو نفسه بممارسة أقسى صور العنف وأبشعها. يعني أن ما يستبعده المستعمر، أو ينفيه بطريقة ما، فهو يجلبه ويعطيه معنى ومصداقية بطريقة أخرى، أو على مستوى مختلف، ويفاجئنا بالطغيان مغطى بحب الحرية، أو يدعو إلى المساواة، ولكنه يقدم نوعاً من التمايز فحسب. وهذا هو سلوك النفاق بذاته من قبل من ينادون بالحرية، في الوقت الذي يمارسون فيه وصايتهم النخبوية على البشر، ليحتكروا

حقوقهم، ويحرموهم من كل ما لهم من الثروات المادية والمعنوية. [٥١](عطية، دكتور مصطفى جمعة. أدب ما بعد الاستعمار في كتاب «القرن المحلّق».٢٠١٧ الخرطوم، جائزة الطيب صالح، ٢٠١٧: ١٣)

يقول (فرانتز فانون)، في كتابه المهم (معذبو الأرض): إن هذا العالم مقسم إلى قسمين، يسكنهما نوعان مختلفان من البشر. وأصالة السياق الاستعماري هو أن الواقع الاقتصادي، وعدم المساواة، والاختلاف الهائل في أساليب الحياة، لا يخبئ أبدًا الواقع البشري. وعند فحص السياق الاستعماري، واستقراء أحداث التاريخ، يبدو أن ما يقسم العالم يبدأ بحقيقة الانتماء أو عدم الانتماء إلى عرق معين، أو نوع معين. والأساس الاقتصادي للمستعمرات هو البنية الفوقية، والسبب هو النتيجة، فأنت غني لأنك أبيض، وأنت أبيض فإنك غني، ولهذا السبب يجب أن يتوسع التحليل الماركسي دائمًا عند التعامل مع مشكلة الاستعمار. أعلن (فرانز فانون) بشكل حاسم أن العنف هو السبيل الوحيد لتفكيك الاستعمار ، بالقول إن "إنهاء الاستعمار هو دائمًا عنيف" [٥٢](فانون ، معذبو الأرض ، ٢٠٠٤: ١). وأمام هذا البيان الحاسم، شجب (فانون) ورفض أي محاولة أخرى للتواصل بين الطرفين، سواء كانت المحاولة في شكل تسوية أو مفاوضات، وذلك لقناعة (فانون) بأن العالم الاستعماري هو عالم ثنائي، يحاول كل طرف استبدال الآخر، لذلك لا يمكن زوال هذا الثنائي إلا بالعنف. لذا، فإن تغيير العالم الاستعماري من قبل المستعمر، ليس معركة عقلية بين وجهتي نظر. إنه ليس تفاوتًا في الكلام بين البشر، ولكنه تأكيد عنيف للأصالة المطلقة. (فانون، معذبو الأرض ، ٢٠٠٤: ٥)

(فرانتز فانون) لا يؤسس إيمانه بالعنف على اعتبارات عنصرية، أو انتقام شخصي، بل إنه يبني قناعته ورأيه بفاعلية العنف، انطلاقًا من التحليل النفسي لثنائية الصراع، وقد تم بالفعل إنهاء عملية الاستعمار بطريقة عنيفة، ويشهد التاريخ على هذا القول بما يروي من قصص عن مجازر وحشية وإبادة جماعية بحق الشعوب الأصلية، كما أن المستعمر يعترف بعنفه، بحجة وغطاء رسالته الحضارية والثقافية، بزعم أنها ستفطم الملايين من الناس البدائيين والوحشيين اللبن - على حد تعبير فرانز فانون-، الذي يقول إن النظام الاستعماري يستمد شرعيته من السلطة، ولا يحاول - في أي لحظة من اللحظات - أن

[٥١]عطية، دكتور مصطفى جمعة. أدب ما بعد الاستعمار في كتاب «القرن المحلّق».٢٠١٧ الخرطوم,جائزة الطيب صالح.

[52]Fanon, F. (2004). The Wretched of the Earth. (R. Philcox, Çev.) New York : Grove Press

يراوغ في هذه القضية التي تنسجم مع طبيعة الأشياء، فالنظام مدين بشرعيته للقوة، ولا يسعى في أي وقت للتغطية على هذه الطبيعة للأشياء ". (فانون، معذبو الأرض، ٢٠٠٤: ٤٢)

لم يكن العنف الاستعماري على شكل إبادة جماعية ومجازر فحسب، بل تجاوزه إلى تشويه صورة الآخر، أي جعل الشعوب الأخرى الراضخة تحت الاستعمار شراً مطلقًا. إنه عنصر هدام، يدمر كل ما يقترب منه، عنصر تخريبي يشوه كل ما يرتبط بالجمال والأخلاق، إنه مستودع للقوى الشيطانية، إنه أداة للقوى العمياء، وأداة ليس لها وعي ولا توجد طريقة لإصلاحها. وهذا ما قاله السيد (ماير) بجدية في (المجلس الوطني الفرنسي): "لا ينبغي السماح بتدنيس الجمهورية بقبولها دخول المواطن الجزائري إليها". [٥٣](فانون ، معذبو الأرض ، ٢٠٠٤). فهذه التصريحات تشكل جزءاً من خطاب أوسع وأشمل يسمى الخطاب الاستشراقي، والذي عمل عليه (إدوارد سعيد) في كتابه التأسيسي (الاستشراق)، كما نوضحه لاحقًا. وأمام هذه النظرة الدونية التي يراها المستعمر (بكسر الميم) إلى المستعمَر (بفتح الميم)، لا يستطيع الأخير امتلاك سوى إحساس كبير بالكراهية تجاه المستعمر، الذي لا يذكّر المستعمَر إلا بوضعه المتدهور؛ ففي مقابل ثراء ومعرفة الدول المستعمِرة، لا يذكرون إلا فقر وجهل الشعوب الأخرى، وهذا ما خلق الشعور الانتقامي الذي يؤدي إلى الحسد والرغبة في استبدالهم. هذا هو الواقع، بحيث يرى المستعمَر كل يوم حلماً، مرة واحدة على الأقل، بزوال الاستعمار بكل أشكاله عن بلادهم، وأخذ مكانهم منهم.

إذا كانت (قوانين نيوتن) تؤكد أن لكل فعل رد فعل مساوٍ في القوة، ومعاكس في الاتجاه، فلا عجب أن تفكيك الاستعمار هو فعل تاريخي، هو ظاهرة واضحة تجعل العنف المطلق إلزامياً، لكنه عنف بنّاء، ومثمر، وإيجابي، فهو يصنع معنى للحياة، وهدفًا للمستعمَر، ويوحد الأفراد على المستوى القومي، ويذيب الكراهية الداخلية، ويمحو الخلافات العرقية والقبلية، ويطهر الأرواح المعذبة من الكراهية والحسد واليأس ومشاعر النقص، ويطهر العقول من الأساطير والأشباح والغول ..إلخ.

وهنا يتحدث (فانون) عن شيء آخر - ولكننا لن نتطرق إليه، لضيق المجال - وهو: ما هي الطبقة التي يمكنها ممارسة العنف، وتحقيق تحررها الوطني؟ وقام بتحليل الطبقات

[53],[12] Fanon, F. (2004). The Wretched of the Earth. (R. Philcox, Çev.) New York : Grove Press

الاجتماعية، وتوصل إلى أن الفلاحين وحدهم هم من يستطيعون القيام بالثورة، والنجاح في تحرير بلدهم [٥٤](فانون ، معذبو الأرض ، ٢٠٠٤: ٥٣)..

يدرك (فرانز فانون) حقيقة أن أوروبا تدين في تطورها ورقيها إلى المستعمرات القديمة، لأنها استنزفت ثرواتها من الموارد الطبيعية والموارد البشرية لتلك البلاد، منذ قرون طويلة، لذلك على أوروبا دفع ثمن تطورها، ويجب عليها أن تساعد المستعمرات القديمة في التقدم دون قيود أو منّ أو أذى. يقول (فانون) إن أوروبا أنشأها العالم الثالث، والثروات التي سرقت منها، صنعت أوروبا اليوم، وجعلتها من الشعوب المتقدمة. وإن من الواجب على أوروبا تقديم المساعدات إلى الشعوب النامية والفقيرة، كاعتراف بالنعمة، وكتعويض عادل يقدم لها.. ويؤكد أننا لا نقبل أن تقدم المساعدات إلى البلدان المتخلفة كبرامج خيرية، ولكن ينبغي أن يحدث هذا من منطلقين: الأول من وعي المستعمَرين أن هذا من حقهم. والثاني متعلق بوعي البلدان الرأسمالية؛ حيث يجب أن يفهموا أن عليهم حقاً، وأنهم يجب أن يدفعوا.

وهذا مناقض للأدب والعرف الاستعماري، الذي ينسب تطوره إلى المواصفات الذاتية والتفوق العنصري على العروق الإنسانية الأخرى. وهذا الاعتراف يخالف الموقف الاستعماري الذي يدعي أن ما فعلته أوروبا هو إيصال رسالة ثقافية إلى جانب الإنجيل والقلم، ومصروفة من أموالها. سحق (فانون) هذه الادعاءات رأساً على عقب، بتأكيده أن ازدهار أوروبا يرجع إلى المستعمرات السابقة، وأن أقل ما يجب أن يفعلوه هو أن يعيدوا الديون المادية ضمن ترتيب إصلاح ما أفسدوه لعدة قرون.

إن أطروحة (فانون) تعد عموداً أساسياً لمرحلة ما بعد الاستعمار[٥٥](فرانز فانون، ٥٥)، وهذا ما أكد عليه فيما بعد (إدوارد سعيد)، وجعله أساساً لنظرته في كتابه الشهير (الاستشراق).

الممارسات الاستعمارية تقوم على أساس استخدام القوة العسكرية في ضبط وتغيير التركيبة السكانية، وبناء الخريطة السياسية، وتخطيط حدود جديدة، لتسهيل عملية السيطرة، فكلما زاد تفرّق السكان، وضعفت قدراتهم، ساهم ذلك أكثر في الرضوخ للمستعمر، وسهل في الشروع في فرض الثقافة والأخلاق على الناس، بما في ذلك إعادة رسم سلوكياتهم الجديدة، والأفعال التي تتوافق مع ثقافة المستعمر، وسياسة القهر العسكري.

[55] Fanon, F. (2004). The Wretched of the Earth. (R. Philcox, Çev.) New York : Grove Press

هذه هي سياسة قديمة استخدمها أسلافهم الرومان لإخضاع الشعوب الأخرى، على حد تعبير (مونتسكيو)، في كتابه (تأملات في تاريخ الرومان). فهناك عدة طرق يحاول بها المستعمر إخضاع الشعوب الواقعة تحت سيطرته، ومنها المعاهدات، بحجة الحماية الاقتصادية، والسيطرة من خلال معاهدات طويلة الأمد، يفقد فيها المستعمَر الكثير من إمكانياته لصالح المستعمر، الذي يحول الثقافة المحلية من سياقها الفعلي إلى سياق أكثر تعقيدًا وغرابة. وكل هذه الأساليب تساهم في تحقيق أهداف حقيقية للمستعمر، كما أن كل هذه الأساليب تنعكس سلبًا على سلوك وتصرفات الشعوب في ظل الاستعمار.[٥٦](محمد بن أحمد ، ٢٠١٦: ٤).

المراجع:

- أنيا لومبا، (٢٠٠٧م.) في نظرية الاستعمار وما بعد الاستعمار في الأدب. (ط .)١ترجمة: د. محمد عبد الغني غنوم، اللاذقية، دار الحوار.
- براون ، ج،ب. تحليل الخطاب، ترجمة: محمد الزليطي، ١٩٩٧، جامعة الملك سعود، الرياض.
- القاعود، حلمي محمد، الرواية الإسلامية المعاصرة، دار العلم والإيمان، ٢٠٠٩.
- عطية، دكتور مصطفى جمعة. أدب ما بعد الاستعمار في كتاب (القرن المحلّق)، ٢٠١٧، الخرطوم، جائزة الطيب صالح.
- بن أحمد، محمد، خطاب ما بعد الاستعمار في الأدب، ٢٠١٦، الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا للنشر IIUM Press.
- عتيق، الدكتورة مديحة، ما بعد الكولونيالية: مفهومها، أعلامها، أطروحاتها، جامعة سوق أهراس.
- شركيان، د. عمر مصطفى، عنصريّة الرجل الأبيض في رواية (قلب الظلام) لجوزيف كونراد.
- ديملي، فاطمة، تفكيك الخطاب الكولونيالي وإسقاط الأقنعة، مجلة تطوير، العدد الثاني، نيسان ٢٠١٥، جامعة سعيدة، الجزائر.
- بن علي، امغر الحافظ، معالم خطاب ما بعد الاستعمار في روايتي (مواكب الأحرار) لنجيب الكيلاني، و(أسرة حرب العصابات) لبرامود، ٢٠١٧، الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا للنشر IIUM Press.
- ثقافة المقاومة، صحيفة الاتحاد، https://www.alittihad.ae/article/9523/2017

- AlWadhaf، Y. H. (2008). A Postcolonial Reading of Selected Arabic Novels. Kulalampur، Kulalampur، Malaysia: Putra University.
- Badawi، M. M. (1985). Modern Arabic Literature and the West. London : Ithaca Press
- Ball، J. (2004). Imagining London: Postcolonial Fiction and the Transnational Metropolis. Toronto: University of Toronto Press

[٥٦]بن أحمد، محمد: خطاب ما بعد الاستعمار في الأدب،٢٠١٦، الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا للنشر IIUM Press.

- Bhaba، H. (1996). The Location of Culture: Discussing Post-Colonial Culture. London: Routledge.
- Bill Ashcroft، G. G. (1989). The Empire Writes Back: Theory and Practice in Post-colonial Literature. London and New York: Rutledge.
- Bill Ashcroft،Gareth Griffiths،Helen Tiffin. (1998). The Key Concepts in Post-Colonial Studies. London،New York: Routledge.
- Boehmer، E. (1995). Colonial & Postcolonial Literature. . Oxford and New York: Oxford University Press.
- Carter، D. (2006). Literary Theory. Pocket Essentials
- Conrad، J. (2007). The Heart of Darkness. London : Penguin Classics
- Davis، C. (2005). The Politics of Postcolonial Publishing. London: Oxford
- Dr. Pona Mahanta، Retd.، Dibakar Maut . (2014، November). The Impact of Colonizer on the Colonized: A Postcolonial Study of Nigerian Igbo Culture and History in Chinua Achebe's Things Fall Apart. IOSR Journal of Humanities and Social Science (IOSR-JHSS)، 19(11)، 01-8
- During، S. (1993). Postmodernism or Post-colonialism Today. Docherty.
- Fanon، F. (1965). A Dying Colonialism. (M. R. Press، Çev.) New York، United States of America : Grove Press
- Fanon، F. (2004). The Wretched of the Earth. (R. Philcox، Çev.) New York : Grove Press
- Firdous، A. (1993). The Colonial Rise of The Novel. London: Routledge.
- Graduateway. (2017، 6 6). Representation of Colonialism in Joseph Conrad's Heart of Darkness.
- Griffiths، G. (2000). African Literatures in English: East West. Harlow:Pearson Education.
- GÜVEN، S. (2013). Post-Colonial Analysis of Joseph Conrad's Heart of Darkness. Journal of History Culture and Art Research، 2 ، 87. June 2013 http://kutaksam.karabuk.edu.tr/index.php
- Hammadi، L. (2014، June). Edward Said ; The postcolonial Theory and The literature of Decolonization،. European Scientific Journal، 12، 202.
- Harasym، S. (1990). The Post-Colonial Critic: Interviews، Strategies، Dialogues. London: Routledge.
- Helen Gilbert،Joanne Tomkins. (1996). Post-Colonial Drama:Theory،Practs،Politics. London: Routledge.
- Hogan، P. C. (2000). Colonialism and Cultural Identity. New York: State University of New York.
- Huggan، G. (1997، 4). The Neocolonialism of Post colonialism:A Cautionary Note. Links & Letrers، s. 19-24.

- Julian Wucherpfennig، Philipp Hunziker، Lars-Erik Cederman . (2016، October). Who Inherits the State? Colonial Rule and Postcolonial Conflict. American Journal of Political Science، Vol. 60، No. 4 ، 60(4)، 882-898
- K، N. P. (2012). Postcolonial Theory: An Introduction. New Delhi: Pearson.
- Kwame Nkrumah. (1995). Neo-Colonialism، The Last Stage of Imperialism;. Neo-Colonialism، London ، Great Britain : Thomas Nelson & Sons، Ltd
- Nabi، M. b. (1981). The Intellectual Struggle in the Colonial Country. Damascus: Dar al-Fikr.
- Noor، R. (2002، WINTER). Reviewed Work: Perspectives on Postcolonial Literature by D. C. R. A. Goonetilleke . World Literature Today، 76(1)، s. 237. 08 05، 2018 https://www.jstor.org/stable/40157248
- Raskin، J. (2014، 5 9). Imperialism : Conrad's Heart of Darkness. Sage Publications، Ltd. http://www.jstor.org/stable/259954 .
- Robinson، D. (2014). Translation and Empire: Postcolonial Approaches Explained. . Rutledge.
- S.X.Goudie، J. (1997). Theory، Practice and the Intellectuals:A Conversion with Abdul R.Jan Mohamed. A Journal of Post-colonial Studies، 1.(٢) Said، E. (1974). Orientalism .
- Said، E. (1993). Culture and Imperialism. London : Chatto and Windus.
- Said، E. (2011). The Treason of The Intellectuals (first b.). Damascus، Syria : Ninawa House.
- Sharabi، H. (1970). Arab Intellectuals and The West. Baltimore: Johns Hopkins.
- Shirley Chew and David Richards. (2010). A Concise Companion to Postcolonial Literature. John Wiley & Sons، Ltd.، Publication.
- Spivak، G. C. (1999). A Critique of Post-colonial Reason: Toward a History of the Vanishing Present . MA: Harvard UP
- Thiong'o، N. W. (1986). Writing Against Neocolonialism. Wembley،UK: Vita Books.
- Tiongo، N. W. (1986). Decolonising The Mind: The Politics of Language in African Literature. London:.
- Voice and Representation: A Post colonial Approach to Higher Education. (2015). University of Adelaide.
- Wikipedia. (2017، 4 25). (Post colonialism،) 4 25، 2017. www.Wikipedia.com.
- Xie، S. (2015). Rethinking the Problem of Post colonialism. New Literary History، 28(1)، 7-19.

(صبا)
رواية المرأة الكوردية

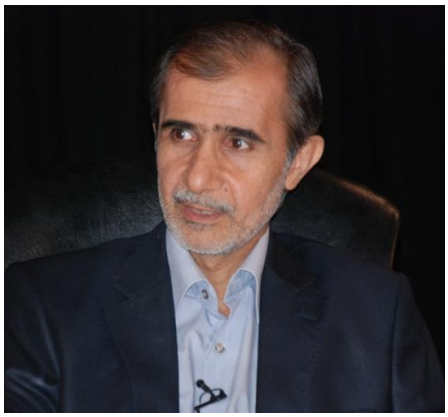

سالم الحاج

✍ رواية صبا هي الأثر الروائي الوحيد للكاتب والروائي الراحل (علي صالح ميران)، الذي وافاه الأجل في ١١/ ٨ / ٢٠٢٠، وقد صدرت في (أربيل)، باللغة الكوردية، عام ٢٠١٥، في ٣٧٤ صفحة من القطع المتوسط..

والرواية تتبع المدرسة الواقعية في الأدب، تلك المدرسة التي تهتم بتصوير الواقع كما هو، لتخلص من خلال ذلك إلى معالجته، وتقديم الحلول لمشاكله، وإحداث التغيير.

تقع أحداث الرواية في كوردستان العراق، في منطقة خوشناوتي تحديداً، بين قريتي (زيني) و(شاري)[٥٧]، ومدينة (أربيل)، في الفترة ما بين (١٩٨٨ - ١٩٨٩)، أي السنوات الأخيرة للحرب العراقية - الإيرانية.. ومع أن بعض أحداث الرواية هي قصص واقعية، لكن الكاتب أتم البناء الروائي اعتماداً على خياله وتجاربه الشخصية.

وتحفل الرواية، التي تتكون من (٤٦) قسماً أو فصلاً، بعدد من الشخصيات الرئيسة، هي:

[٥٧] اسمان وهميان، استعملهما المؤلف لكي لا ينصرف ذهن القارئ إلى مكان مخصوص ومحدد.

١- صبا: وهي فتاة قروية، جميلة، وواعية، تعيش في قرية (زيني)، وتتعرض إلى عدد من المصاعب والمآسي، التي تودي في النهاية بحياتها.

٢- سمكو: وهو شاب من قرية (زيني)، يعشق صبا، ويهرب بها بحثاً عن حياة أفضل.

٣- الأستاذ خوشوي: وهو معلم في قرية (زيني)، يمتاز بروحه الوطنية، ووعيه القومي.

٤- الأستاذة شرمين: وهي معلمة في نفس القرية، وزوجة خوشوي فيما بعد، وتشاطره في الوعي والإخلاص القومي.

٥- أحمد خورشيدي: زوج صبا الأول، الذي فُرض عليها وهي طفلة صغيرة، بناء على التقاليد العشائرية.

٦- عزيز الشيخ: زوج صبا الثاني، رجل لا يعرف غير العمل وكسب المعيشة، يفتقد لصفات الرجولة والكرامة.

٧- جيهان (**چيمەن** ، في النسخة الكوردية): ضرّة صبا، وزوجة عزيز الشيخ الأولى، اللعوب، الحاقدة.

مع عدد آخر من الشخصيات..

حاول الكاتب في هذه الرواية أن يقص صورة واقعية عن حياة المرأة الكوردية في تلك الحقبة، عن طريق الشخصية الرئيسة (صبا)، وعن طريقها طرح أيضاً عدداً من القضايا والأحداث التاريخية.. ويعتمد الكاتب في السرد الروائي على صوت الراوي، العالم بكل شيء، يتخلل ذلك الانتقال إلى الحاضر عن طريق الحوار بين شخصيات الرواية، أو المونولوج أحياناً أخرى..

وفي قراءتنا هذه للرواية، سنعمد إلى بسطها من خلال عدد من المحاور التي اهتمت بها الرواية، واشتغلت عليها، وكالتالي:

أولاً: قضايا المرأة في رواية صبا.

ثانياً: قضايا الثورة والنضال.

ثالثاً: أنموذج الشباب المناضل والواعي بآلام ومآسي شعبه.

رابعاً: صورة المرأة في رواية صبا.

خامساً: دور الدين، ورجل الدين (الملا).

أولاً: قضايا المرأة في رواية صبا

هناك ثلاث شخصيات نسائية في الرواية، تلعب دوراً أساسياً، هي: صبا، والأستاذة شرمين، وجيهان (ضرّة صبا)، بالإضافة إلى عدد آخر من الشخصيات الثانوية.. وجميع شخصيات الرواية، بمن فيها شخصيتا (شرمين، وجيهان) إنما تلعب دور المساعد لإبراز دور صبا وشخصيتها، فهي الشخصية المحورية في الرواية..

صبا فتاة قروية، عقد قرانها - وهي لا تزال صبية في عمر السنوات الخمس- على شخص أكبر منها، اسمه أحمد خورشيدي، وذلك في عملية تبادل (شغار) بينها وبين أخت خورشيدي، التي زوجت لشقيق صبا في حينه.

صبا، فتاة قروية جميلة، في ربيع عمرها، والآن وقد كبرت ووعت مسألة زواجها، ترى نفسها غير راغبة في هذا الزواج، ولا تحب هذا الزوج الذي لم تره ولا تعرف عنه شيئاً سوى ما يتداوله الناس عنه من قصص وحكايات.. وخاصة أنها كانت تسمع عنه كثيراً من الأخبار السيئة، بما في ذلك أنه متزوج ولديه أطفال أيضاً!.. هكذا تتحدث عنه صبا في مقطع من الرواية([٥٨]):

"أنا لا أدري كيف سمحوا بتزويجي لهذا الرجل، وأنا طفلة ذات خمس سنين؟! لا أدري كيف سمح أبي، وإمام المسجد، وأساتذة مدرسة القرية، وقادة البيشمركة، الذين يعتبرون أنفسهم مسؤولين عن كل شيء.. كيف سمحوا بهذا الزواج...؟!!

آه.. يا ربي.. حتى الآن، لم أر هذا الرجل، ولو لمرة واحدة، ولا أدري من هو، ولا ما هي أخلاقه، وصفاته، وطبيعته.. والأسوأ من ذلك، هو متزوج بامرأة أخرى، وله عدة أطفال، ومع هذا فهو لا يتركني لسبيلي.." (ص ٧).

ويبرر الراوي موقف صبا الرافض لزوجها، والكاره له، في هذا المقطع:

"ولم تكن صبا بملومة في موقفها هذا، وذلك لكثرة ما كانت تسمعه من الناس عن أحمد خورشيدي هذا، كونه شخصاً قاتلاً لا يعرف الرحمة، وله زوجة أخرى، وأنه غير متزن، وفي خصام دائم مع المحيطين به، وغير مهتم بزوجته وأطفاله، ويظلمهم كثيراً.. لذا، كانت تفكر وتندب سوء حظها دوماً، وتلعن اليوم الذي تم فيه تزويجها من هذا الشخص، وهي طفلة لا يتجاوز عمرها السنوات الخمس، كبدل عن زوجة أخيها.." (ص٩).

([٥٨]) الترجمة العربية للرواية من إنجاز الأستاذ علي صالح ميران نفسه – رحمه الله – قبل وفاته، وهي لا تزال مخطوطة لم تر النور بعد.. وأرقام الصفحات تم اعتمادها بناء على النسخة الكوردية المطبوعة!

وفي مقطع آخر نجد وصفاً لشخصية أحمد خورشيدي على لسان الأستاذ خوشوي، يبين فيه جوانب من هذه الشخصية:

" كلنا نعرف أحمد خورشيدي جيداً، وكم هو بلا ضمير ولا يخاف الله، ولا مانع لديه أن يهرق دم المئات من الأبرياء، فقط من أجل رغبته ومقصده الأسود!.. أنتم تظنون بأنه الآن عميل للدولة، وأنه لن يأتي إلى قريتنا خوفاً من البيشمركة!.. كلا.. هذه القرية إنْ فقدت شخصاً عزيزاً واحداً، أفضل من أن تفقد المئات من الأشخاص الأعزاء! علينا أن نعرف جيداً بأن أحمد خورشيدي بادل أخته بصبا، لذلك فهو يعتبر صبا زوجته، ويعتبر من المهين لكرامته أن يتنازل عنها!.. أنتم تظنون بأنه لا يعرف شيئاً عن العلاقة بين صبا وسمكو.. كلا.. هو له علم بكل ما يدور في المنطقة.. ولقد سمعت بعض أقواله، وأعلم أنه لن يفعل شيئاً قبل الزواج من صبا، ثم بعدها ينتقم منهما دون رحمة.. لقد أقسم ووضع يده على شاربه، وقال:

- هذه الشوارب ليست لرجل، إن لم أجعلها عبرة لمن يعتبر.. سأتزوجها فقط لليلة واحدة، ومن ثم أعرف ماذا أفعل بها!.." (ص٢٥).

وهكذا، فصبا إذ تدرك أنها قد زوجت لهذا الشخص منذ طفولتها، بدون علمها، ولا رضاها، وإذ تعي الآن حقيقة شخصية (زوجها) الكريهة، والعنيفة، فإنها تجد نفسها لا تميل إليه، ولا تحبه، وخاصة أن هذا الزوج صاحب زوجة وأطفال.. ولذلك فإنها تقع في غرام أحد شباب القرية، الذي يقع هو الآخر في حبها، ويحاولان معاً إيجاد مخرج لصبا من هذا الزواج.. ولكنهما لا ينجحان في ذلك، وتزف صبا إلى زوجها أحمد خورشيدي رغم كل محاولاتهما..

أحمد خورشيدي هذا شخص جاهل، ولكنه غني، ورئيس فرقة فرسان مرتبطة بأجهزة الدولة.. ولذلك فإنه عندما يشعر بأن صبا لا تريده، وتأتيه الأخبار بأنها تحب شخصاً آخر، فإنه يقسم بأنه سيتزوجها ولو ليوم واحد، ثم يتركها بعد ذلك للكلاب.. وهو ما يقوم به فعلاً.. فبعد أن يبني بها، يرسلها إلى أهلها بعد فترة، ولا يعود يسأل عنها..

يحاول سمكو، حبيب صبا، أن يمنع حصول هذا الزواج، ويسعى لقطع الطريق عليه بكل السبل، حتى أنه يحاول قتل أحمد خورشيدي هذا، ولكنه يفشل، ويتم زواج صبا من خورشيدي..

وبعد أن عادت صبا إلى بيت أهلها، ولم يعد خورشيدي يسأل عنها، فإن سمكو يظل يفكر ويخطط للوصول إلى صبا، والعيش معها بعيداً، رغم كل العقبات.. ولذلك فإنه يفكر

بخطة للهروب معاً، والالتجاء إلى شخصية دينية عشائرية معروفة في مدينة أربيل، باسم شيخ عبيد، (هو والد الأستاذ خوشوي في الوقت ذاته)، ومن ثم محاولة الصلح مع أحمد خورشيدي من هناك..

ولكن خورشيدي، مع كل التنازلات التي تقدم له من قبل أهل سمكو وأقربائه، لا يرضى بالصلح معهم، إلا في ظل شروط قاسية، ومنها أن يعطوه فتاتين بدلاً من صبا، وأن تبقى صبا في ذمته مع ذلك لا يطلقها حتى حين!..

وفي ظل بقاء سمكو في بيت الشيخ، وفي ظل خطر إلقاء القبض عليه متلبساً بجريمة الاختفاء والهروب من الخدمة العسكرية، يعرضون على سمكو فكرة الالتحاق بإحدى فصائل قوات الفرسان (قوات كوردية غير نظامية، كانت تابعة لأجهزة الدولة، وتعمل تحت إمرة الجيش العراقي حينها، لمساعدتها في القضاء على تحركات الثوار الكورد)، ومع أنه يمانع في البداية، ولكنه يوا فق مجبراً، ويلتحق بها.. وسرعان ما يقع أسيراً بيد (قوات البيشمركة) ، في هجوم لها على الربايا التي كان ملتحقاً بها.. ثم يختفي سمكو إلى الأبد، ولا يعود له أثر (والرواية تعيد ذلك إلى الصراع والتنافس غير الشريف بين الفصائل الكوردية المسلحة فيما بينها، وتلقي باللوم عليها في اختفاء سمكو – سنشير إلى ذلك لاحقاً –)..

وبعد حوالي أكثر من عام على أسر سمكو واختفائه، وبعد أن يئست صبا من عودته، وتحولت للعيش في بيت خوشوي وشرمين بعد زواجهما، يطرق بابها للزواج من قبل رجل صاحب دكان قريب من بيت خوشوي، وترضى صبا بالزواج منه رغم أن له طفلتين من زوجة سابقة مطلقة، وذلك أملاً في تغيير رتابة حياتها..

ولكن بعد فترة من زواج صبا من (عزيز الشيخ) يحصل تطور درامي مثير في حياتهما، إذ تعود زوجته الأولى إلى الصورة، في ظل مطالبة وضغط من أحد أقربائها على عزيز لإعادتها إلى عصمته، وإلا.. وتحت التهديد، وخوفاً على حياته، يعيدها عزيز إلى عصمته (دون أن تبيّن الرواية موقف الأستاذ خوشوي، وزوجته شرمين، والشيخ عبيد، الذي كان يعتبر صبا مثل بناته! وكيف سكت هؤلاء جميعاً أمام تطور جديد ومريب مثل إعادة الزوجة المطلقة؟! وهذه نقطة ضعف في النسيج الفني الواقعي للرواية).

هذا التطور الدراماتيكي في حياة صبا، وزواجها، ينتهي بها إلى الوفاة، بعد أن تخسر طفلها الرضيع أولاً ، ثم تفقد هي أيضاً حياتها، مع زوجها، في تطورات دراماتيكية بسبب خبث ضرتها، وصراعها معها..

حياة صبا في هذه الرواية تثير العديد من القضايا والأدواء الاجتماعية، التي كانت سابقاً منتشرة، ولا تزال آثارها موجودة، وخاصة في المناطق الأقل تطوراً، والبعيدة عن المدن الكبيرة.. ومنها:

١- قضية تزويج الفتيات بدون رغبتهن، ولا إرادتهن، وأحياناً وهن صغار لا يعلمون شيئاً - ومنها الطريقة العرفية المشهورة باسم (زواج الشغار) - وآثار هذه العادات على حياة الفتاة، وحياة عائلتها.

٢- مسألة بكارة الفتاة عند تزويجها، وضروة إثبات ذلك أمام الملأ، والأعراف المتبعة في ذلك، ومنها أن يغمس الرجل قطعة قماش بيضاء معدة مسبقاً في دم العروس بعد فض بكارتها، وإشهارها أمام الملأ، كدلالة على الطهارة، والعفة.. وكثيراً ما ينتهي الزواج بالطلاق، وافتراق الزوجين، منذ الليلة الأولى، فيما إذا لم ير أثر الدم، بعد دخول الزوج على زوجته.. وهذا المقطع من الرواية يشير إلى هذه الظاهرة:

"في اللحظة التي دخل عليها أحمد خورشيدي لم تكن تشك بأنه زوجها.. هي لم تر وجه زوجها من قبل أبداً.. إذن، فأي شخص يدخل إلى غرفتها في هذه الليلة، لا بد أن يكون زوجها.. ولو دخل عليها رجل آخر، فهي كانت ستحسبه زوجها أيضاً..

فجأة دخل عليها رجل طويل ضليع عريض الكتفين، دون أن تظهر ذرة فرح وبشاشة على وجهه، ودون أن ينزع مسدسه وخنجره عن نطاقه، ويا ليته فك حزامه على الأقل، لكنه نزع سرواله بسرعة، وظهر سرواله الأبيض الذي كان مربوطاً بتكة لباسه الداخلي!

في الوقت الذي كانت جالسة على طرف سريرها باستحياء، تنظر أمامها، وكأنها تعد المربعات الملونة التي كانت منقوشة على السجادة التبريزية.. وضع يديه الخشنتين تحت ذراعيها، ورفعها في الهواء، ثم ألقاها على السجادة المستطيلة، التي ثبتت في وسطها قطعة قماش بيضاء.. كان عقدها الذهبي ما يزال على صدرها، والأساور في يديها.. مد يديه بحركة سريعة إلى ذيل ثوبها، وأمسك سروالها الداخلي، ونزعه بكل ما فيه من قوة.. ارتض فخذها الأيمن من شدة الاحتكاك.. سحب تكة سرواله الداخلي بسرعة أكبر، وألقى بنفسه بين فخذيها!.. لولا صوت الطبل والمزامير في الحفل، لكان صراخها سمع في كل أنحاء القرية، ولأجفل كل ذي ضمير.. عدا عدد من النساء، منهن ديدبانة العروس التي كانت في انتظار الحدث، متربصة في الغرفة المجاورة!

بعد عدة دقائق نهض عنها، ودون أن يكلمها، انشغل بربط تكة لباسه وهو يمشي.. فتح باب الغرفة، وسحب مسدسه ذا القبضة العاجية، وأطلق عدة طلقات نارية في

الهواء.. ومع إطلاقات أحمد خورشيدي، جاء دور هؤلاء الناس الذين كانوا يحتفلون في الخارج، وكأنهم بانتظار النتيجة، فبدأوا يتسابقون في إطلاق الرصاص في الهواء!" (ص٩٣).

٣- العواقب الخطيرة لتعدد الزوجات: بعد أن تتزوج صبا بعزيز الشيخ، وبسبب ضعف شخصية عزيز، وبضغط من ابن عم زوجته السابقة، يضطر عزيز إلى إعادة زوجته الأولى إلى عصمته، وهذا ما يكون سبباً لانتكاسة جديدة، ومأساة أخرى في حياة صبا، حيث تذيقها ضرّتها سوء العذاب، وتتلاعب بحياتها، لتنتهي هذه المرة بوفاتها..

٤- باختصار: رواية صبا رواية واقعية عن حياة المرأة الكوردية في الأرياف، تعطي صورة عن القيود والأعراف الاجتماعية التي تتحكم بحياتها، والتي تضطر إلى الاستسلام لها، أو الوقوف في وجهها، وهو ما يسبب التعاسة والمشاكل لها، وكثيراً ما ينتهي الأمر بفقدان حياتها..

ثانياً: قضايا الثورة والنضال

مع أن رواية صبا هي رواية اجتماعية واقعية، لكنها تهتم كثيراً بتصوير جوانب من النضال الوطني للشعب الكوردي، وثورته ضد الظلم المسلط عليه، في ذلك الوقت.. وسنحاول أن نستعرض جوانب مما أثارته الرواية، ومرت عليه:

أ- إدانة الاقتتال الداخلي، وحرب الأشقاء والفصائل المسلحة ضد بعضها البعض: ونرى ذلك على لسان بعض شخصيات الرواية.. كما نرى في هذا المقطع على لسان (بابكر)، والد سمكو:

"لم يذهب سمكو إلى مفرزة سيد أمين، بحجة أنه ضد اقتتال الأخوة، فهو يرى أن البيشمركة كلهم أخوة، ولهم هدف واحد.. وكان سيد خلال السنوات المنصرمة، قد خاض أكثر من مئة معركة مع الجماعة المنافسة لهم.. وكما قال العم بابكر: لو حارب نصف هذه الحروب مع الدوائر الأمنية للنظام، الذين استقروا على تخوم كركوك ولغاية الحدود الشمالية والشرقية، لما كان بإمكان أعدائهم البقاء في مقراتهم لليلة واحدة.. لكن كل هذا من سوء حظ الكورد!"(ص٣٣).

ب- التنافس والصراع بين الفصائل والأحزاب الكوردية: وهو ما يبدو واضحاً في النص الذي أوردناه أعلاه.. كما أنه يتم تسليط الضوء عليه في أكثر من موضع من الرواية، ويصور بصورة سلبية. . حيث نرى أن قسماً من مشاكل (خوشوي)، هي بسبب اعتباره تابعاً لحزب منافس، ومن ثم يوضع تحت المتابعة والملاحقة من قبل الحزب الآخر..

وكذلك بالنسبة لسمكو، الذي يفقد حياته في الأسر، في سجون البيشمركة، بسبب هذا الأمر.. عندما يتعرض للاختفاء على يد البيشمركة، من دون رفاقه الآخرين الذين وقعوا معه في الأسر.. كما جاء في هذا الحوار بين خوشوي وصبا:

" - يقولون.. إنه أثناء التحقيق معه، اعترف بأنه عضو في تنظيمات حزب منافس!

- ما معنى هذا؟

- لا شيء، إن شاء الله.. لكنه منذ ذلك الوقت انفصل عن أصحابه، ولا خبر عنه!

- لماذا، ألا يقولون أن الاقتتال بين الأخوة انتهى، وأنهم متفقون؟! هل يوجد فرق بينهم؟ حسناً.. يا أخي، لماذا جماعتكم لا يساعدونه؟!

- تشكّلت جبهة فيما بينهم.. سيطلق سراحه دون مقابل إن شاء الله!

تحدثت هي بأسى، وقالت:

- أعلم أنك تريد أن تطمأنني وتواسيني، لكنني أرى في عينيك اليأس!" (ص ١٧١).

ت- قضية الجحوش والأفواج الخفيفة: يتم الإشارة إلى هذه القضية في عدة مواضع من الرواية، ويتم تصويرها على لسان شخصيات الرواية على أنها ضد مصالح الشعب الكوردي، وأنها خيانة للوطن، ولقضية الشعب الكوردي (مثلاً الصفحات (١٩) و(٢٥) و(٤١) و(٥١)، ومواضع أخرى من الرواية).. وكما يتبين من هذين المقطعين:

" كثير من العوائل، بدلاً من الانخراط في الخدمة العسكرية، أو خوفاً من بطش الحكومة، أو للحصول على سلطة وهمية، كانوا يسجلون فرداً أو أفراداً منهم في الأفواج الخفيفة.. يوجد من بين رؤساء هذه الأفواج من هو أشرس من أي قائد عسكري للنظام.. ويوجد بينهم من يحصل على الدعم المادي والمعنوي من الحكومة المركزية، وله علاقة متينة مع البيشمركة أيضاً، ولكلامه الاعتبار الكامل في داخل الثورة، كأي من قادة البيشمركة الميدانيين.." (ص١٠٢).

"صحيح أن سمكو أسر وهو ضمن أحد أفواج الجحوش، لكن لماذا لم يطلق سراحه مثل باقي الأسرى مقابل مبلغ من المال؟! لماذا أصبح مصيره الاختفاء في موطن أجداده؟ لا أدري ماذا تستفيد ثورتنا من إخفائه أو قتله؟! يا ليت الذين أخفوه يعلمون كم كان أميناً ومخلصاً لوطنه.. كان دوماً كالشمعة تحترق لينير درب أمته المظلومة، ولولا خوفه من مكر ملازم نجم وأعماله الشيطانية، وحفاظاً على حياة أهله وأحبابه، ما كان يتجه إلى المدينة ويحمل السلاح ضد شعبه!" (ص ١٧٨).

ث- مأساة الأنفال: حاول الكاتب من خلال الرواية أن يسلط الضوء – ولو من بعيد – على ما كان يتعرض له الشعب الكوردي آنذاك من تهجير وقتل، وضرب بالأسلحة

الكيمياوية، وأخيراً جريمة الإبادة الجماعية المعروفة باسم عمليات الأنفال.. لكي يضع القارئ في الصورة، ويعطي صورة واقعية لما كان يعيشه الشعب آنذاك.. كما في هذين المقطعين:

"أخي كامو.. لأحكي لك: في السنة الماضية، كنا ضمن الهيئة التدريسية التي كلفت بالإحصاء والتعداد السكاني.. لهذا الغرض، ذهبنا إلى مجمعي (بحركة) و(جزنيكان).. أكثر أهلها كانوا من قاطني القرى الحدودية، وتم ترحيلهم قسراً إلى هذه المجمعات.. آه.. ماذا رأينا؟!!

أخي العزيز.. من كل أهالي القريتين، لم نر سوى النساء والأطفال.. وعندما رأينا صور رجالهم وأبنائهم على بطاقات الأحوال المدنية، سألنا عنهم.. هم اعتقدوا بأننا من رجال الأمن، لذلك قالوا:

- (هم عندكم.. أنتم أخذتموهم، ولم تعيدوهم!)..

أكثر من أربعة أو خمسة آلاف رجل من رجالهم تمت إبادتهم.. أخي كامو، مع أول نظراتنا إليهم شعرنا بشواط أكبادهم المحروقة..!" (ص ٢١٠).

"في هذه الأيام بدأ النظام بنفير عام لاعتقال الرجال والنساء والأطفال في منطقة (كرميان)! لا يستثني أحداً!

- وماذا يفعل بهم؟
- لا أدري، لأن الأخبار متفرقة، لكن الشيء الظاهر هو أن هذه العملية تشمل جميع قرى كوردستان، وقصباتها.. ثم يتم ترحيلهم إلى المناطق الجنوبية من العراق!
- آه.. يا إلهي، كيف يتم ترحيل شعب بكامله، وأين يسكنونهم؟!
- أجل.. مئات الآلاف من هذا الشعب، وبالأخص شبابهم الذين هم عماد الوطن، يرحلونهم موجة بعد موجة بواسطة اللوريات العسكرية، والتراكتورات، و..

أوقفه البكاء ومنعه من الاستمرار في الحديث.. مد يده إلى قدح الماء الذي ما زال منتصفاً.. بلل حنجرته بجرعتين..

- إلى أين يرحلونهم؟ أما انتهت الحرب الإيرانية العراقية؟
- يا أخي.. هي مأساة، لا أظن أن أحداً يخرج منها سالماً!
- قل لي لماذا، هؤلاء لم يكونوا بيشمركة ولا مسلحين؟!!
- لك الحق.. فأنت لم تر لحد الآن وحشية هذا النظام، ولم ينتشر سمّ هذا الثعبان في جسدك لحد الآن.. أتمنى من الله أن يحفظ الجميع!" (ص ٢١٢).

ج- وهناك بعض الجوانب الأخرى المتعلقة بنضال الشعب الكوردي، والمآسي التي تعرض لها، التي عرض لها الكاتب في مواضع متفرقة من روايته.. ونستطيع أن نوجزها تحت العناوين التالية:

١- النضال السري ضد النظام البائد داخل المدن (الصفحات ٥٧ و ١٤٤ و٢١٩-٢٢٢).

٢- قسوة ووحشية أزلام النظام تجاه الأهالي والمواطنين (يمثلهم في الرواية: أحمد خورشيدي، ملازم نجم، ورشيد – ابن عم جيهان) (الصفحات ١٠١ و ١٠٩ و ١٢٦ و ١٤٥ و١٧٤ و ٢٩٤).

٣- اضطرار عامة الناس إلى الانضمام إلى الأفواج الخفيفة، إما للمحافظة على أرواحهم، أو لتحقيق بعض مصالحهم، أو للهروب من أداء الخدمة العسكرية، أو لغير ذلك (الصفحات ٢١ و ١٣٣-١٣٤ و ١٤٣).

٤- الخوف من سيطرات الحكومة ومساءلة أزلامها: (عرف عن حكومة البعث قسوتها ومعاملتها السيئة لمواطنيها، وخاصة الكورد منهم، ولذلك كان الناس يخافون الاقتراب أو الاحتكاك بهم، كمؤسسات حكومية، أو أجهزة أمنية، أو أفراد)، (الصفحات ١٧ و٦٩ و١١٧- ١١٨ و ١٣٠).

٥- الا علاقة بين أهالي القرى والبيشمركة: تستعرض الرواية صوراً من هذه العلاقة بصورة غير مباشرة (الصفحات ٣٧ و ٥١- ٥٧ و ٥٨- ٦٢ و ١٠٥).

ثالثاً: أنموذج الشباب المناضل والواعي بآلام ومآسي شعبه

يبرز أنموذج الأستاذ خوشوي، في هذه الرواية، كنموذج لذلك الشاب الواعي والمناضل، الذي يعمل بهدوء وواقعية لخدمة أبناء شعبه، داخل المدن، في نضال مدني سلمي؛ حيث كان معلماً في قرية (زيني)، وتخرج على يديه – هو وزوجته شرمين، الوجه الآخر للنضال! - جيل مثقف واع (من نماذجهم في الرواية: بطلة الرواية صبا، وحبيبها سمكو).. كما أن عودة واستقامة (كامو) - شقيق خوشوي- كانت على يديه أيضاً.. وهو أنموذج آخر للشباب المناضل، الذي يتوب عن حياة اللهو والغفلة، ويقرر أن يناضل في سبيل شعبه، ويقدم روحه فداء لذلك..

رابعاً: صورة المرأة في رواية صبا

هذه الرواية تحمل اسم امرأة، هي بطلة الرواية (صبا)، حيث تقوم هي بدور البطولة الرئيس فيها، وتدور أحداث الرواية عن حياتها.. صبا في هذه الرواية هي أنموذج للمرأة القروية الصابرة، الواعية، والمحبوبة، والمضحية.. نموذج للمرأة المغدورة والمظلومة من قبل الأعراف والتقاليد الاجتماعية المتخلفة..

وفي المقابل، هناك شخصية (جيهان) (ضرّة صبا)، تلك المرأة العابثة، اللامبالية، التي ترتع في جهلها، وتعيش منه، وتوزع من أحقادها، وشرورها على من يعيشون معها، ولا يسلم منها لا زوج، ولا غيره.. وهي في الوقت ذاته، ضحية تلك الأعراف والتقاليد المتخلفة نفسها، ولكن في صورة أخرى، وضحية الجهل، والفقر، وأهواء النفس.. وهي تجسد الوجه السلبي للمرأة في الرواية، سواء من حيث أخلاقها وسلوكها، أو من حيث قسوتها وموت ضميرها..

وهناك من جهة أخرى، أنموذج آخر، للمرأة المثقفة، الواعية، تجسده في الرواية ست (شرمين)، معلمة القرية، وزوجة خوشوي، سليلة بيت النضال والوطنية، حيث يبرز دور المرأة الإيجابي من خلالها، سواء من حيث عملية التربية والتعليم في المدارس، أو من حيث بث الوعي ، والنضال السلمي من أجل شعبها، أو من حيث تجسيدها دور المرأة المحبة المخلصة لزوجها، ولأهلها، ولشعبها..

ونستطيع أن نقول هنا: إن (صبا) هي رواية المرأة الكوردية، ومعاناتها، بحق.. وأن الروائي قد نجح في جعل صبا أيقونة للمرأة الكوردية البسيطة، الصابرة، المضطهدة.

خامساً: دور الدين، ورجل الدين (الملا)

لم يتم الحديث عن دور الدين، ورجاله، في هذه الرواية، إلا في بعض الأماكن القليلة.. ومنها (ص ٥٩- ٦٢)، حيث يجري نقاش بين (الملا فكرت) – وهو رجل الدين المكلف في القرية بإمامة الصلاة، وإقامة بعض الواجبات الدينية فيها-، والملازم نجم، وهو الشخصية المكروهة التي يتم تصويرها كأنموذج للخيانة، والقسوة..

وكذلك ثمة في الصفحات (٧ و ٨ و ٢١ و ٧٢)، إشارات إلى دور رجال الدين في معالجة بعض مشاكل الناس وقضاياهم..

ولكن في المقابل، هناك اهتمام أكبر وأوضح ببيان دور وتأثير شخصية اجتماعية دينية عشائرية مثل (الشيخ عبيد)، في مساعدة الناس، ومعالجة مشاكلهم.. في صفحة (٢٠) يتحدث خوشوي عن والده شيخ عبيد بهذا الشكل:

"أنت تعرف والدي كثيراً، وكلاكما من أهل منطقة واحدة، وتعرف بأن والدي هو شيخ طريقة كبيرة، ولا أشك أنك تحبه كثيراً، ولدينا صلة قرابة مع البيكات والأغوات في المنطقة.. لكنه بدلاً من حمل المسدس، يحمل عود (السواك)، ويقضي أكثر أوقاته في المسجد!.. حضرتك تتذكر اليوم الذي توجه إليه كثير من الناس وأرادوا منه -خشية أن يصبحوا تابعين لغيره - أن يطلب من الدولة أن تجعله رئيساً لإحدى الأفواج الخفيفة.. لكنه رفض طلبهم، وفرقهم ببعض الكلمات:

- إخواني.. بين أن أكون زعيماً لإحدى الميليشيات، وبين أن أكون ذاكراً وناصحاً في أحد المساجد.. أنا اخترت المسجد.. وأنتم لستم مجبرين على حمل السلاح، وطرق كسب لقمة العيش كثيرة!

ولكنهم ردوا عليه بغضب واستياء:

- شيخنا.. نحن كلنا هاربون من الخدمة العسكرية، ولا بد من وجود مكان في المدينة يضمنا ويسترنا.. وحفظ أرواحنا أهمّ من المسجد!

وكان والدي يرد عليهم بكل هدوء، ويقول:

كلا.. أنتم تحبون أن تحملوا السلاح، لأنكم تعرفون أنه بدون السلاح لا سلطة بأيديكم، وأنكم بغير ذلك لا تساوون فلساً زائفاً.. الشخص الذي يخاف من الله - عند كثير من الناس - هو شخص جبان، لأنه غير قادر على قتل الناس وهتك الأعراض وسلب الأملاك!"..

* * *

وبعد، فهذه قراءة سريعة لبعض جوانب رواية صبا، ولا شك أن هناك العديد من الجوانب، والزوايا، التي يمكن قراءة الرواية من خلالها، وهو ما يحتاج إلى متابعات أخرى..

يبقى أن نقول إن هذه الرواية تبين الحس الروائي للأديب الراحل (علي صالح ميران)، والأسلوب السردي السلس الذي كان يمتلكه لتصوير جوانب حياة الناس، وتجسيدها بصورة بسيطة، وواقعية، بعيداً عن التكلف، والابتذال..❐

قصة قصيرة

أنا لست كافراً..

بل الجوع كافر

قصة وترجمة : عبد الخالق البرزنجي

✍ في فجر يومٍ شتائي، كان المطر يهطل بغزارة.. أفاق سردار من النوم مضطرباً، وأسرع بغسل وجهه بحفنتين من الماء البارد. وبدون ان يتناول الفطور مضى الى ارتداء معطفه المهترئ، وأمسك مظلته بيده، ثم توجه صوب الشارع الرئيس.

وقف على الرصيف منتظراً.. لمح من بُعد سيارة موحلة من نوع (البيكاب)، وصلت إلى جواره بالقعقعة والخشخشة. وقفت بجوار الرصيف، وإذا بأحد العمال من داخل السيارة يناديه بصوت عالٍ قائلا: أخي، هيا اركب بسرعة.

ركب السيارة بسرعة البرق. رأى سردار خلفية السيارة ممتلئة بالعمال المرهقين ذوي العيون الناعسة الذين أخرجتهم آلام الزمن من بيوتهم في هذا الطقس البارد والمصقع بهدف الحصول على قوتهم اليومي. حشر نفسه بين الحشد المكتظ وجلس بهدوء.

بالإضافة إلى الطقس القارص، لقد أربكه حشد العمال هناك. كل فرد منهم كان منشغلاً مع رفيقه بالهمهمة والحديث غير المفهوم.

حين بلغت السيارة العلوة، ترجل هو من السيارة مثل العمال الآخرين. عقب تمشٍ قليل جلس هناك على الشارع العام فوق صخرة وتمتم قائلاً:

آه يا ربي العظيم لمَ استوت هذه الحياة على هذه الشاكلة؟! ترى فرداً جائعاً وفرداً آخراً شبعَاناً" ألم يقولوا: اليَد المرهقة تغفو على بطنٍ شبعة"، نحن أيضاً مُرهقون من وراء العمل، ولم نقف مكتوفي الأيدي، بينما نحن نلهث في الحصول على هذا القوت وجائعون دوماً.

على غفلة وضع شخصٌ ما يده على كتفه وفاجأه بالقول:

أخي .. ألا تعمل؟

نعم.

إذن، انقل لي هذه الصناديق إلى صندوق سيارتي.

شرع بالعمل إلى أن وضع آخر صندوق في خلفية السيارة، ثم نفض الغبار العالق من جسده قليلاً وقال:

- سيدي، ها قد أكملتُ العمل كما أمرت.
- سلمت يداك، تفضل خذ أجرتك.
- شكراً سيدي.

مضى الوقت شيئاً فشيئاً حتى أنهى أعمال ذلك اليوم. وفي طريق عودته نظر إلى جيبه وتمتم قائلاً:

حسناً.. كيف أصرف هذه العملات القليلة! أأصرفها على الخبز.. أم على الأدوية لأمي! على أية حال، حمداً لله الذي جعلني أكسب هذا القدر من النقود، فالحياة أصبحت صعبة جداً، لِمَ أصبح ناكر الجميل.

على غفلة، وفي طريقه التي سلكها صوب البيت، سمع صرخات وأصوات عالية من الناس في محيطه، وهم يهرولون صوب حديقة مجاورة لبيته، وهم يقولون:

ياناس .. ياعالم .. أُنظروا.. ها قد أحرق نفسه.. النجدة يا ناس، لقد أشعل في جسده النار..أسعفوه.. النجدة.. لقد أحرق نفسه...

ركض سردار مع الناس نحو الحديقة، هنالك رأى شاباً تتصاعد منه ألسنة النار.. كيفما كان، تم إخماد النار بهمة الناس الأخيار المحتشدين هناك، لكن بعد ماذا؟! كان الشاب في حال الاحتضار، ووجدت هناك شنطة سوداء يدوية مرمية بجانبه، وفي هذه الأثناء شرع شخص ما داخل الحشد بالحديث قائلاً:

-أتصور إن هذه الشنطة تعود إلى هذا المنكوب.

-فلنفتحها، ونعلم ماذا يوجد في داخلها.. قال واحد آخر.

-وآخر قال: يا ترى ابن أي نحس يكون هذا؟

- حسناً، لِمَ أقدم هذا البائس على هذه الفعلة الشنيعة بنفسه؟!

ذلك الرجلَ الذي كان بجوار المنكوب التقط الشنطة قبل الكل، وبادر بفتحها.. أخرج منها ورقة مكتوبة، وقرأ محتواها على مسامع المحتشدين، ثم رفع يده من مكانه صارخاً في وجههم:

-الجوع ! الجوع! ياناس.. يا عالم..

حين تسلموا منه الورقة، قرأوا فيها هذه العبارة:

(أيها الإخوة في كل مكان: أنا لستُ كافراً..بل الجوع كافرٌ)

حين سمع سردار هذه العبارة، اقتحم الحشد، وتقدم إلى أمام.. وحين دقق النظر في وجه الشاب المتفحم بفعل الحريق، تذكر في الحال وجه رفيقه الذي التقاه قبل أيام، والذي حدَّثه عن هموم الفقر والفاقة التي دبت في كيان أسرتهم. وهو بدوره شاطره همومه، ووعده أن يعثر على عمل له مهما كلف الثمن ليعملا سوية. لكن مصيره كما يبدو من هذا المنظر الشنيع وصل إلى هذه الحال التي أقدم فيها على الانتحار. اضطر أخيراً أن يجعل نفسه ولي أمره، وبادر بنقله عبر سيارة تاكسي إلى المشفى.

وصل سردار إلى البيت وقت الأصيل.. ما إن رأته زوجته أمام الباب حتى احتضنته وأطلقت الزغردات قائلة: شكراً لله.. لقد عدت إلى البيت سالماً معافى. كان سردار صامتاً صمت الأخرس، فاغر الفم، استغرب من إطلاق هذه الزغاريد.. لم يك يعلم لماذا استقبلته زوجته بهذه الطريقة!!

قالت له زوجته: الشكر لله، عدتَ سالماً إلينا! تفتح فم سردار وقال: ألا تقولين لي ماذا حدث، أيتها الزوجة العزيزة؟!

أجابته زوجته ببكاء حار، قائلة: عزيزي، اليوم عندما سمعنا خبر انتحار شاب ما في هذه الأرجاء، تصورنا أن المنتحر هو أنت!

احتضن سردار زوجته بقوة مرة أخرى، وانزاحت عبرات الفرح فوق وجنتيه.. ثم انحنى على ركبتيه فوق ابنته الصغيرة الواقفة بجوار والدتها، ورفعها بعيون ممتلئة بالدموع، واحتضن ثلاثتهم بعضهم .. ثم تحدث مع نفسه مغمغماً: قسماً بالله، فعلاً أنا كنتُ أفكر بأمر شبيه بهذه الفعلة، لكن بعد هذا الاستقبال الحافل من قبل زوجتي والعيون المتألقة لابنتي (نازه)، ندمتُ على هذه الفكرة، وأحسستُ بأنه: (لولا الأمل لما وجدت الحياة)، ولا يجوز أن أقدم على مثل هذه الأفعال المنبوذة التي حرمها الله على البشر، بل عليّ أن أقتحم عاديات هذه الحياة، كي أُنقذ أسرتي من هذه الظروف الاقتصادية الصعبة التي نعيش فيها❐

كانون الثاني ٢٠٢١/ أربيل

مؤامرة أم أخطاء بنيوية؟

محمد واني

منذ اغتيال مرشد جماعة الإخوان المسلمين (حسن البنا)، سنة ١٩٤٩، من قبل السلطات المصرية، والجماعة تتعرض لانتكاسات وتداعيات سياسية مستمرة، بلغت أوجها عقب ثورات الربيع العربي أواخر عام ٢٠١٠، حيث تعرضت الحركات الإسلامية التي تحمل الطابع (الإخواني)، في مصر والمغرب وتونس والجزائر، إلى حرب شعواء لا هوادة فيها، من قبل القوى المحلية والدولية. ويبدو أن المجتمع الدولي - المتمثل في القوى الغربية - لا يريد لهذه الجماعة أن تتولى السلطة في منطقة الشرق الأوسط، التي تمثل أهم المناطق في الاستراتيجيات الغربية والعالمية، وهو مصمم على إزاحتها بأي طريقة، سواء بالطرق التقليدية (الانقلاب العسكري)، كما في (مصر)، أو الانقلاب الناعم في (تونس)، وفق الرئيس قيس سعيد، أو وفق قواعد اللعبة الديمقراطية السائدة، في المغرب والجزائر- مثلاً -، والهدف في كلا الطريقين واحد، هو إزاحة الأحزاب والحركات (الإخوانية)، أو تلك التي تنحو منحاها، من على الواجهة السياسية.

فالغرب يريد إسلاماً يحاربه، مثل المنظمات الإرهابية، لا أن يحاوره، ويدخل معه في اللعبة الديمقراطية. وإذا سلمنا أن الغرب، ووكلاءه في المنطقة، يتآمرون فعلاً على جماعة الإخوان، و(يشنون ضدها حملة جهنمية) (وضعت بعناية، عقب الربيع العربي)، كما صرح بذلك الإعلامي في قناة الجزيرة (أحمد منصور)، وفق نظرية المؤامرة، وعلى ضوء هذه النظرية البائسة، تكون الجماعة هي الضحية البريئة التي تتعرض دائماً لمؤامرات الاستعمار، ودسائسه، ويمارس ضدها أنواع من القمع المنظم!

قد تكون القوى الغربية تستهدف الجماعة، والأحزاب الإسلامية، بشكل عام، وتتآمر عليها، وتحاول إزاحتها من الساحة السياسية، لأنها تشكل خطراً على مصالحها في المنطقة، ولكن هذه الجماعة تتحمل الجزء الأكبر من إخفاقاتها السياسية المتكررة، وترتكب أخطاء جوهرية فظيعة، تظل تعيدها في كل مراحل حياتها السياسية. فكان لا بد من الهزيمة المتكررة دائماً أمام الغول الغربي، ووكلائه العلمانيين، طالما ظل خطابها تقليدياً، عصياً على المراجعة وقراءة الواقع المحلي، والعالمي، قراءة دقيقة شاملة❐